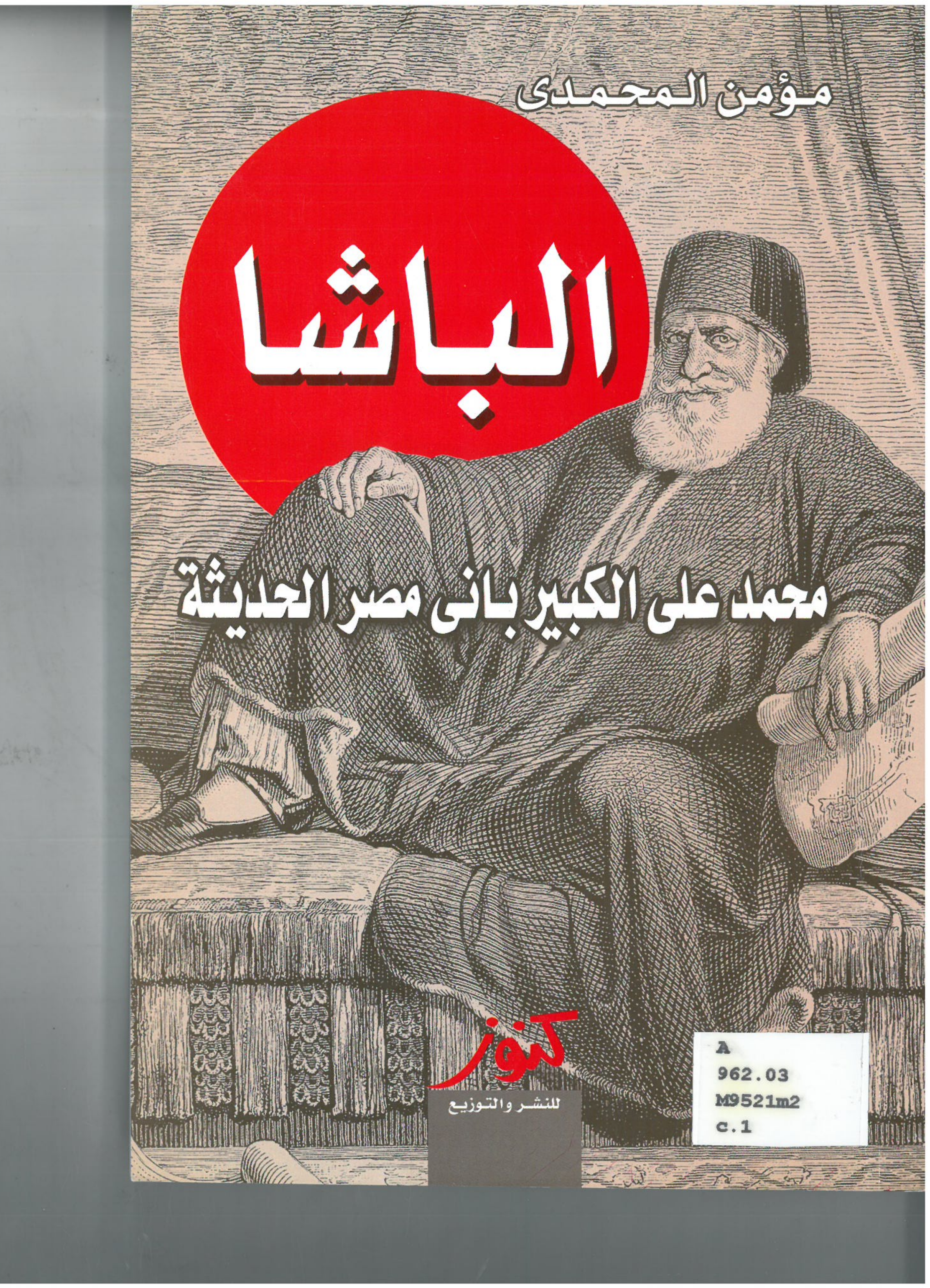

مؤمن المحمدى
الباشا
محمد على الكبير بانى مصر الحديثة
كنوز
للنشر والتوزيع

الباشا..
محمد على الكبير بانى مصر الحديثة..

دراسة وإعداد
مؤمن المحمدى

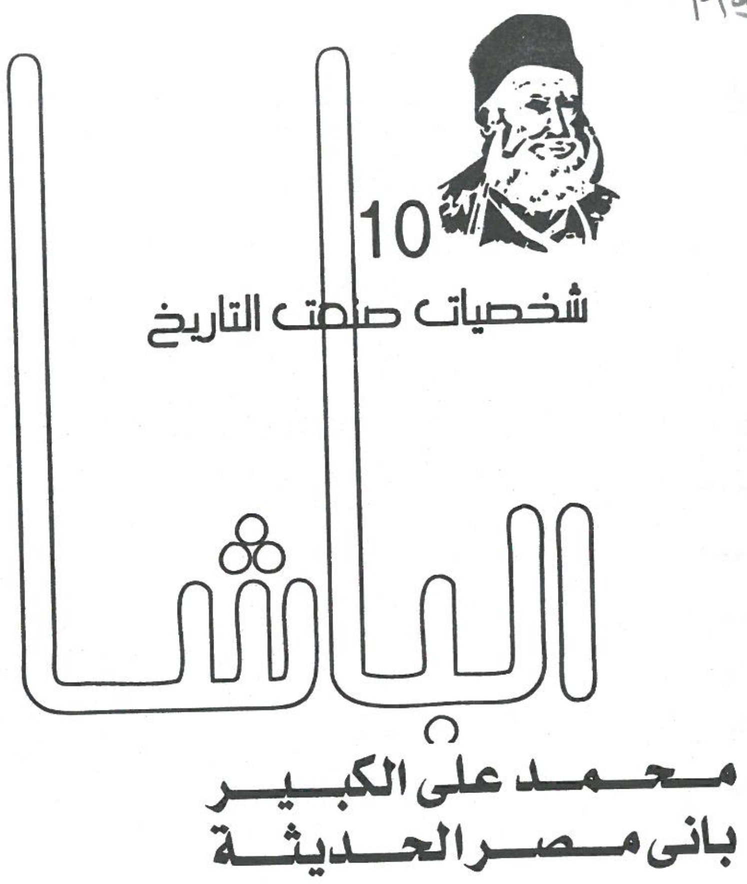
الإشراف العام
ياسر رمضان

الناشــــر
كنوز
للنشر والتوزيع
37 ش قصر النيل ـ القاهرة تليفون: 012 7717795
kenouz55@yahoo.com

التنفيذ الفنى
رواق
rewaq
3036809

رقم الإيداع: 2011/17045
الترقيم الدولى: 977-5307-39-9

الطبعة الثانية 2011



الباشا

محمد على الكبير
بانى مصر الحديثة

دراسة وإعداد
مؤمن المحمدى





للنشر والتوزيع



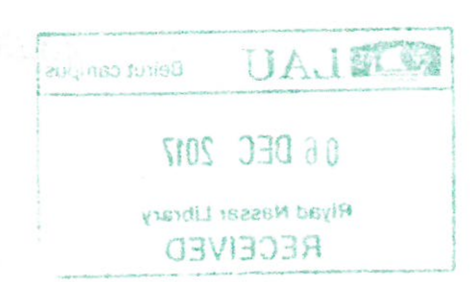
محمد على باشا، هو اسم لا يمكن أن تتجاهله، فمصر الحديثة تدين بالفضل لاثنين لا غير، محمد على باشا وجمال عبد الناصر.

قد تكره محمد على باشا، قد ترفضه وترفض أفكاره، قد تراه محتلا على خلفية أنه لم يكن مصريا، قد تعتبره مجرما قاتلا، وقد تتخذ منه موقفا لاعتبارات أيدلوجية كما يفعل الوهابيون الذين حاربهم محمد على وانتصر عليهم، أو كما يفعل القوميون الذى لا يريدون أن يزاحم عبد الناصر على لقب بانى مصر الحديثة أحد من الزعماء، قد تكون ليبراليا من المؤمنين بمفاهيم الغرب حول حقوق الإنسان والحرية وما إلى ذلك فتعتبره ديكتاتورا ظلم شعبه واحتكر الزراعة والصناعة وأدى بشعبه إلى الهلاك.

قد تكون كل هذا وأكثر، وبالطبع فإن كل هذا من حقك، ومن ذا الذى يدعى أنه يمتلك اليقين أو الحقيقة المطلقة. غير أنك، مهما كنت، لا يمكنك تجاهل أن هذا البلد (مصر) قد عرف المدنية الحديثة من خلال هذا الرجل.

فالمدارس بدأت أول ما بدأت مع محمد على، ونظم الزراعة والمصانع (الفابريقات) ودواوين الحكومة، والجيش النظامى، والهوية والوطنية والانتماء للبلد، والسعى إلى الاستقلال عن أية تبعية، كل هذه أشياء لم نعرفها إلا مع بداية العصر الساحر لمحمد على باشا.

غير أن الأجيال الجديدة لا تعرف من هو محمد على، ربما يعرفون شارع محمد على، أما محمد على نفسه فقليل من يعرفون سيرته، ومن اطلعوا على تجربته.



ولذلك فكرنا فى هذا الكتاب، سنحاول أن نلقى الضوء على سيرة الرجل الذى بنى مصر الحديثة، بناها على صواب أو على خطأ. على حق أم على باطل. كل هذه التقييمات سنتركها لك، علينا أن تصل إليك المعلومة، وعليك أن تقرر ماذا تفعل بها.

فإلى سيرة الرجل العملاق..

■■■



1 أوقات عصيبة

■■



الأيـــام الأولـــى

■■

من المؤكد أن محمد على قبل توليه حكم مصر لم يكن شيئا مذكورا.

كان فردا آخر من ملايين الفقراء الذين تضج بهم الكرة الأرضية فى عصر بلا نقطة ضوء، فأوروبا لم تكن قد بنت حضارتها، والحضارة العربية الإسلامية كانت فى أفول مستمر منذ قرون. هكذا كان محمد على هو أحدهم. وربما كان هذا هو السبب فى الغموض الذى يحيط بأيامه الأولى، لكن عموما هناك ثوابت. فقد ولد محمد على باشا بمدينة قولة إحدى مدن اليونان سنة ١٧٦٩ م وكان أبوه إبراهيم أغا رئيس الحرس المختص بحراسة الطرق ببلده وكان له سبعة عشر ولدا لم يعش منهم غير محمد على، وقد مات أبوه وعاش يتيما لا يتجاوز الرابعة عشر من عمره فكفله عمه طوسون الذى توفى فكفله صديق والد حاكم المدينة الشوربجى.

مدينته وبيته

أما قولة فهى مدينة يونانية تقع فى شمال البلاد ضمن منطقة مقدونيا الشرقية وتراقيا الإدارية، وهى مركز مقاطعة تحمل نفس اسمها ضمن هذه المنطقة الإدارية.

وقد وجد فى جوار المدينة ما يدل على أن المنطقة كانت مسكونة قبل تاريخ تأسيسها تم على يد مستوطنين قدموا من جزيرة ثاسوس فى القرن السادس قبل الميلاد، وكانت وقتئذٍ تدعى نيابوليس Neapolis بمعنى (المدينة الجديدة). أصبحت ميناء فيليبى، وأخذت صفة مدينة رومانية (سيفيتاس) عام ١٦٨ ق.م.، وكانت قاعدة أسطول بروتوس أثناء معركة فيليبى.

كانت الميناء التى يحط فيه القادمون من المشرق إلى أوروبا حيث يعتقد أن بولس الرسول نزل فيها عندما كان ذاهباً إلى فيليبى.

فى الفترة البيزنطية أصبح اسمها خريستوبوليس Christoupolis بمعنى (مدينة المسيح)، أحرقت المدينة من قبل الصليبيين أثناء تقدمهم نحو القسطنطينية عام ١١٨٥م. سيطر عليها الكتلانيون عام ١٣٠٦، ولكن بدءاً من العام ١٣٧١ أصبحت جزءاً من الدولة العثمانية حيث ازدهرت كسوق زراعى ومركز لتجارة التبغ، ولد فيها عام ١٧٦٩ م. ويقال إن والد محمد على باشا كان تاجر تبغ ألبانيا.

استولت عليها القوات البلغارية عام ١٩١٣ أثناء الحروب البلقانية، وعند دخولها للمدينة قامت هذه القوات بارتكاب مجزرة بحق السكان الأتراك الذين لجؤوا لها من المناطق المجاورة مثل دراما وجبال الرودوب، فبحسب التقديرات العثمانية وقتها بلغ عدد ضحايا المجزرة ٧٠٠٠ تركى. حيث كانت سياسة التطهير العرقى متبعة خلال هذه الحرب، بعد ذلك بعام دخلتها القوات اليونانية وطردت البلغار.

احتلتها بلغاريا مرة أخرى أثناء الحرب العالمية الثانية عندما كانت تحت النظام النازى. استعادتها اليونان بعد نهاية هذه الحرب.

ويوجد حاليا فى قولة منزل محمد على باشا: وهو على الطراز العثمانى بنى عام ١٧٢٠ م. بجانب بناء الإمارت، الآن أصبح مطعماً. مقابله يوجد تمثال ضخم لمحمد على تبرعت به الجالية اليونانية بمصر.

وعن قصة هذا المنزل نشرت جريدة الأهرام السبت ٢٠٠٧/٩/٢٢ تحقيقا كتبته الصحفية مايسة السلكاوى جاء فيه: بعد مرور أكثر من ١٧٥ سنة سوف تعود الحياة مرة أخرى إلى قصر محمد على باشا بمدينة قولة باليونان والمعروف بقصر الإيماريت وأيضا بيته الذى ولد فيه، ليستقبلا ضيوفهما بعد أن أصبحا فندقا ومزارا سياحيا وعالميا.

ويمثل بيت محمد على وقصر مبنى الإيماريت قيمة تاريخية كبيرة وقلعة إسلامية فى أوروبا باعتبار أن الايماريت هو الطابع الإسلامى الوحيد الباقى بعد هدم

التكايا المصرية فى مكة والمدينة ومنى بالسعودية، لذلك اتفقت الحكومتان المصرية واليونانية على عدم بيعهما وتقرر تأجيرهما فى مزايدة علنية بشرط إصلاحهما لإعادتهما لما كانا عليه.المهندس عبد الرؤوف محمد رئيس هيئة الأوقاف المصرية يوضح أن الهيئة وقعت فى أغسطس٢٠٠١ عقدا بتأجير قصر مبنى الإيماريت وبيت محمد على لمدة خمسين عاما مع السيدة أنا ميسريان وهى يونانية الأصل وذلك بعد أن أعلنت الهيئة عن تأجير الأراضى والعقارات غير المؤجرة التابعة لوقف قولة الخيرى باليونان فى مزايدة علنية عالمية، مشيرا إلى أن كراسة الشروط تضمنت أنه لا يحق لمقدم العطاء إقامة أى منشآت جديدة أو إحلال وتجديد أو إقامة مشروعات إلا بعد الرجوع إلى هيئة الأوقاف المصرية وأن تؤول ملكية جميع الإنشاءات التى يتم إقامتها إلى الوقف الخيرى دون المطالبة بأى تعويضات عنها فى نهاية مدة التعاقد.

بيت محمد على

أنشأ والد محمد على باشا هذا البيت فى منطقة أثرية مرتفعة بمدينة قولة ويطل على البحر وأمامه حديقة مساحتها٢٠٠٠ متر مربع وبجوار البيت قبر والده وبالمنطقة الفضاء تمثال لمحمد على ممتطيا حصانا مصنوعا من النحاس على قاعدة من الرخام الأبيض.ويتكون البيت من دورين ويشغل مساحة٣٠٠ متر مربع مبنى من الحجر الطبيعى والأرضيات والأسقف من الخشب والسطح العلوى مائل ومغطى بالقرميد الفخارى. أما قصر الإيماريت فقد أنشأه محمد على باشا فى الفترة من١٨٠٨ م-١٨٥٩ م وفقا للنصوص المكتوبة أعلى المداخل باللغة التركية، ويقال إن القصر استخدم كمدرسة بحرية وفى أغراض خيرية.

ويضم القصر أربع وحدات لكل منها مدخل مستقل يتوسط كل وحدة منها فناء مفتوح وتتكون من دورين، الأرضى يقع أسفل منسوب الشارع ويتكون من غرف تحيط بالفناء، والدور العلوى فى مستوى منسوب الشارع ويتكون من غرف تطل على الفناء الداخلى والأسقف بصفة عامة مغطاة بقباب والأسطح العلوية جميعها مغطاة بألواح الرصاص.

مصير البيت

نشرت جريدة الأخبار تحقيقا عن البيت بتاريخ ٢٠٠٧/١١/٥ حول مصير بيت محمد على كتبته الصحفية ألفت الخشاب جاء فيه:

ما قصة وقف قولة الذى تمتلكه مصر فى اليونان، وهل حقا تجاوزت هيئة الأوقاف أسندت مشروع ترميم هذا الوقف واستغلاله سياحيا لشركة يونانية دون مناقصة ولمدة نصف قرن؟!

هذه الأسئلة طرحت نفسها بعد أن اتهم رجل الأعمال محمد حسان المغربى هيئة الأوقاف بهذه الاتهامات وكان قد رسى عليه المزاد الأول ولأن الأخبار أفسحت له المجال لسرد كل ما عنده فى هذا الشأن كان من المنطقى إفراد نفس المساحة لوزارة الأوقاف تسرد هى الأخرى كل ما لديها فى هذا الشأن بالمستندات.

قصة المزاد

يقول وزير الأوقاف الدكتور محمود حمدى زقزوق أن هيئة الأوقاف أعلنت فى مناقصة عامة عالمية سنة ١٩٩٨ عن تأجير مدرسة محمد على باشا (المدرسة البحرية الإيماريت) ومنزله لما لهما من قيمة تاريخية وموقع سياحى متميز وذلك لاستغلالهما كفندق وبازار سياحى عالمى بعد تطويرهما وتجديدهما وأجراء كافة الترميمات والإصلاحات اللازمة لإعادتهما إلى شكلهما ومظهرهما الاصلى، ثم تم ترسية عطاء تأجير المبنيين على المستثمر المصرى من حسان المغربى وكان صاحب اعلى عطاء بقيمة إيجارية سنوية قدرها إحدى عشر مليونا وستمائة ألف درخمة يونانية.. على أن يبدأ سداد هذه القيمة اعتبارا من بداية السنة الرابعة او بداية التشغيل أيهما أقرب وتزاد القيمة الايجارية بنسبة ١٠ ٪ كل خمس سنوات. وذلك بعد مرور العشر السنوات الأولى وأن تكون مدة الإيجار خمسين عاما ويتم سداد تأمين يعادل قيمة إيجار سنة واحدة وأن يلتزم المستأجر بإجراء كافة الترميمات والاصلاحات اللازمة لتجديد المبنيين واجراء التجهيزات اللازمة من اجل استغلالهما

على حسابه وعلى أن يتم ذلك خلال مدة لا تتجاوز الثلاث السنوات وأن يلتزم بالحصول على الموافقات اللازمة والتراخيص الخاصة من السلطات اليونانية ويقوم بإخلاء الإشغالات الموجودة فى المبنيين وتحت مسئوليته.

ماذا حدث؟!

يقول وزير الأوقاف.. ما حدث هو أن البند الرابع عشر من عقد الإيجار ينص على أنه فى حالة إخلال المستأجر بأى شرط من الشروط يعتبر هذا العقد مفسوخا من تلقاء نفسه دون الحاجة إلى التنبيه أو انذار أو اتخاذ أى إجراءات قضائية مع حفظ حق هيئة الأوقاف المصرية فى التعويض المناسب، وقد تم تسليم المبنيين للمستأجر بموجب محضر تسليم فى ٢٠٠٠/٢/١٦، إلا أن المستأجر لم يلتزم ببنود عقد الإيجار، وتم إخطاره عدة مرات بضرورة الأسراع فى اتخاذ اللازم نحو الترميم والاصلاحات خاصة بعد أن ورد الى هيئة الأوقاف من وزارة الخارجية ووزير التخطيط لجمهورية مصر العربية وإدارة شئون الاتحاد الأوروبى وغرب أوربا بالخارجية شكوى من المسئولين اليونانيين.

وزاد الأمر سوءا أن الرسومات المقدمة من المستأجر للجهات اليونانية رسومات مقتبسة بطريقة غير قانونية من دراسة مسجلة أكاديميا من اليونان. هذا ما يؤكده د. زقزوق مضيفا هذا الأمر افقد المستأجر مصداقيته أمام الجهات الرسمية اليونانية ووصل الوضع الى ذروته بعد أن أقام مجموعة من السكان بمدينة قولة باليونان الدعوى رقم ٢٠٠٠/١٨٢/٦١٨ امام محكمة قولة اليونانية الابتدائية ضد هيئة الأوقاف المصرية وتدخلت فيها بلدية مدينة قولة. وفى يوم ٢٠٠٠/٧/١١ أصدرت المحكمة حكمها بأن هيئة الأوقاف المصرية وعلى نفقتها بالأشغال الفنية لحماية المبنيين وما حولهما. الذى فعلته هيئة الأوقاف بعد ذلك مع المستثمر المصرى؟

قامت بإنذاره وإبلاغه بما جاء فى هذا الحكم وأنذرته رسميا على يد محضر فى ٢٠٠١/٤/٢٩ بعدم التزامه بما جاء فى العقد ولذا يعتبر هذا العقد مفسوخا من تلقاء

نفسه ويعتبر التأمين المسدد حقا خالصا لهيئة الأوقاف، ويكون للهيئة الحق فى تنفيذ ما جاء فى عقد تأجير المبنيين بواسطة العطاء التالى لعطاء المستأجر محمد المغربى وأن تكون القيمة الإيجارية السنوية وأثنى عشر مليون دراخمة يونانى كحد أدنى.. وبالفعل تم عرض الموضوع على مجلس إدارة هيئة الأوقاف خاصة أنه تتوافر معه حالة الاستعجال والخطر الذى يلحق أضرارا جسيمة بأملاك الأوقاف وحقوقها ويسىء إلى سمعة مصر فى دولة أجنبية، وقد وافق مجلس الإدارة على التعاقد مع السيدة آنا مسيران اليونانية الجنسية صاحبة العطاء التالى لعطاء محمد المغربى والتى سبق لها عرض قيمة إيجارية سنوية اثنى عشر مليون درخمة ولكن لجنة البت رفضت عرضها لوروده بعد الميعاد المحدد.

وبالفعل تم التعاقد مع السيدة أنا مسيران فى ٢٠٠١/٨/٢ واستطلاع رأى الجهات الأمنية المختصة التى وافقت على التعاقد معها وقامت بتنفيذ ما جاء فى العقد بترميم المبنيين على نفقتهما بمبلغ ٧ ملايين دولار وبإشراف هيئتى الآثار المصرية واليونانية كما تم إخلاء المبانى من شاغليها ورفع علم مصر على المبنيين.

عائلته وعائله

عرفنا أن والد محمد على توفى وهو مازال صبيا، كما توفيت والدته فى ذلك الوقت ليكفله عمه واطسن أغا، الذى سرعان ما توفى، وتختلف الأقاويل بين وفاته الطبيعية، ومقتله، وإعدامه من قبل السلطات العثمانية. غير أن أغلب الروايات ترجح الاحتمال الثانى وهو مقتله فى جريمة قتل عادية لا علاقة لها بالسياسة، وبعدها تولى حاكم قولة كفالته، وهو من يدعى الشوربجى، ويرجع أصل الشوربجى إلى مدينة ومحافظة أدنا (أطنا) الواقعة على شمال شرق البحر الأبيض المتوسط بجنوب تركيا. وقد لقب (بالجوربجى) لفظاً فقط حيث كان الأتراك ينطقون حرف (الشين) (جيم معطشة) فهم ينطقون (الشوربجى الجوربجى) و(شاهين جاهين) وظلت (الجوربجى) متوالية كتابة فى المستندات والأوراق إلى عهد غير بعيد. وبلغت الدولة العثمانية فى ذلك

الوقت مبلغها من الاتساع فامتدت من بودابست على نهر الطونة إلى أسوان شمالاً وجنوباً من نهر دجلة إلى حدود مراكش شرقاً وغرباً وشملت رومانيا والصرب والبلقان والبوسنة والهرسك والجبل الأسود وألبانيا واليونان فى أوربا وقبرص ورودس وكريت فى البحر المتوسط وآسيا الصغرى والشام والعراق والحجاز واليمن ومصر والنوبة وبنى غازى وطرابلس الغرب وتونس والجزائر فى أفريقيا، وكان الشوربجى حاكم مدينة قولة من قبل الدولة العثمانية قبيل سنة ١٧٦٩ م حيث كانت (قولة) أحد الموانى الصغيرة التى على الحدود بين تراقية ومقدونية وهى إحدى مدن اليونان الآن، وحكم الشوربجى مدينة(قولة) قبل سنة ١٧٦٩ م وظل حاكمها مدة كبيرة، وفى هذه السنة ولد محمد على باشا الذى كان له الشأن الأكبر فى تاريخ مصر الحديث، وقد عنى بتربية محمد على (الشوربجى) الحاكم بعد وفاة عمه (طوسون) نظراً لأنه كان صديق والده (إبراهيم أغا) رئيس الحرس المختص بحراسة الطرق ببلده، وقد تبناه وعُنى به حتى بلغ الثامنة عشرة من عمره، فتعلم طرفاً من الفروسية واللعب بالسيف، وكشاب صغير التحق محمد على بالخدمة فى الجيش، وتزوج إحدى قريباته وكانت من ميسورة الحال وأنجبت له أبنائه (إبراهيم، وطوسون، وإسماعيل)، وخدم حاكم قوله (الشوربجى واكتسب رضاه بما كان يأتيه من ضروب المهارة والحذق فى جباية الأموال من القرى المجاورة التى كانت لا تؤدى ما عليها إلا بالشدة واستعمال القوة الجبرية. وفى عام ١٧٩٧ م بدأ الباب العالى حشد جيوشه لمهاجمة الجيش الفرنسى بقيادة (نابليون بونابارت) انضم محمد على مرة أخرى للجيش، ورافق فرقة من الجنود بقيادة (على أغا) ابن حاكم قولة (الشوربجى) ووصل إلى ميناء أبو قير فى الاسكندرية والتحم بالجيش الفرنسى، وبعد أشهر تولى على أغا الشوربجى حكم حامية الطينه شمال غرب جزيرة سيناء حيث بدأ فى ترميمها (قلعة الطينه) وأقام بها أحد الحصون الحربية كقلعة لصد هجمات الفرنجة وشيد القلعة بالطوب اللبن وسميت (قلعة الشوربجى) نسبة إلى مشيدها على أغا الطناوى الشوربجى حيث ذكرت هذه القلعة على الخرائط المطبوعة باللغة الإنجليزية والعربية والتى يشار إليها كموقع حربى

بقلعة الشوربجى والتى تقع أمام البحر المتوسط شمال غرب بالوظة. وفى ١ فبراير سنة ١٧٩٩ م أمر نابليون الجنرال كليبر والجنرال رينير فسارا فى مقدمة الجيش إلى العريش، وأرسل المثقلات وأدوات الحصار سراً فى البحر، وفى ١٠ فبراير سار براً ببقية الجند وهجم على قلعة الطينة وهدمها أثناء حملته على الشام، واستشهد على أغا الطناوى الشوربجى وتجاوز عمره الستين عاماً تاركاً وراءه أنجاله الثلاثة بأسرهم، حيث نجله الأكبر (محمد) الذى هاجر بأسرته إلى مدينة القاهرة بمنطقة إمبابة ثم بعد عدة شهور تولى محمد الشوربجى الغريانى محافظاً للإسكندرية (١٧٩٩ : ١٨٠١) وكان ثانى محافظ للإسكندرية بعد محمد كريم، والأبن الأصغر ويقال أن أسمه (يوسف) هاجر بأسرته إلى فلسطين، والأبن الذى يلى الأكبر مصطفى على أغا الطناوى الشوربجى بقى بمدينة العريش وأقام بها عام ١٧٩٩ م ١٢١٤ هـ، ووافته المنية وقد جاوز عمره الخامسة الستين عاماً ودفن بناحية مقابر الشيخ جبارة على الكثيب الرملى شمال شرقى ضريح الشيخ جبارة (مسجد أبو بكر حالياً) بميدان الفواخرية بمدينة العريش عام ١٨٤٧ م تاركاً وراءه أنجاله الخمسة وهم العيادى ومحمد وشاهين وقاسم وسليمان ولكل أجل كتاب.

وإجمالا نقول إن محمد على عندما بلغ أشده انتظم فى سلك الجهادية وسرعان ما ظهرت شجاعته ثم تزوج من إحدى قريبات متصرف قولة وكانت واسعة الثراء وأنجب منها إبراهيم وطوسون وإسماعيل وتفرغ للتجارة وخاصة تجارة الدخان إلا أنه سرعان ما عاد للحياة العسكرية وذلك عندما أغار نابليون بونابرت على مصر وشرع الباب العالى أو تركيا فى تعبئة جيوشها انضم محمد على إلى كتيبة مدينة قولة التى ركبت السفينة التركية التى رست فى ساحل أبو قير بالإسكندرية بقيادة حسين قبطان باشا فى شهر مارس سنة ١٨٠١م، ورقى محمد على بسرعة فائقة لدرجة انه بعد سنتين وجد نفسة فى قيادة أقوى الفرقة المحاربة فى مصر حيث عينه خسرو باشا والذى عين واليا على مصر بعد خروج الفرنسين منها برتبة سرجشمة (أى قائد فرقة تبلغ نحو أربعة آلاف مقاتل).

ومنذ هذه اللحظة بدا محمد على صاحب الطموح يرمى إلى محاولة الوصول إلى ولاية مصر، ولهذا بدأ يستعطف قلب الزعامات الشعبية حتى وثقوا فيه ووقفوا بجانبه، وتم له ما أراد فى ٩ يوليو ١٨٠٥ م.

هل كان كرديا؟

لأن الأيام الأولى لمحمد على باشا يكتنفها الغموض. ولأن محمد على شخصية اختلف حولها الكثيرون فعده البعض من العظماء المصلحين، واعتبره آخرون كافرا أراد هدم الإسلام والتسلط على مصر والعالم العربى، وبعضهم قال إنه كان يريد تدمير هذا العالم. فقد كثر اللغط حول أصوله. وبالطبع نحن لن نورد هنا كل النظريات والحكايات حول نشأته. فكثير منها ليس أكثر من مجرد ترهات، وأغلبها ينبع من تحامل على الباشا، لأغراض أيديولجية أو فكرية أو خلافه.

غير أن من أهم النظريات التى لا يمكن تجاهلها هو البحوث التى تحاول إثبات أن محمد على هو كردى الأصل، نعم كردى. ومن قال بهذا هو الكاتب الكبير عباس محمود العقاد، ومن أهم تلك البحوث هو الدراسة التى قدمها الدكتور محمد على الصويركى الكاتب الكردى المعروف وجاء فيها:

أشيع فى كتب التاريخ بأن محمد على باشا وأسرته من جذور تركية وألبانية؟ وفى حقيقة الأمر فإن محمد على باشا مؤسس مصر الحديثة وبانى نهضتها المعاصرة هو (كردى الأصل) تعود جذوره الى مدينة (ديار بكر) عاصمة كردستان الشمالية، وهذا ما أخبرنا به حفيده الأمير محمد على ولى عهد الملك فاروق ملك مصر عام ١٩٤٩، وبشهادة أخرى من الأمير حليم أحد أحفاد محمد على باشا، وقد جاء ذلك فى مقال بعنوان ولى العهد حدثنى عن ولى النعم... نشر فى مجلة (المصور) المصرية الشهيرة الصادرة يوم ٢٥ نوفمبر عام ١٩٤٩ على (الصفحة ٥٦)، بمناسبة مرور مائة عام على وفاة مؤسس مصر الحديثة محمد على باشا، من خلال حوار صحفى أجراه الأديب الكبير عباس محمود العقاد (بالمناسبة هو كردى) مع ولى عهد مصر آنذاك الأمير

محمد على، وأكد هذا الأمير وولى العهد على كردية الأسرة العلوية (أسرة محمد على) فى مصر. وقد جاء فى متن المقال ما نصه:

ديار بكر... لا قولة

...يقول عباس محمود العقاد:... وقال سموه فى أمانة العالم المحقق: لا أعلم ولا أبيح لنفسى الظن فيما لا أعلم، ولكنى أحدثكم بشىء قد يستغربه الكثيرون عن نشأة الأسرة العلوية (المنسوبة لمحمد على)، فإن الشائع أنها نشأت على مقربة من (قولة) فى بلاد الأرناؤوط (ألبانيا)، ولكن الذى اطلعت عليه فى كتاب ألفه قاضى مصر على عهد محمد على أن أصل الأسرة من ديار بكر فى بلاد الأكراد، ومنه انتقل والد محمد على وأخونه إلى قولة، ثم انتقل أحد عميه إلى الآستانة، ورحل عمه الثانى فى طلب التجارة، وبقى والد محمد على فى قوله.

وقد عزز هذه الرواية ما سمعناه منقولا عن الأمير حليم (أحد أحفاد محمد على) إنه كان يرجع بنشأة الأسرة إلى ديار بكر فى بلاد الكرد.

ويعلق عباس محمود العقاد على هذا الكلام السابق بقوله: حسب بلاد الأكراد شرفاً أنها أخرجت للعالم الإسلامى بطلين خالدين: صلاح الدين الأيوبى ومحمد على الكبير، وقد تلاقيا فى النشأة الأولى، وفى النهضة بمصر، وفى نسب القلعة اليوسفية إليهما(قلعة القاهرة اليوم)، فهى بالبناء تنتسب إلى صلاح الدين، وبالتجديد والتدعيم تنسب إلى محمد على الكبير.

ونحن نعرف بأن الناس أمناء على أنسابهم وأصولهم، وهناك الكثيرمن القادة العسكريين الذين خدموا مع محمد على باشا وأحفاده كان أغلبيتهم من الأكراد أمثال إسماعيل باشا الكاشف تيمور جد الأسرة التيمورية بمصر التى أنجبت الشاعرة الكبيرةعائشة التيمورية، وجد قاسم أمين محرر المرأة العربية، وفيما يلى لمحات عن حياة محمد على باشا وبعض المشهورين من أسرته فى حكم مصر:

محمد على باشا الكبير

محمد على باشا ابن إبراهيم آغا: والى مصر، باعث النهضة المصرية المعاصرة، ومؤسس مصر الحديثة، ومؤسس الأسرة الخديوية بمصر، ولد فى (قوله) من أعمال الروملى (اليونان) سنة ١١٨٤هـ/ ١٧٦٩م، وقيل إن أصل أبيه من أكراد ديار بكر، قدم إلى مصر بعمل معين.

توفى والده وهو فتى، فكفله عمه طوسون آغا، ثم قتل، فكفله رجل من أصدقاء والده، فربى أمياً لا مرشد له إلا ذكاؤه الفطرى، وعلو همته، وكان يجاهر بذلك ويفاخر به. كان محمد على فى الفرقة العسكرية التى حشدت من (قوله) مع الجيش العثمانى الذى جاء إلى الديار المصرية لإخراج الفرنسيين منها سنة ١٢١٤هـ، وكان وكيل فرقة قوله، ولما انهزم الجيش العثمانى فى موقعة أبى قير سنة ١٧٩٩م، سافر رئيس تلك الفرقة إلى بلاده وأقام محمد على مقامه، ورقى إلى رتبة بكباشى.

بعد خروج الفرنسيين من مصر، طلب العسكر توليته على مصر حينما ضاق المصريون ذرعاً بحكم خورشيد باشا الوالى، لما امتاز بحسن سياسته ودهائه، فأقاموه على مصر والياً، وبعث السلطان العثمانى بفرمان بتوليته على الديار المصرية، ولقب بـ(محمد على باشا).

وقام بإنهاء سطوة المماليك فى مصر، فدعاهم إلى القلعة لتوديع ابنه طوسون باشا الذى سيره لقتال الوهابيين بالحجاز، فبعد أن استقروا فى القلعة، أغلق الأبواب، وقتلهم عن بكرة أبيهم إلا واحداً تمكن من الفرار وهو(أمين بك). واستطاع استئصال شأفتهم فى اليوم التالى سنة ١٢٢٦هـ/١٨١١م، ولما انقضى أمر المماليك وجه عنايته إلى إصلاح القطر المصرى، واسترضاء الدولة العثمانية، ففتح السودان ١٨٢١-١٨٢٣م، وأخمد ثورة الوهابيين فى الحجاز، وساعد على إخماد ثورة اليونان.

باشر بجمع الأموال، وتنظيم الجيش، وبناء السفن الحربية، وتحسين ميناء إسكندرية، وعمل الأسلحة الحربية، وترقية الزراعة والصناعة والتجارة والتعليم، واستعان

بالأجانب وخاصة الفرنسيين، وعمل المصانع لنسج القطن والحرير، وإيصال المياه إلى الإسكندرية، وبناء سد أبى قير، والقناطر الخيرية التى لولاها لما أمكن من زراعة القطن فى الوجه البحرى، وإرسال البعثات العلمية لأوروبة، وتأسيس المدارس.ولم يكتف بما ناله من الملك فى مصر، بل طمح إلى الاستيلاء على سورية، وجهز جيشاً بقيادة ابنه إبراهيم باشا للاستيلاء على سورية، واستولى عليها، وطمع بفتح الأناضول، ففتح أطنا وقونية وكوتاهية ١٨٣٣م، وصارت أبواب استنبول مفتوحة أمام إبراهيم باشا، لكن الدول الأوروبية وقفت إمام طموحاته، وجردته من جميع فتوحه بمقتضى معاهدة لندن ١٨٤١، وقررت أن تكون ولاية مصر لمحمد على ولذريته من بعده، ويخرج من بقية سورية، وعاد ابنه إبراهيم باشا إلى مصر، وصرف همه إلى إصلاح البلاد المصرية والنهوض بها، وادخل بها إصلاحات كثيرة فى جميع نواحى الحياة. لكن دماغه كان قد كل وتولاه الاختلال، وصار يحسب الذين حوله خونة يقصدون الإيقاع به، فأعطيت السلطة لابنه إبراهيم باشا سنة ١٢٦٤هـ. وتوفى محمد على باشا بالإسكندرية سنة ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٩م وعمره (٨٣) سنة، ودفن بجامع القلعة، ولم تطل ولاية إبراهيم باشا سوى سبعين يوماً، فتوفى قبل أبيه، وهو فى الستين من عمره، وخلفه فى الولاية حفيده عباس الأول.يؤخذ على حكمه الأوتقراطى، وانتزاعه جميع الأراضى من المصريين كى تصبح البلاد ضيعة شاسعة يمتلكها، وإرهاقه الأهليين بالضرائب الفادحة، وموت الكثير من الشباب فى حروبه الكثيرة فى السودان وسورية، والحجاز والمورة وتركيا .وفيما يلى أبناء محمد على باشا (أعضاء الأسرة الخديوية) الذين حكموا مصر:

- محمد على باشا ١٨٠٥ ـ ١٨٤٩
- ابراهيم باشا بن محمد على ١٨٤٨(من يونيه الى نوفمبر)
- عباس الأول بن طوسون باشا ١٨٤٨-١٨٥٤
- سعيد باشا بن محمد على ١٨٥٤ -١٨٦٣
- إسماعيل باشا بن محمد على ١٨٦٣-١٨٧٩
- توفيق ١٨٧٩ ـ ١٨٩٢

- عباس حلمى ١٨٩٢-١٩١٤
- السلطان حسين ١٩١٤- ١٩١٧
- السلطان أحمد ١٩١٧- ١٩٢٢
- ثم أصبح الملك فؤاد ١٩٢٢- ١٩٣٦
- الملك فاروق ١٩٣٦- ١٩٥١

كما أن الموسوعة العربية نصت على أن محمد على كردى وذلك فى معرض سردها لأولاد محمد على حيث جاء فيها:

وهناك قول شائع أن اصل أسرة محمد على من أصل البانى،ولكن الخديويين كانوا يعدون فى مصر على الدوام أتراكا، لكنهم كانوا بحق فى عواطفهم وآمالهم مصريين (دائرة المعارف الاسلامية:٤/٢٣٨) وقد قال الأمير محمد على أحد أحفاد هذه الأسرة عام ١٩٤٩ لمجلة المصور المصرية أن أصلهم أكراد من ديار بكر.

هناك نقطة أخرى جديرة بالاهتمام يكشف عنها الباحث.... حين، قد لا تكون دليلا على كردية محمد على إلا أنها تضعف من احتمال أن يكون محمد على ألبانيا، وهو عدم اكتراث محمد على بما كان يجرى فى الألبان وقت توليه الحكم فى مصر رغم سخونته، ففى الوقت الذى كان فيه محمد على باشا يقود مشروعه لإرساء دولة حديثة فى مصر كانت الأوضاع فى البلقان تتسم بتحديات كبيرة تهدد وجودها. هناك الانتفاضة الصربية فى ١٨٠٥ ثم فى ١٨٠٧، تمرد على باشا يانينا ١٨٢٠-١٨٢١، الثورة اليونانية، الحرب الروسية العثمانية ١٨٢٨-١٨٢٩ وإرغام الدولة العثمانية على الاعتراف باستقلال اليونان الخ. وفى غرب البلقان، فى المناطق ذات الغالبية الألبانية، كان لدينا مشروع مشابه لمحمد على يقوده على باشا يانينا(١٨٢٠-١٨٢٢) فى الجنوب وآخر فى الشمال لمصطفى باشا بوشاتلى (١٨٣٠-١٨٣١) بالإضافة إلى انتفاضات من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال خلال ١٨٣٢ ١٨٣٥، ما جعل الدولة العثمانية تنشغل هناك بقواتها ودبلوماسيتها.

ومن هنا يبرز التساؤل عن موقف محمد على باشا من تلك التطورات، وعن صلاته بالذات مع التمردات الألبانية ضد الدولة العثمانية سواء على مستوى الباشوات أصحاب مشاريع الاستقلال عن الدولة العثمانية أو على مستوى الهبات المحلية. وإذا كانت المصادر المختلفة فى ذلك الوقت تجمع على دور ما لمحمد على فى دعم تلك التمردات/ الانتفاضات، فإن السؤال الذى طرح ولا يزال مفتوحاً كان: هل كان محمد على يفكر فى مشروع ما ألبانى أو استراتيجى (مشرقى بلقانى) بتعاونه مع الزعماء الألبان هناك أم أنه كان يدعم الألبان فى البلقان لاشغال الدولة العثمانية هناك حتى يضمن النجاح لمشروعه فى مصر؟

وهكذا، على الرغم من ألبانية محمد على، التى كانت تذكر أحياناً للتشكيك فى دوافعه لإنشاء دولة حديثة فى مصر، إلا انه قد يكون من المستغرب أن يسجل هنا أن الباحثين الألبانيين لم يهتموا كثيراً، كما قد يفترض المرء، بمحمد على ومشروعه فى مصر. وهكذا لدينا فى النصف الأول للقرن العشرين كتيب واحد فقط للباحث الكسندر جوفانى، الذى قضى شطراً من حياته فى مصر، بعنوان: حياة محمد على باشا مصر. وفى هذا الكتيب الذى يستعرض فيه المؤلف سيرة حياة ومنجزات محمد على فى مصر لأول مرة فى الألبانية، وبالتحديد بعد أن أصبح للألبان دولتهم القومية، يرد فيه أن الألبان يشعرون بالاعتزاز لما قام به محمد على من رفع شأن بلد آخر الا وهو مصر. وبعد صمت طويل لدينا فى الربع الأخير من القرن العشرين والسنوات الأولى من هذا القرن، أى بعد تأسيس أقسام ومعاهد التاريخ فى تيرانا وبريشتينا، لدينا أولى الدراسات الحديثة فى الألبانية عن محمد على وصلاته مع الألبان فى البلقان لبيتريك ثانجيلى وبدروش شيخو ومحمد بيراكو وغيرهم.

وفى هذه الدراسات لدينا جهود لاستقراء المصادر المختلفة كأرشيف الحكومة العثمانية وتقارير الدبلوماسيين الأوروبيين إلى حكوماتهم ومقالات الصحف التى تعتمد على مصادر دبلوماسية... إلخ، ونتائج مختلفة للأجابة عن السؤال الكبير: ما هو

هدف محمد على من دعم التمردات/ الانتفاضات فى المناطق الألبانية خلال صراعه مع الدولة العثمانية الذى تحول إلى فصل مهم من فصول المسألة الشرقية؟

وفى الواقع أن تنوع هذه المصادر التاريخية من عثمانية وروسية وإنكليزية وفرنسية وغيرها، إنما كان يعكس اهتمام ومصالح الدول المختلفة بالخلاف/ الصراع الذى نشب بين محمد على والدولة العثمانية والذى قلب التحالفات بين المعنيين بـ المسألة الشرقية. فحتى مطلع القرن التاسع عشر كان هناك توافق روسى نمساوى على تقاسم التركة العثمانية فى البلقان، ثم تشكل توافق أوروبى ضد السلطان العثمانى ومحمد على فى نافارين ١٨٢٦، ولكن بعد الحرب الروسية العثمانية ١٨٢٨-١٩٢٩ وما أدت إليه من اختراق روسى للبلقان مالت النمسا إلى الحفاظ على الدولة العثمانية. وقد أدى تقدم جيوش محمد على باشا فى بلاد الشام إلى انقلاب الموقف. فروسيا كانت تفضل أن تبقى فى جوارها دولة عثمانية ضعيفة من أن تبرز فى جوارها دولة قوية، ولذلك حاولت أولاً أن تقنع محمد على بعدم التوغل فى بلاد الشام، ولكن مع اختراق جيوش محمد على للأناضول واقترابها من استنبول تبدل الموقف الروسى وتمخض عن ارسال ٣٠ الف جندى إلى استنبول للدفاع عن عاصمة الدولة العثمانية فى فبراير ١٨٣٣ ومن المعروف أن وصول القوات الروسية إلى استنبول دفع القوى الكبرى إلى الضغط على محمد على للقبول بمعاهدة كوتاهية فى ١٨٣٣ ونتيجة للتدخل الروسى أمام تقدم جيوش محمد على وقعت الدولة العثمانية فى يونيه ١٨٣٣ معاهدة هنكار اسكله سى مع روسيا، التى حصلت بموجبها على امتيازات مهمة، ما دفع انجلترا وفرنسا بدورهما إلى العمل للحصول على امتيازات مشابهة، وهو ما أثر بدوره على موقف الأطراف من الجولة الجديدة للحرب بين محمد على والدولة العثمانية خلال١٨٣٩-١٨٤٠.

وبعبارة أخرى أن مصالح ومواقف هذه القوى الكبرى من الدولة العثمانية خلال ١٨٣١ ١٨٤٠ فرضت عليها أن تتابع بكل اهتمام صلات محمد على بالألبان فى غرب البلقان الذى كان يمور بالتحركات والانتفاضات فى تلك الفترة، وهو ما يظهر فى المصادر العثمانية والنمساوية والإنجليزية والروسية وغيرها التى اعتمدت عليها الدراسات الألبانية المذكورة.

ففى الوقت نفسه أخذ مصطفى باشا بوشاتلى، الذى ورث عن أسرته باشوية إشقودرة، فى التذمر من اصلاحات الدولة المركزية التى بدأت تمس سلطته الواسعة فى شمال ألبانيا، وانتقل بدوره إلى التمرد العلنى على الدولة فى ربيع ١٨٣١ فى الوقت الذى كان فيه الصدر الأعظم محمد رشيد باشا بقواته فى جنوب ألبانيا يحاول السيطرة على الوضع هناك.

وقد شكل مصطفى باشا تهديداً حقيقياً للدولة لأنه سار بقواته فى اتجاه استنبول، كما يقال بناء على اتفاق ما مع محمد على ينص على اللقاء عند أسوار استنبول، فسيطر على سكوبيه فى أواخر آذار ١٨٣١ وتمكن حلفاؤه من السيطرة على صوفيا فى أواخر نيسان ، ١٨٣١ وقد اضطر الصدر الأعظم أن يسارع بقواته من جنوب ألبانيا ليقطع الطريق على مصطفى باشا فى مقدونيا، ما بين برليب Prilep وفلس Veles، حيث هزم مصطفى باشا واضطر إلى الانسحاب إلى معقله فى قلعة أشقودره الحصينة. وقد استمر حصاره حتى أكتوبر١٨٣١ حين استسلم بعدما فقد الأمل فى وصول المساعدة الموعودة من محمد على باشا حسب ما يرد فى المصادر الإنجليزية.

على أية حال جاء محمد على إلى مصر واشترك فى المعارك الأخيرة التى دارت بين الإنجليز والأتراك من جانب والفرنسيين من جانب أخر وظهر اسمه فى هجوم الجيش التركى على الرحمانية وساعده الحظ بانسحاب الفرنسيين من قلعة الرحمانية فاحتلها محمد على دون عناء.

■■■



2 نحو كرسى العرش

■■



محمد على فى مصر

■■

ترى كيف كان محمد على ينام؟

بالطبع لا نقصد وصفا فيزيائيا أو طبيا لحالته، لكننا نشير هنا إلى تلك الأحداث المتلاحقة التى حدثت فى حياته. أربعة أعوام فقط هى الفترة التى قضاها فى مصر قبل توليه الحكم. أى ١٤٦٠ يوما فقط لا غير، لكنه فى كل يوم له قصة وحكاية ومواجهة ومؤامرة ودسيسة ودماء.

كان بحق مغامرا فظيعا، فمن ذا الذى يلقى بنفسه فى كل ذلك الخضم من الأحداث والجرائم؟

لقد كانت مهمة الفرقة الألبانية التى جاء فيها محمد على أن تخرج الفرنسيين من مصر وهو ما حدث عام ١٨٠١م وأصبح يجب عودة الفرقة حيث إنها حققت ما جاءت من أجله، إلا أن الوضع بعد جلاء الفرنسيين أصبح غريبا حيث ظهر صراع بين النفوذ العثمانى والنفوذ المملوكى الذى كان موجودا من قبل مجىء العثمانيين بالإضافة للنفوذ الإنجليزى الذى كان له أكبر دور فى إخراج الفرنسيين من مصر وبدأ الصراع بين العثمانيين والمماليك وذلك من خلال تدبير العثمانيين لعدة كمائن محاولين فيها التخلص من المماليك. من هنا تدخل الإنجليز الذين كانوا مرابطين فى ميناء الأسكندرية بينما كان العثمانيون مرابطين فى ميناء أبى قير وقد تحيز الإنجليز لجانب المماليك لذلك، حيث إنها سعت إلى الحفاظ على القوة المملوكية كحليف لها فى

مصر وهو ما سعت لأجله من خلال محمد بك الألفى (والذى يسمى باسمه شارع الألفى فى قلب مدينة القاهرة) إلا أن المماليك كانوا منقسمين إلى فرق منها ما يساند فرنسا كالبرديسى أو إنجلترا كالألفى.

وفى عام ١٨٠٢م تم عقد اتفاقية إميان والتى كانت تقضى بأن يغادر الأسطول الإنجليزى الإسكندرية إلا أنه لم يكن ممكنا أن يغادرها بهذه السهولة لولا أن فرنسا أصرت على جلاء إنجلترا فأرسلت إلى الأسكندرية الكولونيل سباستيانى فى محاوله للضغط على إنجلترا إلى أن تم الجلاء عام ١٨٠٣م.

وبهذا الانسحاب الإنجليزى أصبح الصراع فى مصر صراعا عثمانيا مملوكيا؛ حيث تم تعيين الوالى محمد خسرو باشا على مصر. بمساعدة طاهر باشا ونائبه (محمد على) وفرقتهم الألبانية التى جاءت من أوروبا فلم تغادر البلاد، تمكن الوالى الجديد من دفع المماليك إلى الصعيد. إلا أن انقساما حدث فى الصف العثمانى عندما تمردت القوات الألبانية بعد مطالبتها برواتبهم، فرفض خسرو باشا. فقاموا بمحاصرة القلعة إلى أن قام بالهروب إلى دمياط. وهنا تولى طاهر باشا الولاية برتبة قائمقام مؤقتا إلى أن يأتى والٍ جديد.

وهنا اتخذ طاهر باشا قرارا خاطئا بأن دعا المماليك إلى العودة مرة أخرى لأرض القاهرة. وهو ما جعل قائد الإنكشارية أحمد باشا يتخلص منه قبل أن يمر على حكمه مصر عشرون يوما وبعدها أصبح محمد على قائد الفرقة الألبانية فى مصر والتى بلغ قوامها حوالى ٤٠٠٠ جندى.

تولى أحمد باشا قائد الإنكشارية ولاية مصر بعد طاهر باشا، وهنا خشى محمد على من إضعاف نفوذ المماليك لذلك قرر أن يدخل فى تحالف مع المماليك من خلال عثمان بك البرديسى الذى أقنعه بأن يتخلص من أحمد باشا لتعود السلطة إلى المماليك. وهو ما حدث بعد تولى أحمد باشا الولاية بيوم واحد!!! ثم أكملوا التحالف الألبانى المملوكى عندما توجهوا بعده إلى دمياط بعد معرفتهم بأن خسرو باشا يجمع قواته لمهاجمة القاهرة إلا أنه هزم وتم سجنه فى القلعة.

وفى يوليو عام ١٨٠٣ قرر الباب العالى تعيين على باشا الجزايرلى إلا أن الأمور في القاهرة كانت تحت سيطرة المماليك. فلم يستطع الوالى الجديد أن يأتى من الإسكندرية إلى القاهرة وبقى الوضع كما هو إلى أن جاء المماليك فى يناير ١٨٠٤ ودعوا الوالى إلى المجيء لتولى الحكم فى القاهرة لكنهم غدروا به. وقاموا بقتله فى طريقه إلى القاهرة، وفى فبراير ١٨٠٤م عاد محمد بك الألفى من إنجلترا، وهنا عاد التحالف بين محمد على والبرديسى من أجل التخلص من الألفى الذى عاد بتأييد إنجلترا كما ظنوا. لذلك فر الألفى إلى الصعيد من هنا كانت فرصة محمد على للانفراد بالحكم خاصة بعد مطالبته البرديسى بك بالرواتب المتأخرة للجنود الألبان فقام البرديسى بفرض ضريبة كبيرة على سكان القاهرة للحصول على المال للجنود الألبان. فتذمر الأهالى من هذه الضرائب وهنا أعلن محمد على وقوفه مع الأهالى ضد البرديسى. وعدم رضاه عن الضريبة رغم أنه السبب فيها!! وهنا ظهرت المقولة المشهورة من الأهالى «وإيش تاخد من تفليسى يا برديسى»

أدت تلك الأمور فى النهاية إلى هروب المماليك للصعيد بعد مواجهة محمد على لهم فزدادت شعبيته أمام الأهالى.

السلطة على طبق شعبى من فضة

لقد أدرك محمد على أنه لا يمكن أن يقفز إلى السلطة فى ذلك الوقت، لذا لم يتعجل ذلك وانتظر الوقت المناسب. وذلك بسبب تخوفه من الجنود الألبان، ومن المماليك، كما أراد أن يثبت للسلطان العثمانى أنه ليس طامعا فى هذا المنصب، لذلك قام محمد على بإخراج خسرو باشا من السجن وتوليته مرة أخرى الولاية إلا أن القوات الألبانية رفضت توليه الحكم لاعتقادهم أن خسرو باشا كان مسئولا عن مقتل قائدهم طاهر باشا. لذا اضطر خسرو باشا للرحيل إلى استانبول فقام محمد على باستدعاء خورشيد باشا حاكم الأسكندرية العثمانى ليكون واليا على مصر إلى أن أمر السلطان بذلك فى آخر مارس ١٨٠٤ فتحالف خورشيد ومحمد على لإبعاد المماليك إلى الوجه

القبلى وما إن حدث ذلك حتى انهار التحالف بينهما، وأدرك خورشيد باشا أن محمد على هو المنافس الحقيقى له فى الحكم فعمل على إضعاف سلطته، حيث جلب قوة مكونة من ٥٠٠ من الدلاة أى القوات غير النظامية (أى المرتزقة) لتدعيم مركزه ضد الألبان إلا أنهم تحالفوا مع الألبان. وعملوا على مطالبة خورشيد باشا بالرواتب المتأخرة، وفى نفس الوقت عمل محمد على على تدعيم موقفه أيضا من خلال الحصول على ثقة العلماء وخاصة نقيب الأشراف عمر مكرم.

من هو عمر مكرم؟

ربما لا تعرف الأجيال الجديدة عن عمر مكرم سوى ذلك المسجد الذى يحمل اسمه ويقع فى قلب القاهرة وتحديدا بوسط المدينة فى أكثر ميادين مصر حميمية وارتباطا بالتاريخ، ميدان التحرير. والطريف أن مسجد عمر مكرم ارتبط دائما بالجنازات، رغم أن عمر مكرم كان واحدا من أكثر من دافعوا عن حياة المصريين.

ولد عمر مكرم حوالى (١١٦٤هـ / ١٧٥٠م) فى أسيوط، ثم انتقل إلى القاهرة للدراسة فى الأزهر الشريف، وعندما أنهى دراسته دخل غمار الحياة العامة، فتم تعيينه نقيبًا للأشراف سنة (١٢٠٨هـ/١٧٩٣م)، وهى نقابة تضم المنتسبين لآل البيت، ويطلق على نقيبها لقب السيد، ويتمتع بمكانة عالية عند العامة والخاصة، وله نصيب موفور من التقدير والاحترام.

ظهر عمر مكرم كقائد شعبى عام (١٢١٠هـ = ١٧٩٥م) عندما قاد حركة شعبية ضد ظلم الحاكمين المملوكيين إبراهيم بك ومراد بك، وكان مطلب هذه الحركة العدل وإقامة الشرع، واستطاع أن يخفف الضرائب عن المصريين.

وعندما جاءت الحملة الفرنسية على مصر فى (١٢١٣هـ/١٧٩٨م) استنفر عمر مكرم الشعب للقتال والجهاد، وبث روح المقاومة فى المصريين، وخرج بجموع غفيرة للقتال، لكن المماليك كانوا أبعد ما يكونون عن أسلوب ذلك العصر فى القتال واستخدام الأسلحة الحديثة، فكانت هزيمتهم النكراء فى معركة إمبابة التى تحمل الشعب أغلب تضحياتها.

قرر عمر مكرم الرحيل عن القاهرة واتجه إلى بلبيس، وكان وجوده فيها عاملا رئيسيًا فى إثارة مديرية الشرقية ضد الفرنسيين. وبعد هزيمة الصالحية فى (ربيع أول ١٢١٣هـ = أغسطس ١٧٩٨م) ارتحل إلى العريش، ومنها إلى غزة، فصادر نابليون بونابرت أمواله، وعزله عن نقابة الأشراف، ثم ألقى القبض عليه فى يافا، فالتقى به نابليون، ثم وُضع تحت الإقامة الجبرية فى دمياط؛ فكان الشعب يتردد عليه، ثم انتقل إلى القاهرة واعتكف فترة عن الحياة السياسية.

وكان من حنكته وذكائه السياسى أنه لم يشارك الفرنسيين فى احتفالاتهم بالمولد النبوى حتى لا يضفى شرعية على وجودهم فى مصر.

شارك فى ثورة القاهرة الثانية، وكان من زعمائها البارزين، وذكر الجبرتى فى تاريخه عجائب الآثار أن السيد عمر أفندى مكرم نقيب الأشراف خرج وتبعه كثير من العامة واستمرت هذه الثورة ثلاثة وثلاثين يومًا، إلا أنها فشلت؛ فرحل إلى الشام، ولم يعد إلا مع الجيش العثمانى الذى دخل القاهرة فى (٤ ربيع أول ١٢١٦هـ = ١٨٠١م).

ورأينا كيف عمت الفوضى السياسية مصر بعد خروج الفرنسيين، وتسابق الجميع للسيطرة على حكم البلاد، وفى ظل هذا التسابق المحموم للسلطة تكون الشعوب هى الضحية، وعندما استقر الحكم للوالى العثمانى أحمد خورشيد نزع إلى الظلم والشطط فى فرض الضرائب حتى ضج الشعب؛ فنصحه عمر مكرم وعدد من المشايخ والعلماء بتحرى العدل، ولكنه أبى ذلك، فقاد عمر ثورة شعبية مسلحة ضد هذا الحاكم المستبد، واستنفر الشعب لحمل السلاح، فلبى الشعب النداء، وحاصر الحاكم فى قلعته، وبعد قتال عنيف انكسر خورشيد، واستطاع الشعب أن يعزله عن الحكم، ويولى حاكمًا جديدًا هو محمد على، ذلك الضابط الألبانى الذى أظهر تعاطفًا مع المصريين.

وتظهر مساعدة السيد عمر مكرم لمحمد على ودوره فى تقوية دعائم محمد على، وتثبيت أركان حكمه عندما نجح خورشيد باشا فى استصدار فرمان عثمانى بعودة القوة الألبانية وقوادها إلى بلادهم. وهو ما جعل محمد على يتظاهر بأنه يستعد للرحيل إلا أنه كان قد ضمن موقف الأهالى والعلماء. فطلبوا منه البقاء نظرا لأنهم عهدوا فيه

العدل والوقوف بجانبهم مما أدى فى النهاية إلى فشل خورشيد من التخلص من محمد على فعمل على التخلص منه بإرساله لمحاربة المماليك فى الصعيد. وأعد العدة له فى غيابه لكى يتخلص منه، فقام بفرض ضرائب جديدة مبالغ فيها. إلا أن محمد على شعر بذلك فعاد سريعا وأمر جنوده بالابتعاد عن السلب والنهب فنال محمد على تأييد العلماء والأهالى وهنا قرر خورشيد باشا من اللجوء لحيلة جديدة وهى الاتفاق مع الباب العالى على إرسال محمد على واليا على جدة بشبه الجزيرة العربية. إلا أن الأهالى رفضوا رحيله وأيدوه فى بقائه، لذا قرر محمد على أن يوجه الضربة الأخيرة إلى خورشيد باشا بمعاونة العلماء والأهالى وهو ما حدث عندما شجعهم على تقديم مطالبهم إلى خورشيد باشا والتى كانت تتضمن أن يبعد القوات العثمانية عن القاهرة وأن يعيد فتح المواصلات بين القاهرة والوجه القبلى والتعهد بعدم فرض ضرائب جديدة وهو ما كان مستحيل أن يوافق عليه خورشيد باشا فهو بذلك يبعد القوات التى تحميه كما يسمح بعودة المماليك إلى القاهرة، لذا قرر العلماء إعطاء خورشيد باشا مهله ٢٤ ساعة للرد على المطالب، بالطبع خورشيد باشا رفض المطالب، فذهب العلماء إلى دار محمد على ليخاطبه عمر مكرم بقوله: إننا نريدك واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير. إلا أن محمد على أعرض عن قبول هذا المنصب، حتى لا يقال إنه سعى إليه. ورغم هذا، فإن العلماء قاموا باختياره فى ١٣ مايو عام ١٨٠٥م. وبالتالى عزل خورشيد باشا وهنا رفض هذا القرار، وقال قولته الشهيرة: لقد ولانى السلطان فكيف يعزلنى الفلاحون؟ وهنا تحتمت المواجهة بين خورشيد باشا وحده من جهة ومحمد على والأهالى والعلماء والألبان بالإضافة لتحالف الدلاة المرتزقة معهم من جهة أخرى.

خورشيد باشا كان متحصناً بالقلعة فى الوقت الذى كان السلطان العثمانى سليم الثالث يراقب الموقف ليعين من ترجح كفته!! وبعد تأكده من رجاحة كفة محمد على قرر إصدار فرمان توليه ولاية مصرفى ٩ يوليو ١٨٠٥م قائلاً فيه: رضى بذلك العلماء والرعية فأصبح بذلك محمد على هو الحاكم الشرعى للبلاد.

رفض خورشيد باشا مغادرة القلعة رافضا أمر السلطان إلى أن وصل صلاح أغا مندوب السلطان مصدرا تعليماته بالتسليم. وهنا أدرك خورشيد أن محمد على انتصر، وخاف أن يعتبر متمردا على الدولة العثمانية، فاضطر مرغما على الخروج من القلعة فى ٦ أغسطس ١٨٠٥م فى يوم يؤكد انتصار إرادة الشعب المصرى وذكاء محمد على.

السؤال الحائر

منذ أن وعيت على الدنيا، وبدأت فى تعلم حروف هجاء التاريخ المصرى، وأنا يشغلنى السؤال: لماذا لم يتول عمر مكرم حكم مصر إذا كانت كلمته هى القول الفصل فى مسار الأمور وقتها؟

ما يدعم هذا السؤال هو بروز اسم عمر مكرم وقدراته فى كل صفحة من صفحات تلك الفترة، وقد ظهرت فى هذه الثورة العارمة القدرات السياسية والقيادية لعمر مكرم؛ ففى حوار عاصف بينه وبين أحد أعوان خورشيد حول وجوب طاعة أولى الأمر، قال عمر مكرم عبارة مهمة هى: إن أولى الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل، وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلاد يعزلون الولاة حتى الخليفة، والسلطان إذا سار فيهم بالجور فإنهم يعزلونه ويخلعونه.

ويقول الدكتور عبد العزيز الشناوى فى كتابه عمر مكرم: والحق أن الوجدان الدينى والفكر السياسى كانا يتلاحمان، بعضهما من بعض فى نفس الزعيم عمر مكرم؛ فهو يردد نظرية إسلامية سياسية مهمة هى حق الشعب فى عزل حكامه إذا أساءوا الحكم، وهو يصر على نقل هذه النظرية إلى مجال التطبيق العملى، وكان ترديد هذه النظرية والإصرار على تطبيقها فى ذلك الوقت المبكر من القرن التاسع عشر ظاهرتين مهمتين فى تاريخ الفكر السياسى فى مصر.

كان عمر مكرم يصر على استمرار حمل الشعب للسلاح حتى إقرار النظام الجديد، وهو نظام محمد على الذى اختاره الشعب ليكون حاكمًا للبلاد، إلا أن رأى غالبية المشايخ -وعلى رأسهم الشيخ عبد الله الشرقاوى- هو أن مسألة إنزال خورشيد من القلعة قضية تخص الوالى الجديد.

استمرت هذه الثورة المسلحة بقيادة عمر مكرم ٤ أشهر، وأعلنت حق الشعب فى تقرير مصيره واختيار حكامه، وفق مبادئ أشبه بالدستور تضع العدل والرفق بالرعية فى قمة أولوياتها.

نعود إلى السؤال الذى يطرح نفسه: لماذا لم يستول عمر مكرم على السلطة على اعتبار أنه قائد الثورة ومحركها، والأقدر على إقامة العدل والرفق بالشعب؟

والواقع أن إجابة هذا التساؤل لا بد أن تعتمد القراءة الثقافية السياسية من منظور ذلك العصر الذى لم ينظر إلى العثمانيين على أنهم غزاة مغتصبون، ولكن كان ينظر إليهم على أنهم حماة للإسلام، ومن ثم فالثورة على خورشيد كانت ثورة على الحاكم الظالم بصفته الشخصية وليست ثورة على النظام السياسى، لذلك فإن تولى عمر مكرم للحكم من خلال هذه الثورة قد يفسره العثمانيون على أنه ثورة ضد دولة الخلافة، أما اختيار محمد على - وهو من جنس القوم - لتولى حكم مصر فلن يثير غضب الباب العالى بدرجة كبيرة، ومن هنا تتضح حصافة الرجل الذى قال للزعماء صراحة: لا بد من تعيين شخص من جنس القوم للولاية. ويمكنك أن تقول بلغة أيامنا هذه أن عمر مكرم لم يكن من دعاة الانفصال.

تثبيت العرش

الكاتب الراحل نجيب المستكاوى له حكمة خالدة، حيث كان يقول إن الوصول للقمة صعب، والأصعب من ذلك هو الحفاظ عليها. المستكاوى كان مثقفا عظيما، وأكاد أن أجزم أن حكمته هذه قالها بعد أن اطلع على سيرة محمد على باشا، الذى وصل إلى حكم مصر بصعوبة، إلا أنه لم يكتف بذلك، وهكذا فإنه كان يطبق حكمة المستكاوى قبل أن يولد الأخير بما يزيد على القرن.

فرغم تولى محمد على الحكم فى مصر بالإرادة الشعبية، إلا أن ذلك لم يكن كافيا لكى يحافظ على منصبه فتره طويلة فقد كان لزاما على محمد على التخلص من كل أعدائه، بل ومن أصدقائه كذلك. من أجل الحفاظ على السلطة التى حازها. كانت أمام الباشا عدة عقبات يمكن إجمالها فيما يلى:

السلطان العثمانى

تولى محمد على حكم مصر رغما عن إرادة السلطان العثمانى حيث من الملاحظ فى الفرمان الخاص بتوليته بأن لهجة السلطان تدل على أنه سوف يعزل محمد على فى أقرب فرصة.

ورغم أن محمد على كان هو الوالى الشرعى لمصر وحامل لقب باشا، إلا أنه لم يكن يحكم سوى مدينة القاهرة حيث نجد أن بقية البلاد كانت تابعة إما للمماليك أو البدو بينما كانت الدولة العثمانية قد استبقت الإسكندرية تحت سيطرتها المباشرة، حيث صدر فرمان عثمانى بتعيين أمين أغا حاكما على الإسكندرية برا وبحرا، مما يؤكد بأن الدولة العثمانية أرادت أن تجعل مدينة الإسكندرية مستقلة عن مصر، وذلك لهدف واحد هو أن تكون مركزا للدولة العثمانية تستعيد منه مصر من محمد على مرة أخرى.

وهكذا أرسل السلطان العثمانى أسطولا بقيادة القبطان صالح باشا فى يونيو ١٨٠٦ إلى الإسكندرية، ومعه رسالة إلى محمد على يبلغه بأنه قد تم نقله إلى ولاية سالونيك، وأن موسى باشا سوف يتم تعيينه بدلا منه فى مصر وهنا لم يكن محمد على ينوى أن يغادر مصر بعد كل ما بذله من أجل الوصول إلى الحكم فيها، لذا عمل على استغلال علاقته الجيدة مع العلماء والمشايخ (وهنا يبرز اسم عمر مكرم مرة أخرى) بالإضافة إلى مفاوضته مع القبطان صالح باشا من أجل أن يعدل السلطان عن قراره وهو ما حدث بعد أن توصلوا إلى اتفاق يقضى بأن يدفع محمد على إلى السلطان العثمانى أربعة الآلاف كيس (الكيس يعادل ٥٠٠ قرش) على أن يتم تثبيته فى مصر إلا أن الإسكندرية ظلت خاضعة للدولة العثمانية.

ويقول الروائى البرازيلى باولو كويليو إن الإنسان إذا أراد شيئا بصدق فإن الكون بحاله يتآمر معه من أجل تحقيقه، ومرة أخرى يثبت محمد على أن سيرته كانت تفيض بالمواقف التى تفيض عبرا وحكمة، فالأمور فى تركيا كانت تسير لمصلحة محمد على.

وخلال فترة حكم سليم الثالث، كان مصطفى الرابع ابن عمه مفضلا لدى السلطان.

وعندما قامت ثورة الإنكشارية على سليم الثالث، خدع مصطفى السلطان ودعم الإنكشارية الذين خلعوا السلطان القديم، وجعلوا من مصطفى الحاكم الجديد ١٨٠٧ ولكن ظل هناك تعاطف مع سليم، وفى عام ١٨٠٨ انطلق جيش بقيادة مصطفى بيرقدار إلى إسطنبول لإعادة سليم للحكم. وردا على ذلك أمر مصطفى بإعدام سليم الثالث وأخ آخر له هو محمود. الأمر الذى سيجعل من مصطفى الذكر الوحيد المتبقى من السلالة الحاكمة، ومنحيا بذلك أى منافس قانونى على العرش كما اعتقد. وقتل سليم وألقيت جثته أمام المنشقين فى مهزلة، ولكن تم الإطاحة بمصطفى واستبداله بمحمود الذى نجا من الإعدام بالاختباء. وتم إعدام مصطفى فى ذات العام.

وكان مصطفى قد تحكم فيه قادة الثورة التى أطاحت بسليم الثالث. وفى عهده قتل الإنكشارية الصدر الأعظم. وتآمرت فرنسا وروسيا والنمسا عليه ولكن توقفت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا لمدة سنتين. قتل زعيم الثورة قباقجى أوغلى وطلب من تسلم الحركة بعده بإعادة سليم الثالث ولكن الخليفة مصطفى قتل هذا الزعيم وأبلغ جنوده بوفاة سليم الثالث الذى توفى قبل ذلك بأيام. وقام الجنود بعزله وحجزه مكان سليم الثالث وأقيم بعده أخوه محمود الثانى عام (١٢٢٣هـ).

لقد كانت الظروف فى ذلك الوقت تخدم محمد على وذلك من خلال عزل السلطان العثمانى سليم الثالث وتولية مصطفى الرابع الحكم عام ١٨٠٧ ثم خلفه السلطان محمود الثانى عام ١٨٠٨ وكان محمود هذا صغير السن، من هنا عمل محمد على استرضاء الدولة العثمانية بين الحين والآخر، وذلك لضمان هدوء الأمور بينه وبين الدولة العثمانية.

المماليك

لقد كان للمماليك موقف يتسم بالعداء، وذلك بسبب رغبة المماليك فى استعادة نفوذهم فى مصر مرة أخرى فاعتبروا أنفسهم أحق بالحكم من محمد على. حيث

يعتبرونه دخيلا على مصر، مدركين أن السلطان العثمانى لم يكن راضيا عن توليه مصر، إلا أنه أجبر بسبب إرادة الشعب بالإضافة إلى أن إنجلترا تريد أن تدعم الموقف المملوكى من أجل زيادة نفوذها فى مصر.

أما محمد على فقد ناصبهم أيضا العداء، لأنه يعلم جيدا بأن المماليك يعلمون نقاط ضعفه من خلال جنوده الألبان الذين اشتهروا بالسلب والنهب، كما أنه كان يحتاج إلى الأموال من أجل تدعيم ملكه بينما لا يستطيع فرض ضرائب جديدة بسبب وقوف العلماء له بالمرصاد.

ولعل أحد أسباب عدم ثقة محمد على فى المماليك حادثة وقعت فى فترة توليه مصر، عندما أرسل السلطان العثمانى بعمارة بحرية بقيادة عبد الله رامز فى ١٧ يوليو ١٨٠٥ وكانت مؤلفة من ٢٥٠٠ جندى لمراقبة الموقف فى مصر إلا أن المماليك قاموا بالاتصال بهذه العمارة من خلال محمد بك الألفى الذى عرض عليهم نيابة عن البكوات أن يقفوا بجانبه من أجل انتزاع القاهرة من يد محمد على لأنهم الوحيدون القادرون على استتباب النظام والأمن والأمان فى مصر. غير أن محمد على نجح فى إقناع القبطان بأن العلماء يقفون بجانبه وأنه قادر على الحفاظ على الأمور الداخلية بما يحقق مصالح الدولة العثمانية، لقد كانت هذه الحادثة كفيلة بأن تجعل محمد على لا يثق فى المماليك.

والمماليك أنفسهم فى هذه الفترة كانوا منقسمين إلى أحزاب وفرق شتى فقد كان إبراهيم بك وعثمان بك البرديسى يتخذون الصعيد مأوى لهم بينما محمد بك الألفى وأتباعه كانوا يقيمون بالوجه البحرى وكان محمد على يقيم له ألف حساب حيث كان الأخطر لأنه كان يعتمد على الإنجليز.

لذلك لم يجد محمد على أفضل من سياسة الخديعة للتخلص من المماليك وكانت أولى خطواته للتخلص منهم عندما اتفق مع أتباعه المخلصين بأن يتظاهروا بأنهم متفقون مع المماليك حتى دخل عثمان بك حسن وأحمد بك كاشف إلى القاهرة فرفض كل من السيد عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوى مساعدتهم فارتدوا خائبين

ففاجئهم محمد على بالرصاص. فقتلوا منهم خمسين وأسروا نحو ثمانين. ثم لم يلبث أن قتل هؤلاء الأسرى. وبسبب شراسة محمد على فى مواجهة المماليك كان قبطان باشا بالإسكندرية يرى أن الأمور تسير فى صالح محمد على، وأنه الأجدر بالحكم ومن هنا رحل عن مصر فى أكتوبر ١٨٠٥ وأخذ معه الوالى المخلوع.

لقد كانت للعلاقة بين محمد بك الألفى والانجليز دور مهم فى توسط الإنجليز لدى السلطان العثمانى سليم الثالث من أجل تولى الألفى ولاية مصر، وذلك نظير دفع ١٥٠٠ كيس بالإضافة لتعهد المماليك بالولاء للسلطان، وهو ما أدى إلى إرسال القبطان صالح باشا على رأس ٣٠٠٠ جندى فى ٢٧ يونيو عام ١٨٠٦ وبعد وصوله أرسل إلى محمد على رسولا يذهب إليه فى القاهرة كى يختار بين أحد الفرمانين الآتيين: تولى ولاية كريت أو سالونيك. وهنا تظاهر محمد على بالطاعة، وبالطبع فإنه قرر المقاومة سرا حيث لجأ إلى العلماء الذين قاموا بتقديم التماس إلى السلطان العثمانى يعترضون فيه على عزل محمد على وتعيين موسى باشا مكانه. كما أكدوا بأنهم لا يثقون بالمماليك لكثرة مطامعهم وكان فى ذلك الوقت الألفى يحاصر مدينة دمنهور مطالبا الأهالى بتسليمها لكنهم رفضوا ولجأوا إلى عمر مكرم.

وهنا طلب القبطان صالح باشا من محمد على تنفيذ الأوامر السلطانية، إلا أن عمر مكرم والشيخ السادات أكدوا تمسكهم بمحمد على. على الجانب الآخر، وكما هو متوقع، فقد كان الألفى سعيدا بموقف القبطان. فأرسل إليه هدايا ثمينة نظير ما قام به. ثم عمل الألفى على إشاعة أن الباب العالى يؤيده فى كل البلاد.

وهنا استعد محمد على للمقاومة وعاهده جنده على الولاء خوفا من العودة إلى الأستانة وضياع مرتباتهم، وكان الألفى فى ذلك الوقت يحقق انتصارات على جند محمد على، لم يقف الباشا عند هذه الانتصارات، وإنما عمل على تجاوز ذلك بالأساليب الدبلوماسية خاصة وأن الألفى لم يستطع أن يدفع ١٥٠٠ كيس إلى السلطان بالإضافة لعدم تعاون باقى المماليك معه، وهنا قرر محمد على أن يتفق مع صالح بك بأن يدفع

محمد على ٤٠٠٠ كيس للسلطان، وأن يكون ابنه رهينة لدى السلطان إلى أن يسدد المبلغ. وهنا وصل فرمان التولية، وتجاوز محمد على الأزمة التى كادت تطيح بحكمه.

ولأن الكون كله، كما قلنا، كان يتآمر لتثبيت حكم محمد على، فقد ساعدت الظروف محمد على فى صراعه مع المماليك عندما توفى البرديسى فى نوفمبر ١٨٠٦، ثم لحق به الألفى فى يناير ١٨٠٧!! وبعدها احتشدت القوة المملوكية الباقية فى المنيا، فقام محمد على بإرسال قوة من المشاة والفرسان للقضاء عليهم. إلا أنه استخدم سلاح الخديعة الذى كان فيه متميزا فيه حيث عرض على المماليك الصلح، بينما كان يتصل بالعربان الموالين للمماليك حيث عرض عليهم الأموال مقابل إرشاد جنود محمد على على مواقعهم وهو ما أدى إلى إيقاع محمد على بالمماليك والاستيلاء على مدافعهم، واحتلال أسيوط، وإقامة معسكره فيها. لكن الأنباء وردت إليه بأن الإنجليز وصلوا إلى الإسكندرية. فقام بعمل صلح مع المماليك فى الصعيد ليتفرغ للقتال مع الإنجليز. وهو ما سنتناوله بالتفصيل فى حينه.

بعد أن انتهى محمد على من أزمة الإنجليز عاد مرة أخرى من أجل استئناف المفاوضات مع المماليك، إلا أن إبراهيم بك وعثمان بك حسن وبقايا حزب مراد بك رفضوا الوصول إلى صلح مع محمد على.لكنه استطاع فى عام ١٨٠٨ من التصالح مع جماعة الألفى والتى كان يرأسها شاهين بك حيث عمل على استخدام بعض رؤساء المماليك من أجل استمالته واستخدم كذلك أسلوب الود فى مراسلاته كما عرض عليه الإقامة بالقاهرة على أن يخصص له إيرادات إقليم الفيوم و٣٠ قرية من إقليم المنيا و١٠ قرى فى الجيزة. وضم له إقليم البحيرة كله، وأعطاه حجة بذلك.

رغم أن محمد على كان قد تخلص تقريبا من أحد أهم أعدائه، غير أن المماليك، وحتى تلك اللحظة، كانوا لا يزالون قوة ضاربة حيث كان قوامهم ٢٥٠٠ جندى مدربين جيدا. ولكن خطوة محمد على مع شاهين بك، ودعوته لباقى المماليك بإلقاء السلاح، كان لها أثر فى هدوء الأحوال نسبيا فى مصر، خاصة وأن كبار المماليك كانوا قد تقدموا فى السن.

كل هذا لم يشفع لهم عند محمد على ليصبح مطمئنا لهم، على خلفية نظرتهم الدائمة له على أنه دخيل، وأن مصر ملك لهم. لذا عمل محمد على على استمالة صغار البكوات، وتخصيص الرواتب العالية لهم. بالإضافة لموت شاهين بك المرادى خليفة البرديسى عام ١٨٠٨ وقام محمد على بتعيين سليم بك خلفا له كما عين مرزوق بك ابن ابراهيم الكبير حاكما لجرجا.

لقد كان محمد على يتبع أسلوب الترغيب والترهيب من خلال اتباع أسلوب التفاوض معهم بالإضافة، إلى إثبات قوته من خلال تمرير الحملات من وقت لآخر.

ومن هذا أن محمد على حاول أن يضم الوجه القبلى إلى ملكه، ولكن ما إن وصل إلى أسيوط حتى طلب المماليك الصلح. فوافق على أن يرحلوا إلى القاهرة فوافقوا. ولكنهم ماطلوا فى التنفيذ، وهكذا فإن موقف محمد على المتشدد من هذه المسألة جعل المماليك يقررون توحيد صفوفهم مرة أخرى، مما جعل محمد على يزحف مره أخرى على الصعيد عام ١٨١٠ وانتصر عليهم فى البهنسا واللاهون. واستولى على الفيوم وانسحب إبراهيم بك وعثمان بك حسن وسليم بك زعماء المماليك إلى أسوان. بينما مال الباقون، وعلى رأسهم شاهين بك الألفى، إلى الصلح فأمنهم محمد على ومنح شاهين بك دارا بالأزبكية. ولأن الطبع يغلب التطبع فإنه سرعان ما قام بخيانة محمد على، وضرب بعهده مع محمد على عرض الحائط، وانضم لأعداء محمد على بأسوان.

لقد حاول محمد على أن يتصالح مع المماليك بشتى الطرق، وقام بمحاربتهم عدة مرات، ولكنه لم يستطع أن ينتصر عليهم، أو يكسر شوكتهم أو يتعامل معهم. لذا فقد تعب محمد على منهم خاصة وأن تاريخهم ملىء بالمؤامرات لذا قرر أن يقوم بتوجيه ضربته القاضية إليهم. فلا تكون هناك جولة أخرى بعدها. وحدث ذلك عندما دعا المماليك إلى حفل توديع ابنه طوسون أحمد بالقلعة قبل ذهابه إلى شبه الجزيرة العربية لإخماد الحركة الوهابية، وقد حاول محمد على إقناع المماليك بشتى الطرق من أجل إحضارهم إلى القلعة حتى لبى المماليك الدعوة، وركبوا جميعا فى أبهى زينة على خيولهم فتلقاهم محمد على بالحفاوة، وهم يخفون فى صدورهم الكراهية والحقد

تجاهه. بينما كان هو يحمل الغدر لهم، ولما انتهى الحفل أخذ المماليك مواضعهم فى المواكب الضخم لتوديع طوسون وتم احتجازهم داخل ممر تم غلقه بإحكام وانهال عليهم بالرصاص من كل جانب ليكون أول مارس أو مذبحة القلعة تاريخا لنهاية العصر المملوكى أو النظام القديم فى مصر لينطلق بعدها محمد على فى الداخل والخارج.

تفاصيل كمان وكمان

حقا إنها أيام تاريخية تلونها الدماء وتسمع بها دوى الطلقات، أيام مذبحة القلعة الشهيرة التى وقعت أحداثها فى اليوم الأول من مارس عام ١٨١١م فى عهد محمد على.

لقد كانت العلاقة بين محمد على والمماليك علاقة سيئة للغاية حيث كانت نظرة محمد على لهم تقوم على اتهامهم بالرغبة فى مشاركته حكم مصر، وفى الجانب الآخر كان المماليك يرون أن محمد على لا حق له فى حكم مصر فهى إرثهم، وقد حكمها أجدادهم عدة قرون، بالتالى سعى المماليك للتخلص من محمد على عدة مرات دون جدوى، وبعد محاولات لمهادنتهم اضطر محمد على لمحاربتهم فى الصعيد إلا أنه لم يستطع القضاء عليهم بالتالى لم يبقى له سوى سلاح المكر والخديعة.

وأحس محمد على بخطورة المماليك، وتهديدهم لأمن واستقرار البلاد فعمل على إبعادهم عن القاهرة، وتعقّبهم فى الصعيد. حتى استطاع أن يخضع الصعيد لحكمه، وأبدى له بعض المماليك الذين فروا إلى الصعيد الطاعة والولاء، فسمح لهم بالعودة إلى القاهرة، ولكنهم ظلوا يتآمرون عليه ويدبرون المكائد للتخلص منه.

وردا عليهم استغل محمد على مناسبة خروج ولده على رأس حملة كبيرة للقضاء على الدعوة الوهابية بنجد والحجاز، وأعد وليمة كبيرة دعا لها قادة المماليك وكبرائهم وفرسانهم وأبطالهم وذلك بالقلعة الشهيرة بالقاهرة، وذلك يوم الجمعة الموافق ٥ صفر ١٢٢٦هـ - ١ مارس ١٨١١م، ولما اكتمل دخولهم للقلعة، أغلق الأبواب وانهال عليهم الرصاص من كل مكان.

لم تكن مذبحة القلعة أول مرة يقوم فيها حاكم بالقضاء على المماليك وإنما كان هناك سلسلة كبيرة بدأها المماليك أنفسهم عندما استخدموا أسلوب الإغراق أو النفى

وذلك من أجل التخلص من عناصر النظام القديم؛ ثم تطورت بعد ذلك لنجد أن العثمانيين أنفسهم يحاولون التخلص من المماليك لذلك نجدهم فى عام ١٨٠١م يدعون المماليك لسفينة القيادة الراسية فى ميناء الإسكندرية بدعوى حضور وليمة، وما إن وصل المماليك حتى بدأت المذبحة، ولولا تدخل الإنجليز الذين كانوا موجودين بالإسكندرية لتم القضاء عليهم تماما؛ ثم تكرر هذا الموقف مرة أخرى عندما دعا العثمانيون المماليك إلى أبى قير بالإسكندرية لوليمة أعدت لهم وهنا استطاع العثمانيون القضاء على عدد كبير منهم، ولم ينج سوى البرديسى ومملوك آخر من المذبحة.

والسر وراء اختيار باب العزب لتكون مسرحا لمذبحة القلعة والتى راح ضحيتها أكثر من خمسمائة رجل من رؤوس المماليك وأعيانهم هو أن الطريق الذى يؤدى إلى باب العزب ما هو إلا ممر صخرى منحدر تكتنفه الصخور على الجانبين، حيث لا مخرج ولا مهرب، لقد كان الأمر خدعة انطلت على المماليك ونفذتها مجموعة من جنود محمد على بإحكام، ففى ذلك المكان وكما جاء فى كتاب تاريخ عصر المماليك لعبد الرحمن الرافعى قام محمد على بدعوة أعيان المماليك إلى احتفال كبير بمناسبة تنصيب ابنه طوسون على رأس حملة متجهة إلى الحجاز لمحاربة الوهابيين، وقد لبى المماليك الدعوة وركبوا جميعا فى أبهى زينة وأفخم هيئة، وكان عدد المدعوين حينها يزيد على عشرة آلاف شخص من كبار القوم ومختلف الطوائف، وسار الاحتفال على ما كان عليه الحال حينها فى مثل هذه المناسبات من طعام وغناء إلى أن نادى المنادى برحيل الموكب، فعزفت الموسيقى وانتظم قرع الطبول، عندئذ نهض المماليك وقوفاً، وبدأ الموكب يسير منحدراً من القلعة، وكان يسبق المماليك كوكبة من جنود محمد على ومن ورائهم كان يسير جنوده الفرسان والمشاة وعلى إثرهم كبار المدعوين من أرباب المناصب المختلفة.

سار الموكب منحدراً إلى باب العزب، ولم يكد هؤلاء الجنود يصلون الى الباب حتى ارتج الباب الكبير وأقفل من الخارج فى وجه المماليك وتحول الجنود بسرعة عن الطريق، وتسلقوا الصخور على الجانبين، وراحوا يمطرون المماليك بوابل من

الرصاص، أخذت المفاجأة المماليك وساد بينهم الهرج والفوضى، وحاولوا الفرار، ولكن كانت بنادق الجنود تحصدهم فى كل مكان، ثم انهالت الطلقات مدوية من أمامهم ومن خلفهم ومن فوقهم تحصد أرواحهم جميعاً بلا رحمة، حتى قيل أن عدد القتلى فى هذه الواقعة قارب الخمسمئة ومن نجا منهم من الرصاص فقد ذُبح بوحشية، ولم ينج - كما يقال - من هذه المجزرة سوى أمين بك الذى هرب بحصانه من فوق أسوار القلعة، ويقال إنه فر متخفيا الى سوريا ومات هناك بعد هذه الحادثة بعدة سنوات.

فقد سقط المماليك صرعى مضرجين فى دمائهم، حتى امتلأ فناء القلعة بالجثث، ولم ينج إلا واحد يسمى أمين بك كان فى مؤخرة الصفوف، اختلف حوله المؤرخون فهناك رواية حكت عن مملوك يدعى أمين بك كان فى مؤخرة الركب لما شعر ببداية إطلاق النار قرر الفرار إلا أنة لم يكن أمامه سوى سور القلعة لذلك أخذ فرسه وقفز به من فوق سور القلعة وسقط حتى اقترب من الأرض قفز من فوق حصانه ليترك حصانه يلقى مصيره بينما هو نجا واتجه بعدها إلى بلاد الشام. أما الرواية الثانية لهرب أمين بك فتحكى أنه جاء متأخراً إلى الحفل فوجد باب القلعة قد أغلق فشعر بالمكيدة فأخذ فرسه وهرب به إلى بلاد الشام -بينما كان هناك مملوك آخر يدعى أحمد بك لم يحضر الحفلة بسبب إنشغاله فى أحد القرى بالتالى لم ينج سوى هذين المملوكين.

وصل خبر تلك المذبحة إلى الجماهير المحتشدة فى الشوارع لمشاهدة الموكب فسرى الذعر بينهم، وتفرق الناس، وأقفلت الدكاكين والأسواق، وهرع الجميع إلى بيوتهم، وخلت الشوارع والطرقات من المارة، وسرعان ما انتشرت جماعات من الجنود الأرناؤوط فى أنحاء القاهرة يفتكون بكل من يلقونه من المماليك وأتباعهم، ويقتحمون بيوتهم فينهبون ما تصل اليه أيديهم، وتجاوزوا بالقتل والنهب إلى البيوت المجاورة.

وكثر القتل، واستمر النهب، وسادت الفوضى ثلاثة أيام، قُتل خلالها نحو ألف من المماليك ونُهب خمسمائة بيت، ولم يتوقف هذا إلا بعد أن نزل محمد على إلى شوارع المدينة، وتمكن من السيطرة على جنوده وأعاد الانضباط.. وهكذا استطاع محمد على الانفراد بالحكم.

بقى مكان مذبحة القلعة الذى ما زالت تخيم عليه رائحة الموت شاهدا على ما حدث، ورغم مرور كل هذه السنوات فما زال يشعر كل من يعبر أمامه بالرهبة والانقباض وكأنه يحتفظ بين أحجاره وزواياه بصرخات المستغيثين من الموت.

والغريب أن تلك المذبحة بتفاصيلها تبقى عبر كل السنوات والعقود، والقرون كذلك، ولا تزال حتى الآن موضع نقاش وخلاف.

نحن لا نعلم على وجه الدقة ما الذى جعل أحمد المسلمانى الذى يخصصون له عمودا فى جريدة المصرى اليوم يفتح هذا الملف ويتناول المذبحة بإعجاب شديد، غير أنه فاجأنا يوم ٢٠٠٨/٣/٣ فى عموده بما يلى:

كتبت فى السابق داعيا إلى تأسيس «حركة المؤرخين الجدد فى مصر» وهنا أواصل، لا يقف المؤرخون طويلاً لدى واقعة عظيمة وجريمة جليلة قدمها محمد على باشا إلى مصر، لا يقفون بما يليق أمام واحدة من أروع المذابح فى التاريخ، وواحدة من أفضل المآسى الإنسانية والمآثر السياسية.

قبل مائة وسبعة وتسعين عامًا قام محمد على بمذبحة القلعة الشهيرة، كان ذلك فى أول مارس عام ١١٨١، على نحو ما ذكرنا به الزميل المتميز ماهر حسن، فى بابه الرائق «زى النهارده» أراد محمد على أن ينتهى من المماليك فى مصر، فدعاهم إلى حفل عشاء أخير، ثم جرى حصادهم واحدًا وراء الآخر.. فلم يفلت منهم إلا مملوك واحد، انتهى أثره فى سوريا.

إنسانيا.. لا يمكن أن يقف أحد مع مذبحة جماعية راح فيها كل من حضر، وإنسانيا لا يمكن أن يقبل أحد وقائع قتل وغدر مفجعة تزاحمت فيها الجثث فوق الخيول وتحت الأقدام، وإنسانيا لا يمكن أن يرتضى أحد أن يتحول حفل عشاء إلى حفل عزاء، تناول فيه الضيوف فاتحة شهية ونهاية حياة.

غير أننى أقف تمامًا على النقيض من ذلك الحسّ الإنسانى البدائى، لأكون واحدًا من الذين يحترمون ويقدرون هذه المذبحة الرائعة.

إننى واحد ممن يرون أن بعض رؤى الإصلاح والتقدم لا تحتمل ترف الحوار والجدل والإقناع، كما أنها لا يمكنها أن تبقى طويلاً أسيرة حرب باردة بين الرأى والرأى الآخر.

وأؤمن كذلك بأن كثيرًا من مشروعات النمو فى الحالة المصرية وفى الثقافة العربية قد أربكها كثرة الحوار، وصخب الإفتاء والإنشاء!

وظنى أن عددًا وفيرًا من نماذج التقدم قد أتت وعلت فى ظروف حاسمة لا أجواء مرتبكة وفى بيئة واضحة لا فى غابة من الانتماءات والانحيازات والأيديولوجيات المتصارعة.

وفى حالة «مذبحة القلعة» كانت مصر أمام خيارين واضحين، خيار التخلف الذى يحميه المماليك بالقول وبالسلاح، وخيار التقدم الذى أتى به محمد على تعليمًا وتفكيرًا وجيشًا وإمبراطورية، كانت المعركة صافية لا لبس فيها، بين عصابات منظمة يقودها حفنة من العبيد، وبين أمل وطنى وحضارى جامع لن يبدأ إلا على جثث تلك العصابات.

لم يكن الحوار ولا الجدال ولا موائد المفاوضات لتجدى مع عصابات ذات مصالح كبرى ومزايا عملاقة، من مال وأطيان ونفوذ ورجال، لم يكن الحوار ممكنا مع أناس يمتلكون الأرض ومن عليها، ولا يعرفون غير القتل وسفك الدماء ومؤامرات القصور والقرى من أجل زيادة ما يملكون.

كان قرار محمد على القضاء على المماليك واحدًا من أعظم القرارات إن لم يكن أعظمها جميعًا، وإذا كان لمحمد على باشا مؤسس مصر الحديثة إنجازان يفوقان مجمل ما أنجز ومجمل ما أنجزت مصر فى القرنين الأخيرين، فهما بناء الجيش والقضاء على المماليك.

لقد أسرفت كتب التاريخ بوصف ما جرى بالمذبحة، لتجرى إدانة محمد على والتعاطف مع المماليك، وتقديرى أن الصواب هو «معركة القلعة» لا «مذبحة القلعة» فهى معركة بين محمد على والمماليك، ولكنه اختار فيها أن تكون «معركة نصف بيضاء» أى أن تسيل دماء العدو وحده فى مكان أنيق ووقت محدود.

ما الذى كان سيحدث لو بقى المماليك فى مصر؟

ماذا لو كان محمد على قد انهزم ومضى المماليك معنا إلى اليوم؟

إننى فى ذكرى «معركة القلعة» المجيدة، التى انتصر فيها التقدم على التخلف، والمعرفة على الجهل.. وفلاسفة النهضة على أمراء العبيد.. لأتذكر محييا ومقدرًا ما فعله الزعيم العظيم محمد على، فى تلك الجريمة الرائعة.

ما كتبه المسلمان استفز الكاتبة صافى ناز كاظم مما جعلها ترد عليها بعدها بأسبوع وتحديدا يوم ١٠ مارس ٢٠٠٨ قائلة:

فى ظل المذابح المروعة التى يرتكبها إيهود أولمرت ضد الأطفال والنساء والمدنيين العزل، وفى ظل تهديدات هذا السفاح، هو وجنده وحزبه وأعوانه، بعدم التوقف عن شواء غزة قائلا : إسرائيل ليس لديها النية لوقف القتال ولو للحظة واحدة ضد ما سماه المنظمات الإرهابية، كما ورد فى «البديل» ٢٠٠٨/٣/٣ أضاف المجرم أنه: لا يحق لأحد أن يقدم لنا المواعظ، زاعما أنه كلما تعرضت حماس لضربات أكثر ازدادت احتمالات التوصل إلى السلام.

والقيادة الفلسطينية تدرك ذلك، فى ظل هذا البطش والتوحش لا يتردد أحمد المسلمانى فى توثيق وتدعيم هذا الجبروت الأعمى المستحل لدماء الأطفال والمدنيين، بطرح نظريته الإرهابية فى مشروعية الحسم بالمذابح، معنونا طرحه، فى مقال بالمصرى اليوم، الاثنين ٢٠٠٨/٣/٣، تحت عبارة جريمة رائعة! ملخص الطرح المسلمانى أجمله فى فقرته هذه: إنسانيا ...لا يمكن أن يقف أحد مع مذبحة جماعية...غير أننى أقف تماما على النقيض من ذلك الحس الإنسانى البدائى، لأكون واحدا من الذين يحترمون ويقدرون...المذبحة الرائعة... إننى واحد ممن يرون أن بعض رؤى الإصلاح والتقدم لا تحتمل ترف الحوار والجدل والإقناع، كما أنها لا يمكنها أن تبقى طويلا أسيرة حرب باردة بين الرأى والرأى الآخر.يقيم أحمد المسلمانى نظريته، فى تأييد إرهاب القوة الغاشمة والسلطة المستبدة وحقها فى الإبادة والسحق دون أى اعتبارات

إنسانية، على تجربة مذبحة القلعة، التى دعا فيها السفاح محمد على، بانى مصر الحزينة، الأمراء المصريين إلى حفل عشاء ليتمكن من التخلص منهم قتلا، بأخس وسيلة يمكن أن تتفتق عنها عقليته المنحطة، هذا الأرناؤوطى المأجور الذى دخل مصر متسللا بدهاء اللصوص وخديعة المحتالين وقسوة قطاع الطرق. يرى أحمد المسلمانى أن مذبحة القلعة واقعة عظيمة وجريمة جليلة، بل ويطالب بتأسيس حركة المؤرخين الجدد فى مصر، لكى تنظر بما يليق إلى واحدة من أروع المذابح فى التاريخ، التى يفضل أن يطلق عليها اسما محسنا هو معركة القلعة، عسى أن نستفيد من الفكرة ونحسن الظن بمجزرة الشتاء الدافىء الصهيونية، ونراها معركة عظيمة وجريمة جليلة تحسم الصراع العربى الإسرائيلى، وفقا لنظرية المسلمانى فى مشروعية الحسم بالمذابح، وظنه، الذى هداه إلى هذا التعبير. مستخلصا من قراءته للتاريخ قوله:...إن عددا وفيرا من نماذج التقدم قد أتت وعلت فى ظروف حاسمة، لا أجواء مرتبكة، وفى بيئة واضحة، لا فى غابة من الانتماءات والانحيازات والأيديولوجيات المتصارعة.... مرحى.مرحى.شايفين يا أهل البلد؟هذا الكاتب الصحفى لم يكتف بدعوته فى برنامجه التليفزيونى إلى إعادة الاعتبار إلى حسن أبو باشا، أشرس وزير داخلية، حامل هراوة الطوارئ، وحارس القوانين الاستثنائية، وناشط تزوير الانتخابات، لذلك فهاهو يعود ليزعق، بما تقوى عليه حنجرته، ليمجد أمثال دقلديانوس وهتلر وموسولينى ونابليون وستالين ومحمد رضا بهلوى وهارى ترومان، سفاح هيروشيما وناجازاكى، وكرومر، سفاح دنشواى، وبوش وكوندوليزا وعلى حسن المجيد، سفاح حلابشة، وإرهابيى الكيان الصهيونى من أول بن جوريون إلى شارون حتى نصل إلى المجرمين أولمرت وتسيبى لفنى وباراك وملنان فلنائى صاحب صيحة: إلى المحرقة!هؤلاء، النماذج، الذين يشهد لهم التاريخ بوقوفهم، مع أحمد المسلمانى، على النقيض من الحس الإنسانى لأنهم رأوه، مثل أحمد المسلمانى، بدائيا، وكانوا يحترمون ويقدرون المذابح، التى فتنت بحسمها أحمد المسلمانى فلم يملك إلا أن يهتف جزلا إننى واحد منكم...واحد منكم!صحيح يا صدام: اللى خلف ما ماتش.

ورغم كل ما يمكنك قوله من تحفظات على أداء المسلمانى ومستواه الفكرى إلا أننا نراه هنا كان مفحما فى رده على الكاتبة صافى ناز كاظم حينما قال:

دعوت فى السابق إلى إعادة قراءة «مذبحة القلعة» التى أنهى فيها محمد على باشا عصر المماليك. وهى المذبحة التى مثلت، فى تقديرى، معركة فاصلة بين العصور الوسطى المصرية والعصر الحديث. وقد جالت بخاطرى احتمالات عدة لردود الفعل على ما كتبت، غير أن ما تفضلت به الكاتبة الكبيرة صافى ناز كاظم، جاء خارج ما توقعت وقدرت. كتبت الأستاذة صافى ناز كاظم فى صحيفة «البديل» تحت عنوان: ««نظرية المسلمانى فى مشروعية الحسم بالمذابح» مقالاً قاسيا، ذهب بعيدًا فى التحليل والتأوى:

١- قالت الكاتبة الكبيرة: «فى ظل المذابح المروعة التى يرتكبها إيهود أولمرت ضد الأطفال والنساء والمدنيين العزل، فى ظل هذا البطش والتوحش، لا يتردد أحمد المسلمانى فى توثيق وتدعيم هذا الجبروت الأعمى، المستحل لدماء الأطفال والمدنيين» . يطرح نظريته الإرهابية فى مشروعية الحسم بالمذابح فى مقاله «جريمة رائعة» بـ «المصرى اليوم» لقد ذهبت الأستاذة صافى ناز بعيدًا بعيدًا فى ربط ما لا يربط، وخلط ما لا يختلط.. ودخلت بالتحليل إلى مناطق كانت نائية تمامًا عن جغرافية الفكرة. إن ما يجرى فى فلسطين جريمة تطهير عرقى وإبادة جماعية، استخدم فيها نائب وزير الدفاع الإسرائيلى مصطلح «الهولوكوست» مما دعانا فى سياق سابق للدعوة إلى تأسيس «متحف هولوكوست فلسطين فى رام الله» لكن معركة القلعة المسماة «مذبحة القلعة» هى معركة عسكرية بين محمد على والمماليك، جاءت فى سياق صراع على السلطة، رأيت أن أقف فيها إلى جانب محمد على «العظيم» ضد هؤلاء الرعاع والعبيد . لم يكن فى «معركة القلعة» طفل ولا امرأة، بل كانوا جميعًا من القادة السياسيين والاقتصاديين، كانوا ملاك البلاد والعباد، وأصحاب السلطة والثروة والنفوذ.

٢- تعود الأستاذة صافى ناز كاظم لتقول: إن مذبحة القلعة دعا فيها السفاح محمد على (بانى مصر الحزينة)، الأمراء المصريين.. ليتمكن من التخلص منهم.. هذا

(الأرناؤطى المأجور). وهو رأى غريب فى شأن محمد على وشأن المماليك. فالرجل الذى يصفه عموم الوطنيين المصريين بـ «بانى مصر الحديثة» وصفته الكاتبة بـ«بانى مصر الحزينة» وأما العبيد الذين وصفتهم بالأمراء المصريين، فإننى أترك الرأى هنا للكاتب الدكتور نبيل فاروق، الذى كتب فى «الدستور» تحت عنوان «المماليك» يقول: «كانت مصر تخضع كلها لحكم جائر ظالم مستبد، هو حكم المماليك الذين أتوا من كل بقاع الأرض كتابعين وحرس، ثم أصبحوا الحكام الفعليين يتقاسمون الثروة والقوة والنفوذ والسلطة، وعاش الشعب فقرًا ما بعده فقر، وفسادًا ما بعده فساد، وهم يزيدونه فقرًا وعذابًا، يفرضون الضرائب والجبايات لكى يزدادوا ثراء وطغيانًا. وبقى المماليك ينتفخون من التخمة فى بلد يموت من الجوع.. وعندما جاء نابليون لاحتلال مصر، كان هؤلاء الطغاة أول من فر، وأخذ ذيله فى أسنانه وطار، ولما غادر الفرنسيون، عاد غضنفرات المماليك للظهور.. يتصارعون ويتقاتلون لقهر الشعب مرة أخرى.

٣- اختتمت الأستاذة صافى ناز كاظم تقول: «صحيح يا صدام.. اللى خلف مامتش» وهى خلاصة معيبة جاءت من مقدمات خاطئة، فما كانت دعوتى من أجل الديكتاتورية ولا المذابح الحمقاء ولا هدم الدول والأوطان.. بل كانت تقديرًا لتجربة زعيم عظيم، أخرج وطنًا كاملاً من الظلمات إلى النور، وتقديرًا لجريمة رائعة أنهت العصور الوسطى.. وبدأت العصر الحديث.

على كل ستبقى مذبحة القلعة حدثا تاريخيا مهما، ومهما يكن تقييمك لأداء محمد على فيها من الناحية الأخلاقية، فإنها تبقى نقطة فاصلة فى مسيرته.

حملة فريزر الانجليزية

تحتفل محافظة البحيرة فى يوم ١٩ سبتمبر من كل عام بذكرى هزيمة حملة فريزر الإنجليزية على يد أهالى دمنهور ورشيد والحمام والتى ضحى فيها أهالى المحافظة بكل غال ونفيس بعد أن وجهت انجلترا أسطولها الذى احتوى على ٢٥ سفينة تحمل ما يزيد على سبعة آلاف مقاتل بقيادة الجنرال فريزر حيث نزلت هذه القوة غرب

الإسكندرية (العجمى) يوم ١٧ مارس ١٨٠٧ وتقدمت لقوة المعتدية، واستولت على الإسكندرية يوم ٢١ مارس سهولة ويسر بسبب خيانة حاكمها التركى آنذاك أمين أغا ثم عزم على التحرك للاستيلاء على مصر، حيث أنفذ فريزر كبير قواده لجنرال ويكوب على رأس قوة من ٢٠٠٠ من جنوده يوم ٢٩ مارس لاحتلال رشيد. ولم يكن محمد على حاكم مصر فى ظروف تمكنه من مواجهه قوات الحملة، حيث كان مشغولا فى حروبه مع المماليك واستطاع محمد على أن ينتصر عليهم مستعينا بقوة شعب البحيرة فى معركة دمنهور ثم بمعركة النجيلة (كوم حمادة) ثم إذا ما انتقلت معاركه مع المماليك إلى الوجه القبلى داهمته الحملة الإنجليزية، وهو فى أسيوط وكان من نتائج بطولات أهالى البحيرة أن أبرمت معاهدة صلح بين الجنرال شروبك ومحمد على باشا فى ١٤ سبتمبر وسميت بمعاهدة دمنهور تم بمقتضياتها جلاء الإنجليز عن مصر مقابل استرداد أسراهم وجرحاهم وتم رحيلهم فى ١٩ سبتمبر. وأصبح هذا اليوم عيدا لمحافظة البحيرة تكريما لشهدائها الأبطال ولبطولتها الرائعة.

لقد كانت حملة فريزر الإنجليزية على مصر أحد النتائج المترتبة على تدهور العلاقات العثمانية الإنجليزية بعد أن كانت تتميز بالود والصداقة والتحالف.

غير أن الصلح التى عقدته الدولة العثمانية مع فرنسا جعل إنجلترا تخشى أن تقوم فرنسا بإرسال حمله سلمية إلى الإسكندرية للاستيلاء عليها، فقررت إنجلترا إرسال أسطولين الأول إلى مياه الدردنيل والآخر إلى الإسكندرية فى مارس عام ١٨٠٧، وكانت حملة محدودة مكونة من ٧٠٠٠ جندى، وكان الهدف منها إقامة قاعدة عسكرية بريطانية فى ميناء الإسكندرية. واعتمدت إنجلترا فى حملتها على تأييد المماليك لها بقيادة محمد بك الألفى إلا أن انجلترا لم تكن تدرى أن الألفى توفى قبلها بشهرين. كما أنها أساءت التقديرات إزاء موقف المماليك ضد محمد على، حيث إن محمد على فى ذلك الوقت قد أبرم صلحا معهم على أن يترك لهم الصعيد ليتفرغ لقتال الإنجليز. فعاد بعدها للقاهرة وقد أمن جانب المماليك. فقام بإعداد حملة من ٤٠٠٠ من المشاة و١٥٠٠ من الفرسان واتجهت الحملة إلى رشيد، وكان فى ذلك الوقت فريزر قائد

الحملة الإنجليزية قد أرسل حملة إلى رشيد ليتخذ منها قاعدة، ولتزويد الجيش بالإسكندرية. وكان على رأس الحملة الجنرال ويكوب. وكان حاكم رشيد فى ذلك الوقت على بك السلانكى، وكان يتميز بالحكمة والشجاعة. فاتخذ من التدابير ما أدى إلى فشل هذه الحملة حتى ارتدت مهزومة بعد أن فقدت نحو ١٧٠ قتيلا و٢٥٠ جريحا و١٢٠ أسيرا وقام على بك حاكم رشيد بإرسالهم إلى القاهرة ليكون ذلك إعلانا للحكومة المركزية بانتصار أهالى رشيد.

فريزر أراد أن يعزز موقفه فأرسل حمله أخرى بقيادة الجنرال ستيوارت ومعه ٤٠٠٠ جندى مجهزين بالمدافع والأسلحة فاستولى على الحماد وهو فى طريقه إلى رشيد، واستمر الحصار على رشيد إلى أن وصل مدد محمد على، وهزم القوات الإنجليزية، وبلغت خسائرها ٤١٦ قتيلا و٤٠٠ أسير فأجبرت القوات الإنجليزية على رفع الحصار، والانسحاب إلى أبو قير ومنها إلى الإسكندرية، ثم قام فريزر بقطع سد أبوقير ليحيط الإسكندرية بالمياه فى محاولة منه لإطالة بقاء الحملة.

فى تلك الأثناء كان الموقف قد تغير فى أوروبا على عكس مصالح إنجلترا، مما عجل بإدارة عجلة المفاوضات إلى أن تم الجلاء عن ميناء الإسكندرية فى ١٩ سبتمبر ١٨٠٧، وبعدها تم إصدار فرمان سلطانى بضم الإسكندرية إلى سلطان محمد على بعد أن كانت منفصلة إداريا عن الحكومة المركزية بالقاهرة.

القضاء على الأصدقاء

أصبح أمام محمد على فرصة سانحة وهو فى أوج قوته بعد انتصاره، كانت فرصة ذهبية فى أن يدعم مركزه فى مصر فساعده العلماء على التخلص من جنده الألبان المشاغبين، أصدقاء الأمس، بعد فتنة أشعلوها لمدة ٧ أيام حيث عمل على إرضاء بعضهم بجزء من مرتباتهم، ونفى جزءا آخر من رؤوس الفتنة مثل رجب أغا.

على أن التخلص من الجنود الألبان كان يمكن التغافل عنه، ففى النهاية هذه ليست أراضيهم، وليس معنى توليه السلطة أن يجاملهم على حساب أصحاب البلد الأصلى

الذى يسعى لبنائه. إلا أن التخلص من العلماء لاسيما عمر مكرم كان هو الحدث الأكبر فى مسيرة محمد على نحو تثبيت أركان عرشه.

فبعد أن تأكد محمد على من نجاحه فى بسط سيطرته قرر أن يتخلص من أصدقائه العلماء، بعد أن ساعدوه فى تولى الحكم لذا قرر أن يقلم أظافرهم فهو يريد حرية أكبر كى يستطيع بناء دولته دون رقابة من أحد وحدث ذلك عندما قرر أن يقوم بتعديل فى نظام الالتزام لصالحه، فغضب الملتزمون، وعارضه العلماء عندما أخبروه بأنه قد تعهد بعدم فرض أية ضريبة دون موافقة الشعب. وهنا قرر أن يعاقب أكثر المعارضين له من العلماء، وللمفارقة فقد كان أكثر من ساعدوه على الوصول للسلطة، وهو عمر مكرم فقام بنفيه إلى دمياط ثم إلى طنطا.

إقصاء عمر مكرم

قد تكون من المحبين أو المتحمسين لدور محمد على فى بناء الدولة، وقد تكون ممن يرون فيه الشيطان الأكبر. لكن أيا ما كان موقفك منه، فلابد أن قصة إقصاء عمر مكرم كانت حدثا دراميا لم يكن فى صالحه من الناحية الأخلاقية بكل المقاييس.

فقد رأينا كيف صعد محمد على لحكم مصر بتأييد الزعامة الشعبية التى قادها عمر مكرم وفق مبادئ معينة فى إقامة العدل والرفق بالرعية، وكان من نتيجة ذلك أن تحملت الزعامة المسئوليات والأخطار التى واجهت نظام محمد على الوليد، ومنها أزمة الفرمان السلطانى بنقله إلى سالونيك، والحملة الإنجليزية على مصر سنة (١٢٢٢هـ = ١٨٠٧م)، وإجهاض الحركة المملوكية للسيطرة على الحكم فى مصر؛ ففى هذه الأزمات الثلاث الكبرى كانت زعامة عمر مكرم تترسخ فى وجدان المصريين؛ إذ رفض مساندة المماليك فى تأليب الشعب ضد محمد على، ورفض فرمانات السلطان العثمانى بنقل الباشا إلى سالونيك فاحتمى محمد على به من سطوة العثمانيين، وفى حملة فريزر قام عمر مكرم بتحصين القاهرة، واستنفر الناس للجهاد، وكانت الكتب والرسائل تصدر منه وتأتى إليه، أما محمد على فكان فى الصعيد يتلكأ، وينتظر حتى تسفر الأحداث عن مسارها الحقيقى.

أدرك محمد على أن عمر مكرم خطر عليه أمام أحلامه فى الاستفراد بحكم مصر؛ فمن استطاع أن يرفعه إلى مصافّ الحكام يستطيع أن يقصيه، ومن ثم أدرك أنه لكى يستطيع تثبيت دعائم ملكه وتجميع خيوط القوة فى يده لا بد له أن يقوض الأسس التى يستند عليها عمر مكرم فى زعامته الشعبية.. فعندما أعلن زعماء الشعب عن استعدادهم للخروج لقتال الإنجليز أجاب محمد على: ليس على رعية البلد خروج، وإنما عليهم المساعدة بالمال لعلائف العسكر. (أى لتغذيتهم)

كانت العبارة صدمة كبيرة لعمر مكرم؛ إذ حصر دور الزعامة الشعبية فى توفير طعام للمقاتلين، ولكن حصافة الرجل لم تجعله يعلن خصومة محمد على، وأرجع مقولة الباشا إلى أنها زلة لسان، وآثر المصلحة العامة لمواجهة العدوان؛ فقام بجمع المال؛ وهو ما وضعه فى موقف حرج مع بعض طوائف الشعب.

وصف الجبرتى مكانة عمر مكرم بقوله: وارتفع شأن السيد عمر، وزاد أمره بمباشرة الوقائع، وولاية محمد على باشا، وصار بيده الحل والعقد، والأمر والنهى، والمرجع فى الأمور الكلية والجزئية. فكان يجلس إلى جانب محمد على فى المناسبات والاجتماعات، ويحتل مركز الصدارة فى المجتمع المصرى، حتى إن الجماهير كانت تفرح لفرحه، وتحزن لحزنه.

التقت إرادة محمد على فى هدم الزعامة الشعبية مع مشاعر ورغبات عدد من المشايخ والعلماء كانوا يودون الإطاحة بعمر مكرم لأسباب غير معروفة، ربما لتنافسهم على الاقتراب من السلطة وتجميع ما تُلقى إليهم من فتات، فى هدم هذه الزعامة الكبيرة؛ فقد دب التنافس والانقسام بين المشايخ حول المسائل المالية، والنظر فى أوقاف الأزهر، وتولى المناصب. ولم تفلح محاولات رأب الصدع بين العلماء؛ فتدهورت قيمتهم ومكانتهم عند الشعب، واستشرى الفساد بينهم، واستطاع محمد على أن يجد طريقه بين هذه النفوس للوصول إلى عمر مكرم، بل إن هؤلاء المشايخ سعوا إلى السلطة الممثلة فى محمد على للإيقاع بعمر مكرم، ووقف مكرم وحده فى مواجهة طغيان السلطة، ونقل الوشاة من العلماء إلى الباشا تهديد عمر مكرم برفع الأمر إلى

الباب العالى ضد والى مصر، وتوعده بتحريك الشعب للثورة، وقوله: كما أصعدته إلى الحكم فإننى قدير على إنزاله منه.

ولم تفلح محاولات محمد على فى رشوة عمر مكرم فى تطويع إرادته وإرغامه على الإقلاع عن تبنى مطالب الشعب، ومن ثم لجأ إلى المكيدة التى عاونه فيها العلماء، وعزل عمر مكرم عن نقابة الأشراف ونفاه إلى دمياط فى (٢٧ من جمادى الثانية ١٢٢٤هـ = ٩ من أغسطس ١٨٠٩م)، وقبض العلماء الثمن فى الاستحواذ على مناصب هذا الزعيم الكبير؛ ومن هنا جاءت تسمية الجبرتى لهم بمشايخ الوقت.

يذكر أن عمر مكرم استمر فى منفاه ما يقرب من ١٠ سنوات، وعندما حضر إلى القاهرة فى (١٢ من ربيع الأول ١٢٣٤هـ = ٩ من يناير ١٨١٩م) ابتهج الشعب به ولم ينس زعامته له، وتقاطرت الوفود عليه. أما الرجل فكانت السنون قد نالت منه؛ فآثر الابتعاد عن الحياة العامة، ورغم ذلك كان وجوده مؤرقًا لمحمد على؛ فعندما انتفض القاهريون فى (جمادى الآخرة ١٢٣٧هـ = مارس ١٨٢٢م) ضد الضرائب الباهظة نفاه محمد على ثانية إلى خارج القاهرة؛ خوفًا من أن تكون روحه الأبية وراء هذه الانتفاضة، لكن الموت كان فى انتظار الزعيم الكبير حيث توفى فى ذلك العام بعد أن عاش آلام الشعب، وسعى لتحقيق آماله، وتحمل العنت من أجل مبادئه. وبذلك يكون محمد على قد استطاع أن يتخلص من جميع أعدائه وأصدقائه من أجل أن ينفرد بحكم مصر، وتحقيق أهدافه الداخلية والخارجية والتى كتبت لمصر نهضة حديثة على يديه.

■■■



3
سفر التكوين

■■



بنـــــاء الجيـــش

■■

يرى الكثيرون أن أهم منجزات محمد على باشا على الإطلاق ليست إصلاحاته الصناعية والزراعية، ولا بعثاته العلمية أو الإنجازات العمرانية العظمى التى تحققت فى عصره، لكن أعظم إنجازات عصر محمد على -كما أرى- هو تكوين جيش مصرى لأول مرّة منذ ما يزيد عن ألفى عام..حاول محمد على تأسيس جيش نظامى فى عام ١٨١٥م، ولكن هذه المحاولة أخفقت وكادت تودى بمركزه لولا أن عدل عنها وأرجأها حتى يحين وقتها.. وأخذ يؤسس الجيش المصرى النظامى منذ سنة ١٨٢٠م، وكان الجيش قبل ذلك العهد أخلاطاً من العناصر المعتادة على التمرد والفوضى، ويطلق عليهم الباشبوزق أى الجنود غير النظاميين، ومثل هذا الجيش لم يكن جديراً بالاعتماد عليه فى رفع هيبة مصر والدفاع عن كيانها وتوسيع حدودها، لذلك أخذ محمد على يفكر فى إنشاء جيش على النظام الحديث مؤلف من صميم المصريين، ولكن الظروف لم تكن مناسبة، فكان يؤجل تنفيذ فكرته إلى أن تحين الفرصة المناسبة، وقد لاقى صعوبات كبيرة فى تحقيقها، لأن الجنود غير النظاميين الذين كان يتألف منهم الجيش القديم كانوا معتادين على الفوضى ويكرهون كل نظام..وفى سنة ١٨٢٠م أنشأ محمد على مدرسة حربية فى أسوان لتخريج ضباط الجيش، وكان من الضرورى لإدخال النظام الجديد أن يختار ضباطاً ومعلمين عارفين بأساليب ذلك النظام، ولأن هذه الأنظمة الحديثة لم تكن معروفة فى الشرق، فقد اضطر محمد على إلى الاستعانة بضباط أجانب، وعلى رأسهم بالطبع الضابط الفرنسى الشهير الكولونيل سيف، فمدرسة أسوان إذن هى أول مدرسة حربية أنشئت فى ذلك العهد، وقد اختار محمد

على أسوان لإنشاء هذه المدرسة لتكون بعيدة عن الدسائس والمؤامرات. ولما اتسعت دائرة التجنيد ولمس محمد على نجاح تجربة تجنيد المصريين استدعى من فرنسا عدداً من كبار الضباط ليعاونوه على تنظيم الجيش المصرى، كما أرسل عدداً كبيراً من الشباب إلى أوروبا لإتمام دراستهم الحربية هناك، فعادوا إلى مصر بعد أن أتقنوا العلوم والفنون العسكرية، وحلوا فى المدارس الحربية محل المعلمين الأجانب. توالى إنشاء المدارس الحربية بعد مدرسة أسوان، فأنشئت عدة مدارس حربية فى فرشوط بقنا وفى النخيلة وفى جرجا، وتلاهم عدد آخر من المدارس الحربية فى القصر العينى والجيزة، وصنعت الأسلحة والبنادق والمدافع والذخائر بالقلعة، وعرفت بترسانة القلعة، وقد زار المارشال الفرنسى مارمون ترسانة القلعة سنة ١٨٣٤م وأعجب بنظامها وأعمالها وكتب عنها فى رحلته ما يلى: تفقدت دار الصناعة بالقلعة فوجدت البنادق التى تصنع فيها بالغة من الجودة مبلغ ما يصنع فى مصانعنا، والبنادق تصنع جميعها على الطراز الفرنسى، وتتبع دار الصناعة النظام نفسه الذى نتبعه نحن فى تصريف العمل وتوزيعه والرقابة عليه، ومصنع القلعة يضارع أحسن مصانع الأسلحة فى فرنسا من حيث الإحكام والجودة والتدبير... ويقول كادلفين وبارو فى كتابه حروب محمد على ضد الباب العالى: إن العرب - يقصد المصريين - من سكان وادى النيل لم يكن لهم منذ الفتح العثمانى حق الانتظام فى الجيش، ولكن محمد على قد أعاد لهم هذا الحق، وهو بتجنيدهم قد رفع من شأنهم وانتشلهم من الوهدة التى نزلوا إليها، وقد استردوا سمعتهم بما أظهروه من الشجاعة فى ميادين الحروب التى خاضوها... وقال كلوت بك فى كتابه (لمحة عامة إلى مصر) يعد المصريون أصلح الأمم لأن يكونوا من خيرة الجنود، لأنهم يمتازون بقوة الأجسام وتناسب الأعضاء والقناعة والقدرة على العمل واحتمال المشاق، ومن أخص مزاياهم العسكرية الامتثال للأوامر والشجاعة والثبات عند الخطر، والتذرع بالصبر فى مقابلة الخطوب والمحن والإقدام على المخاطر والاندفاع إلى خط النار بلا وجل ولا تردد. والمبهر حقاً أن الجيش المصرى خلال عدة سنوات من إنشائه قد أصبح واحداً من أقوى جيوش العالم، وبلغ تعداده نحو ٢٥٠ ألف جندى فى أواخر عصر محمد على، حتى

إنه قد هزم جيوش الإمبراطورية العثمانية فى أكثر من موقعة، بل وكاد إبراهيم باشا ابن محمد على القائد العام للجيوش المصرية أن يحتل القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية لولا أن تدخلت الدول الأوروبية لمنعه من ذلك.

الجيش المصرى

بداية من عهد محمد على انتقل الجيش المصرى إلى عهد جديد. فرغم الانتصارات التى أحرزها فى النوبة والجزيرة العربية وكريت والشام، لم يكن محمد على راضيا عن الجيش الخليط من الترك والألبان والمماليك الذين لم يكن يجمعهم سوى استلام المرتبات وانتظار الغنائم والأسلاب أثناء وبعد المعارك، ولم يكن يربطهم مثل عليا أو وطنية أو قومية؛ جيش لا يعرف النظام. وكان محمد على متيقنا أن هذا الجيش لن يستطيع إحراز أى انتصار إذا اشتبك مع جيش أوروبى يستخدم الأساليب والأنظمة الحديثة، مما دعاه إلى التفكير فى تكوين جيش جديد. وفى محاولته الأولى (أغسطس ١٨١٥) لتجنيد الفلاحين المصريين انضم علماء الدين إلى الألبانيين وعارضوه ووصل الأمر إلى التآمر على حياته، لذا التجأ إلى تجنيد السودانيين، وأحضر لتدريبهم ضباطا من فرنسا وأسبانيا والبرتغال ليتحاشى الاستعانة بالضباط الأتراك حتى لا يثير شبهات الباب العالى. ولكن التجربة فشلت لأسباب متعددة أهمها أن السودانيين ليس لديهم حافز وطنى للإقبال على الخدمة العسكرية. فلم يبق أمام محمد على مفر من الالتجاء مرة أخرى، فى ١٨٢٠، إلى تجنيد المصريين، وقصر ذلك على المسلمين. وقد عارضت الطبقة الأرستقراطية التركية ذلك بشدة وكانت حجتهم أن الجندية مهمة نبيلة يحط من قدرها أن تصبح فى متناول الفلاحين، ورأوا أن وضع السلاح فى أيدى الفلاحين (المغلوبين) إنما هو تسليمهم الأداة التى يطردون بها العثمانلى (الغالبين). ومن ناحية أخرى، قاوم الفلاحون تجنيدهم لأنهم لم يروا مصلحة لهم فيه، حيث لم يكن لديهم ما يدافعون عنه أو يموتون فى سبيله واعتبروا التجنيد عملا من أعمال السخرة. ولكن وبمرور الوقت تجاوب الفلاحون مع الوضع الجديد، ويقول موريز Mouriez فى كتابه مصر الحديثة من ١٨٤٠ ١٨٥٧: إذ انتظم الفلاحون فى

الجيش النظامى ألفوا بسرعة حياتهم الجديدة، وبعد أن كانوا معتادين الذل والمسكنة فى قراهم، استشعروا تحت راية الجيش كرامتهم الإنسانية وأخذوا يفخرون بأنهم جنود محمد على ويقابلون غطرسة الترك بمثلها، ولم يقبلوا أن يسموا فلاحين وعدوها تصغيرا لشأنهم لأن هذه التسمية كانت تشعرهم بشىء من المهانة، ونالوا من الحكومة أمرا أن لا ينبذهم أحد بكلمة فلاحين. وقد استعان محمد على برجال الدين فى ترغيب الفلاحين، كما أوعز إلى ابنه إبراهيم أن يذكرهم بالأقباط الذين كونوا كتيبة إبان الحملة الفرنسية، فالأولى بالفلاحين الذين شرفوا بنور الأيمان أن تأخذهم الغيرة وينخرطوا فى جيش محمد على.عندما بدأ محمد على فى تجنيد الفلاحين كان جمع الجنود يتم بانقضاض العمد والمشايخ بمعاونة الجنود على القرى فجأة ليسوقوا أبناءها مكبلين بالأغلال إلى عاصمة المديرية. وأورد د. السروجى أنه كان يؤخذ للجندية فى بعض الأحيان المسيحيون المعفون منها نتيجة لعدم القدرة على التمييز بين المصريين المسيحيين والمسلمين، وعدم وجود سجلات وغياب أى تنظيم لعملية التجنيد؛ وهو ما يؤكد عدم سماح محمد على حتى هذا الوقت للمصريين المسيحيين بالانضمام إلى الجيش ولو كمجندين. أما قيادات الجيش فظلت فى يد العناصر الأجنبية بصفة دائمة وكانت هذه العناصر تنقسم إلى قسمين:الأول، العناصر غير المصرية من الترك والألبان والشركس. ويظهر هذا عند إيفاد البعثات العسكرية إلى أوروبا حيث كان كبار الضباط على الدوام من غير المصريين. وتأكيدا على ذلك نجد أن أعلى رتبة وصلها ضابط مصرى فى عهد سعيد باشا كانت القائمقام (عقيد) وفى عهد إسماعيل باشا كانت أميرآلاى (عميد).الثانى، العناصر الأوروبية من مستشارين عسكريين من إيطاليا وأسبانيا والبرتغال وفرنسا لتنظيم نواة الجيش. واستمر هذا الوضع عقودا، وعندما عارضت فرنسا مشروع استقلال مصر فى عهد إسماعيل استُبدلت البعثة العسكرية الفرنسية بأخرى أمريكية غير رسمية. وقد استخدم الضباط الأوروبيين فى قيادة الحملات العسكرية المصرية فى السودان والحبشة. وعندما فكر محمد على فى أخذ مكان الباب العالى، شن حربا على الآستانة وتقدم الجيش المصرى مستوليا على الشام وأصبح على أبواب أنقرة فوقفت ضده جميع الدول الأوروبية خوفا من زيادة قوته فيما لو

تمكن من أن يحل محل الإمبراطورية العثمانية التى كان من الواضح أنها بدأت تتهاوى، وكانت كل الدول الأوروبية ليس فقط منتظرة انهيارها ولكنها تعمل على سرعة هذا الانهيار لترثها، فاضطر محمد على إلى إعادة جيشه إلى مصر وأجبر على الحد من عدده بما لا يسمح له بتكرار المحاولة مرة أخرى. وتعتبر الميزة الوحيدة التى تمكن من أخذها هو الإقرار باستمرار حكم مصر فى عائلته وأن يعطى حاكم مصر لقب خديوى.

سليمان باشا

ولا يمكن ذكر تجربة محمد على فى تكوين جيش مصرى حديث دون الإشارة إلى هذا الرجل. وأنت لا شك تعرفه، إذا كنت ممن يفضلون إطلاق الأسماء القديمة على شوارع القاهرة فلابد أنك تقول: ميدان سليمان باشا وشارع سليمان باشا بدلا من ميدان وشارع طلعت حرب. وحتى إذا لم تكن كذلك فلابد أنك تعرف منطقة الفرنساوى بمصر القديمة، والواقع أن سليمان باشا هو نفسه الفرنساوى، فهو سليمان باشا الفرنساوى أو الكولونيل سيف الذى وظفه محمد على لبناء الجيش المصرى، وعنه يقول الراحل جمال بدوى:

محمد على(١٨٠٥- ١٨٤٩م) هو مؤسس مصر الحديثة، وقد كان قبل عصر محمد على أن صارت كلمة فلاح مرادفة لكلمة مصرى فى قاموس الأجانب، إلى أن ظهر محمد على على مسرح الحياة المصرية ورأى أن أول خطوة فى بناء دولته تبدأ من بناء جيش نظامى حديث على نمط الجيوش الأوروبية.

و جرب محمد على جيشا من خليط من الأجناس المختلفة فنشأت الفوضى والشغب والغدر والتمرد والخيانة وكادت التجربة تطيح بمركز محمد على نفسه فتآمروا على قتله فى بيته بالأزبكية بالقاهرة لولا تسرب خبر المؤامرة وهروبه للقلعة.

فاتجهت أنظاره إلى الفلاحين وتذكر أمجاد الجيش المصرى تحت رايات أحمس وتحتمس ورمسيس وأدرك بفراسته أن هذا الفلاح سيأتى بالأعاجيب إذا ما تهيأت له الظروف الصالحة، وبدأ من نقطة الصفر.

وساقت إليه الأقدار ضابطا فرنسيا من بقايا حروب الحملة الفرنسية اسمه الكولونيل سيف فعهد إليه بمهمة تكوين النواة الأولى من الضباط الذين سوف يعاونونه على تدرب الجنود المصريين فاختار له ٥٠٠ من خاصة مماليكه ليبدأ بهم واختار له أسوان لتكون معسكرا لهذه المهمة بعيدا عن مؤامرات الجيش المختلط ومقاومتهم لكل جديد، واستغرقت عملية التدريب ثلاث سنوات ذاق خلالها سيف الأمرين لتطويع هذه العناصر الفوضوية وتهذيبها، واعتنق سيف الإسلام وأصبح اسمه سليمان فزال الحاجز النفسى بينه وبين تلاميذ الضباط وأظهر لهم من الشجاعة والصبر وسعة الصدر ما جعل حقدهم عليه ينقلب إلى حب واحترام فحدث مرة أن دبر تلاميذه مؤامرة لاغتياله أثناء التدريب على ضرب النار فأطلق عليه أحدهم بدلا من الهدف رصاصة مست أذنه وأطاحت بقبعته فأمسك سليمان بالبندقية واتخذ مكان القاتل فى الصف وأخذ يصوب الرصاص نحو الهدف الحقيقى وهو يردد : (هكذا يكون التصويب يا غبى!).

و كان من الطبيعى أن تترك هذه التصرفات النبيلة أثرها فى تلك النفوس الصخرية فأذابت جمودها وغرورها، وبعد تكوين الدفعة الأولى من الضباط بدأت عملية البحث عن الجنود ولقيت دعوة التجنيد من المصريين نفورا وكراهية لبعد المسافة بينهم وبين هذا الواجب الوطنى فضلا عن الطريقة البشعة التى سلكها أتباع محمد على لجمع الفلاحين إذ كانوا ينقضون على القرى الآمنة ويأسرون كل من يقع فى أيديهم من الرجال والأطفال ويسوقونهم فى الحبال إلى معسكرات التجنيد فى المدن.

و لكن المشروع مضى فى طريقه المرسوم وبقى سليمان باشا الفرنساوى على رأس الجيش يعلم ويدرب وينظم وينشئ المدارس الحربية ويستدعى الخبراء من الخارج ويرسل البعوث إلى أوروبا لتتخصص فى الفنون العسكرية.

وظل سليمان باشا الفرنساوى يواصل مهمته الجليلة حتى عصر سعيد باشا (١٨٥٤- ١٨٦٣م) ودخل فى نسيج المجتمع المصرى فتزوجت إحدى بناته بمحمد شريف باشا(أبو الدستور فى مصر) فأنجب منها فتاة تزوجت عبد الرحيم صبرى باشا (وزير

الزراعة) وأثمر الزواج فتاة هى ملكة مصر السابقة (نازلى) زوجة الملك احمد فؤاد وأم آخر ملوك مصر الملك فاروق.

وتقديرا من المصريين لهذا الرجل الذى يرجع إليه الفضل فى بناء أول جيش مصرى صميم أقاموا له تمثالا فى الميدان المسمى باسمه وأطلقوا اسمه على أحد شوارع القاهرة فلما قامت ثورة الجيش فى يوليو ١٩٥٢ أطاحت بالتمثال وألقت به فى ساحة المتحف الحربى ونزعت اسمه من الميدان والشارع وأطلقت عليه اسم (طلعت حرب) مؤسس الاقتصاد الوطنى، ومع ذلك لا يزال المصريون يفضلون استعمال اسم شارع وميدان سليمان ربما لأنه أسهل... وربما وفاء منهم لذكرى هذا الرجل العظيم.

و أخيرا، لم يكن سليمان باشا أقل من سيده محمد على إعجابا بالجنود المصريين فيقول (إن العرب - يريد المصريين - هم خير من رأيتهم من الجنود، فهم يجمعون بين النشاط والقناعة والجلد على المتاعب مع انشراح النفس وتوطينها على احتمال صنوف الحرمان، وهم بقليل من الخبز يسيرون طوال النهار يحدوهم الشدو والغناء ولقد رأيتهم فى معركة (قونية) فى ديسمبر ١٨٣٢ واستمرت سبع ساعات وانتهت بهزيمة ساحقة للعثمانيين - يبقون ساعات متوالية فى خط النار محتفظين بشجاعة ورباطة جأش تدعوان إلى الإعجاب دون أن تختل صفوفهم أو يسرى إليهم الملل أو يبدو منهم تقصير فى واجباتهم وحركاتهم الحربية).

٢ــ التعليم

رغم أن التاريخ لم يترك لنا خطبا أو تصريحات تفخر بأنه قام بعمل مشاريع من أجل تأسيس البنية التحتية، إلا أن الآثار الموجودة فعلا والتى لا شك فى إنشائها فعلا تنطق بأن محمد على قام بإنشاء البنية التحتية فعلا لا قولا وكان من أوائل المجالات التى اهتم بها محمد على هو التعليم

قبل أن يأتى

عظم شأن التعليم والثقافة فى العهد المملوكى، فغدت القاهرة مهبط العلماء والأدباء، وخلفت القاهرة مدينة بغداد فى ميدان العلوم والمعرفة والفنون ولما غزا العثمانيون

مصر تحولت القاهرة الى مدينة ثانوية قليلة الشأن وأخذت العلوم فى الانحطاط وأفل نجم الثقافة والتعليم، وعم الجهل والتخلف، فلم يكن العثمانيين أصحاب أى ماضى فى العلم أو فى الثقافة ينقلونه إلى البلاد التى وقعت تحت سيطرتهم، إضافة إلى إنهم كانوا يجهلون اللغة العربية رغم إنهم يدينون بالدين الإسلامى، فكانت اللغة التركية هى اللغة الرسمية فى عهدهم الطويل، ولذلك انحط شأن اللغة العربية، وندر نبوغ العلماء والأدباء والمفكرين، فكان أكثر ما كتب فى هذا العصر إنما هو من قبيل الشروح والحواشى على المصنفات القديمة - واقتصر التعليم فى عهد العثمانيين على الازهر والكتاتيب، واندثرت المدارس التى انشأت فى عصر المماليك، وكان التعليم الازهرى قاصرا على العلوم الشرعية وبعض الحساب اللازم لضبط أحكام المواريث. اما العلوم العملية فلم يكن لها أدنى نصيب فى التعليم الازهرى كذلك اندثرت دور الكتب التى كانت تزخر بها القاهرة فى عهد المماليك ولم يتبقى منها الا مكتبة الجامع الازهر وبلغ انحطاط العلم والتعليم فى مصر فى اواخر الحكم العثمانى ادنى مستوياته حتى تولى محمد على حكم مصر عام ١٨٠٥ م. فقام بإنشاء المدارس ونظم التعليم وأتى بالمعلمين من أوروبا وأرسل البعثات التعليمية إلى الخارج وأحدث نهضة علمية كبيرة تخدم طموحاته فى بناء مصر الحديثة. تطلع محمد على إلى بناء دولة قوية فى مصر والشام والحجاز، ولم يكن من سبيل لتحقيق ذلك إلا بالعلم الذى هو أساس كل نهضة. فقام بوضع نظام تعليمى حديث يضمن تنشئة جيل من أبناء البلاد قادر على تحمل المسؤلية فى عملية الاصلاح والنهوض بالبلاد، مع الابقاء على الازهر الشريف بتراثة العلمى والدينى والانتفاع ببعض النابهين من طلابه مع طلاب المدارس النظامية، وارسال بعض هؤلاء فى بعثات علمية إلى أوروبا. فقامت سياسة محمد على التعليمية على المحاور الاتية:

١ - إقامة المدارس على النظم الحديثة، وانشاء ديوان خاص بها.

٢ - نقل المعارف والعلوم الأوربية إلى مصر وتم ذلك عن طريق:

- استقدام المدرسين الأجانب إلى مصر.
- إرسال البعثات العلمية إلى أوروبا.
- الترجمة عن اللغات الاوربية.

٣ - النهوض بالطباعة باعتبارها أهم وسيلة لنقل الحضارة والثقافة الأوربية أولا:
اقامة المدارس وإنشاء ديوان خاص بها شملت المدارس التى أنشاها محمد على كل مراحل التعليم من المرحلة الأولية، والثانوية والتعليم الخاص وكان التلاميذ يساقون قسرا إلى المدارس بعد إجبار أولياء أمورهم على إرسالهم ولو أدى الأمر إلى انتزاعهم بالقوة. هذا على الرغم من المغريات التى بذلتها الدولة لترغيب الأهالى فى تعليم اولادهم فكانت المدارس تتولى إيواء التلاميذ وإطعامهم وتقدم لهم الملابس والرواتب الشهرية - وبلغ عدد المدارس الابتدائية التى انشأها محمد على ٦٦ مدرسة منها ٤٠ بالوجه البحرى وعدد ٢٦ مدرسة فى الوجه القبلى - كما أنشأ مدرستين تجهيزيتين احدهما فى القاهرة والأخرى فى الأسكندرية - أما المدارس التخصصية أو العالية، فشملت مدارس للطب والهندسة والطب البيطرى والزراعة واللغات ومدارس حربية للطوبجية والخيالة والبيادة هذا إلى جانب مدارس للموسيقا والفنون والصناعات وكان بالقطر المصرى نحو ١٠٠٠٠ (عشرة الاف) تلميذ ينتظمون فى هده المدارس... ومن أهم المدارس العالية التى أنشأها محمد على ما يلى:

- مدرسة الطب أنشأها محمد على بناء على مشورة من الطبيب الفرنسى كلوت بك الذى استقدمه محمد على ليكون طبيبا ورئيسا لجراحى الجيش المصرى فأشار على محمد على بإنشاء مدرسة للطب يلتحق بها الطلبة المصريون فتم إنشاؤها فى عام ١٨٢٧م فى أبى زعبل، كما أنشئت مدرسة ملحقة بها لتعليم اللغة الفرنسية. حيث كانت هيئة التدريس فى مدرسة الطب تتكون من أساتذة فرنسيين وقلة من الإيطاليين. وبعد مضى خمس سنوات على إنشاء هذه المدرسة، وقع الاختيار على اثنى عشر طالبا من أوائل الخريجين ليكونوا أول بعثة لدراسة الطب فى فرنسا عام ١٨٣٢م وعندما عاد

هؤلاء الطلبة كلفتهم ادارة المدرسة بترجمة بعض أمهات كتب الطب إلى جانب اشتغالهم كمعيدين ومساعدين للاساتذة الاجانب

٢- مدرسة الطب البيطرى: بدأت فى رشيد عام ١٨٢٨م ثم ألحقت بعد سنتين بمدرسة الطب البشرى فى أبى زعبل، وكان مديرها فرنسيا، ولما نقلت مدرسة الطب البشرى إلى قصر العينى فى عام ١٨٣٧م أنتقلت مدرسة الطب البيطرى إلى شبرا.

٣- المدارس الفنية: وتشمل المدارس الزراعية والهندسية أما المدارس الزراعية، فكان أهمها مدرسة الزراعة بشبرا الخيمة، التى بدأت الدراسة بها عام ١٨٣٣م والمدرسة الزراعية بنبروه التى انشئت عام ١٨٣٦م. وكانت هيئة التدريس فى هذه المدارس من اعضاء البعثة الزراعية الذين عادوا من اوربا ومنهم يوسف أفندى الذى تولى ادارة مدرسة نبروه الزراعية. وأما المدارس الهندسية : فقد عنى بها محمد على عناية خاصة نظرا لاحتياج البلاد إلى مهندسين لمسح الأرض وحفر الترع وإنشاء القناطر والجسور وتشييد المصانع ودراسة طبقات الأرض للبحث عن المعادن. وخدمة الجيش ببناء الثكنات والطوابى والاستحكامات وكانت آخر مدرسة للهندسة أنشئت فى عهد محمد على هى مدرسة بولاق عام ١٨٣٤م التى نظمت على نسق مدرسة الهندسة بباريس ثم أنضمت إليها مدرسة المهندسين بالقناطر الخيرية ومدرسة المعادن بمصر القديمة.

٤- المدارس الصناعية : وكان اهم هذه المدارس ما يلى

(أ) مدرسة العمليات، اوالفنون والصنائع التى أنشئت عام ١٨٣٧م بهدف تخريج الصناع المهرة.

(ب) مدرسة الكيمياء : وأنشئت فى مصر القديمة لدراسة الصناعات الكيميائية

(ج) مدرسة المعادن : أنشئت فى عام ١٨٣٤م لدراسة كل ما يتعلق بالصناعات المعدنية.

٥- مدرسة الألسن. أمر محمد على بانشائها عام ١٨٣٥م باسم مدرسة الترجمة ثم تغير اسمها إلى مدرسة الألسن ويرجع الفضل فى إنشائها إلى اقتراح من رفاعة الطهطاوى الذى تولى إدارة المدرسة واختار للدراسة بها ثمانين طالبا، وعنى فيها بتدريس اللغتين العربية والفرنسية، تليهما اللغة التركية والإنجليزية.

إنشاء ديوان المدارس

كان تنظيم المدارس تابعا لديوان الجهادية، فى بداية عهد إنشائها، فكانت الجهادية تتولى أمر المدارس والإشراف عليها حتى أمر محمد على بتأليف مجلس عام للنظر فى تنظيم المدارس عام ١٨٣٦م برئاسة أحد رؤساء البعثات العلمية إلى فرنسا، وهو مصطفى مختار الذى تخصص فى دراسة الفنون الحربية وعلى يديه ولدت أول وزارة للمعارف فى مصر والعالم العربى وضم المجلس فى عضويته عدد من أكابر المصريين ونظار المدارس العليا ونتج عن مناقشات المجلس توصيات وضعت موضع التنفيذ حيث اشار المجلس بتقسيم التعليم الى ثلاث مراحل : هى الابتدائية والتجهيزية والخصوصية، وأشار المجلس بتوزيع المدارس على الأقاليم حسب عدد السكان، مع إنشاء مدرستين تجهيزيتين فى القاهرة والإسكندرية.

ـ ولما كانت المدارس بعد انشائها تحتاج الى هيئة فنية للاشراف عليها وكانت هذه الناحية غير متوفرة فى ديوان الجهادية، فقد صدر قرار محمد على بإنشاء ما يعرف باسم شورى المدارس أو مجلس المدارس لمتابعة الشؤن الفنية للمدارس غير أنها ظلت من الناحية الادارية تابعة لديوان الجهادية وفى فبراير من عام ١٨٣٧م اصدر محمد على قرارا بانشاء ديوان المدارس وأسند رئاسته إلى مصطفى بك مختار. وبذلك انفصلت تبعية المدارس فى مصر عن ديوان الجهادية وحددت اللائحة الصادرة لهذا القرار اختصاصات ديوان المدارس بادارة المدارس والكتب خانات (دور الكتب) والمعامل والمتاحف وقناطر الدلتا ومطبعة بولاق وجريدة الوقائع المصرية. وبعد وفاة مصطفى مختار الذى يعتبر أول وزير للمعارف المصرية عام ١٨٣٩م ,تولى رئاسة ديوان المدارس ابراهيم أدهم باشا . ثانيا: نقل المعارف والعلوم الأوروبية الى مصر. كانت الحضارة

الأوربية على عصر محمد على قد بلغت درجة رفيعة من الرقى والتقدم فاتجهت أنظار محمد على إلى أوربا للاقتباس من حضارتها لبناء دولته الحديثة. وقد اعتمد فى ذلك على ما يلى:

١. استقدام المدرسين الأجانب المتميزين إلى مصر . كانت فكرة محمد على الأساسية فى ذلك هى أن يعهد للأجانب الذين يثق فى علمهم بتعليم طلبة المدارس التى أنشأها حتى اذا أتم هؤلاء تعليمهم خلفوا أساتذتهم فى مراكزهم. وفى هذا السياق استعان محمد على بعدد من العلماء الأوربيين كان معظمهم من الفرنسيين وكان من أبرزهم كلوت بك الذى أنشأ مدرسة الطب، ومسيو لامبير ناظر مدرسة الهندسة وهاملتون ناظر مدرسة الطب البيطرى

٢. إرسال البعثات التعليمية إلى أوربا . كانت أول بعثات محمد على إلى أوربا فى سنة ١٨٠٩م إلى بعض المدن الإيطالية وتلتها بعثة ثانية فى سنة ١٨١٣م إلى إيطاليا أيضا لدراسة فن الطباعة وسبك الحروف وبعض الفنون العسكرية وبناء السفن. ثم تحولت البعثات العلمية إلى فرنسا حيث تأسس أول مكتب مصرى للبعثات فى باريس عام ١٨٢٦م وتكونت البعثة من ٤٤ عضوا تحت اشراف العالم الفرنسى جومار وسافر مع هذه البعثة الشيخ رفاعة الطهطاوى كإمام لها ومرجعا لشئونها الدينية، وكان من أعضائها أيضا مصطفى مختار الذى تولى ديوان المدارس فيما بعد وقد زاد عدد اعضاء هذه البعثات حتى وصل الى ١٤٤ عضوا فى العام ١٨٣٣م. أما التخصصات العلمية التى درستها هذه البعثات فشملت : العلوم العسكرية والهندسة والطب والجراحة، والميكانيكا، والكيمياء، والزراعة والتاريخ الطبيعى. ولما عاد أعضاء هذه البعثات الى مصر كانوا دعامة المشروعات العظيمة التى فكر فيها محمد على واستطاعوا القيام بأعباء العملية التعليمية فى مصر خلفا لبعض الأجانب الذين استعان بهم محمد على فى البداية. فقد تولى يوسف افندى بعد عودته من فرنسا إدارة مدرسة الزراعة العليا، وتولى مصطفى مختار رئاسة ديوان المدارس، كما تولى رفاعة الطهطاوى إنشاء وادارة مدرسة الألسن وغير هؤلاء كثيرون من اعضاء البعثات

التعليمية الذين عادوا إلى مصر حاملين العلوم الأوربية، فقد عمل الأطباء الاثنى عشر - الذين عادوا من فرنسا بعد دراسة الطب - كمعيدين ومساعدين للأساتذة الأجانب وفى عام ١٨٣٧م أمكن الاستغناء عن المدرسين الأجانب فى مدرسة الهندسة وحل مكانهم عدد من اعضاء البعثة الهندسية التى عادت من فرنسا .

٣. حركة الترجمة

اهتم محمد على بحركة الترجمة من اللغات الأجنبية فى مختلف العلوم وكان حريصا على التأكد من كفاءة ومهارة أعضاء البعثات العلمية عند عودتهم إلى مصر حيث كان يأمر كل واحد منهم بترجمة كتاب فى العلم او الفن الذى تخصص فى دراسته وفى عهد محمد على نهضت اللغة العربية بعد أن أصبحت لغة الكتب والتدريس فى مختلف العلوم، وأخرجت المطبعة الأميرية ببولاق عدد كبيرًا من الكتب العربية المؤلفة والمترجمة فى مختلف العلوم والفنون كالطب والرياضيات والعلوم الإنسانية والجولوجيا والعلوم الحربية وغيرها. ذلك أن خطط محمد على الاصلاحية والعسكرية كانت تتطلب كتبا مترجمة عن اللغات الأجنبية تساير التقدم العلمى الحديث كما حرص محمد على على شراء الكتب العلمية التى يشير بها كبار موظفيه من اوربا ويأمر بترجمتها الى العربية خاصة إذا كانت تختص بالعلوم العسكرية أو الهندسية اوالطبية – وفى مدرسة الطب قامت هيئة من المترجمين بترجمة الكتب الطبيا الى العربية وكان أول كتاب طبى مترجم فى هذه المدرسة هو كتاب (القول الصريح فى علم التشريح) وكان يراجع ترجمة الكتب الطبية عدد من المحررين، ويصحح لغتها ومصطلحاتها طائفة من شيوخ الازهر. كما شارك الطلبة المصرين بعد عودتهم من البعثات العلمية فى ترجمة أمهات الكتب الطبية وكذلك كان الحال فى مدرسة الزراعة، حيث قامت هيئة التدريس من أعضاء البعثات العلنية بترجمة الكتب الخاصة بعلوم النبات من الفرنسية الى العربية. وكذلك الحال فى مدرسة الهندسة، وفى عام ١٨٣٥م أمر محمد على بإنشاء مدرسة الترجمة التى تغير اسمها إلى مدرسة الالسن التى أنشئت بهدف إعداد مترجمين فى مختلف العلوم والفنون، وإعداد مدرسين

لتدريس اللغة الفرنسية فى المدارس وقد بلغت أعداد الكتب التى ترجمت على يد خريجى مدرسة الالسن حوالى ٢٠٠٠ كتاب.

الطباعة والنشر: بدأ محمد على التفكير فى إنشاء المطبعة فى بدايات عهده عندما أرسل بعثة علمية إلى إيطاليا للتخصص فى فن الطباعة، وبعد خمس سنوات تقريبا تم انشاء مطبعة بولاق التى بدات تخرج كتبها المطبوعة سنة ١٨٢٢م. كما انشأ محمد على مصنعًا للورق فى بولاق، وكانت هذه المطبعة من أهم الوسائل التى استخدمت فى نقل العلوم والفنون الأوربية إلى مصر.

وكانت الكتب المطبوعة توزع على طلاب المدارس والمعاهد العلمية وعلى الجند والضباط فى فرق الجيش، كما أمكن لمن أراد من افراد الشعب أن يقتنى منها ما يشاء ولم تقتصر الطباعة على المطبعة الكبرى فى بولاق بل أنشئت مطابع صغيرة اخرى ملحقة بالمنشآت التعليمية البعيدة عن بولاق، ليتيسر لها طبع الكتب التى تترجم بها كما الحقت ببعض الدواوين مطابع خاصة بها وقد كان الغرض الأساسى من انشاء هذه المطابع هو طبع الكتب المترجمة، ولكنها قامت أيضا باعادة طبع العديد من المخطوطات القديمة.

البعثات العلمية

ويمكننا إلقاء نظرة على البعثات العلمية التى أرسلها محمد على إلى أوروبا من خلال أوراق الندوة التى نظمتها مجلة العربى الكويتية، حول تقييم نهضة محمد على.

فقبل انطلاق البعثات العلمية الكبرى إلى الغرب، لم يكتف محمد على بتأسيس المدارس والمعاهد العلمية فى مصر ليتلقى فيها المصريون العلوم التى تنهض بالمجتمع كله، بل فكّر فى أهمية نقل معارف أوروبا وخبرة علمائها ومهندسيها ورجال الحرب والصناعات فيها بشكل مباشر من خلال وجودهم فى مصر.

وكان هدف البعثات الأولى تكوين كوادر من المعلمين المصريين فى المدارس العليا، وتدريب قادة للجيش والبحرية، وتأهيل مهندسين قادرين على نشر العمران.

وبدأت أولى البعثات حوالى عام ١٨١٣، وكانت الوفود الأولى من الطلبة مكرسة لدراسة الفنون العسكرية وبناء السفن وتعلم الهندسة توجهت جميعها إلى المدن الإيطالية مثل روما وميلانو وليفورن وفلورنسا. وكان ضمن هؤلاء الطلبة نقولا مسابكى الذى تعلم الطباعة وتولى عند عودته إلى مصر إدارة مطبعة بولاق.

وتوجهت بعثات أخرى إلى فرنسا وإنجلترا لدراسة بناء السفن والملاحة ومناسيب الماء وصرفه إضافة إلى الميكانيكا.

بلغ عدد الطلاب الذين تضمنتهم هذه البعثات المبكرة ٢٨ طالبا، وأشهرهم عثمان نور الدين الذى ذهب إلى فرنسا، وكان له شأن كبير فى تنظيم البعثات الكبرى التالية وصار أميرالا للأسطول المصرى.

وبدأت البعثات الكبرى من عام ١٨٢٦، بإرسال ٤٤ طالبا إلى فرنسا، لحقت بهم بعثة كبيرة أخرى من ٧٠ طالبا عام ١٨٤٤، اختارهم سليمان باشا الفرنساوى من بين تلاميذ المدارس المصرية ولحق بهم غيرهم بعد ذلك. وأصبح عدد طلاب البعثات جديرا بإنشاء مدرسة مصرية فى فرنسا، لتعليم الطلاب اللغة الفرنسية بما يناسب المدارس العليا الفرنسية، وإن كانت قد أُغلقت عام ١٨٤٨ إلا أنه تم فتحها من جديد فى عهد إسماعيل.

وبين عامى ١٨٣١ و١٨٤٧ وصل عدد طلاب البعثات إلى ٣١٩ طالبا، ساهموا جميعا فى نهضة مصر العلمية والاقتصادية والحربية والسياسية والاجتماعية.

وجدير بالملاحظة أن محمد على كان يهتم بأعضاء هذه البعثات بنفسه، حيث يتتبع أحوالهم ويكتب لهم الرسائل لتشجيعهم على التحصيل، من ذلك رسالة له فى سبتمبر ١٨٢٩ تستحق أن نورد هنا جملا منها: قدوة الأماثل الكرام الأفندية المقيمين فى باريس لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم، ننهى إليكم أنه قد وصلتنا أخباركم الشهرية، والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم... فقياسا على قلة شغلكم فى هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم، وهذا الأمر غمنا جدا... فإذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة

الشغل والاجتهاد والغيرة وجئتم إلى مصر بعد قراءة بعض كتب فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون فإن ظنكم باطل... فإن أردتم أن تكتسبوا رضاءنا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون» كلمات من يأمل فى نقل حضارة وليس مجرد الحصول على شهادات تحصيل معارف. ولا يفوتنا التأثير النفسى لمثل هذه الكلمات من حاكم مصر إلى طلاب مازالوا فى بدايات حياتهم العملية. ويدل أيضا على الاهتمام بهؤلاء الطلاب المراكز المهمة التى شغلوها بعد عودتهم من البعثات.

وإن كانت البعثات قد ركّزت فى البداية على العلوم والخبرات الكفيلة ببناء قوة عسكرية لضمان الاستقلال، فإنها تطورت بشكل تلقائى لتدعيم هذه القوة بالصناعات اللازمة سيان كانت عسكرية أو مدنية، فكانت النتيجة النهوض بكافة جوانب التطور التعليمى والثقافى والعلمى والتقنى.

ركزت البعثة الأولى، التى وصل عدد طلابها إلى ٤٤ طالبا وكان إمامها الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى، على الإدارة الملكية والحقوق والفنون الحربية والإدارة العسكرية والعلوم السياسية والملاحة والفنون البحرية والهندسة الحربية والمدفعية والطب والجراحة والزراعة. ودرس بعض طلابها أيضا التاريخ الطبيعى والمعادن وهندسة الرى والميكانيكا والطباعة والكيمياء.

واهتمت البعثة الثانية التى أتت بعدها بعامين بالهندسة والرياضة والطبيعيات، وتخصص بعض طلابها فى الطبيعيات وآخرون فى الفنون الحربية أو العلوم السياسية أو الطب أو الترجمة.

وبعد عام واحد من البعثة الثانية تغلبت الصبغة الصناعية على دراسات أفراد البعثة، مما يدل على رغبة محمد على فى إنشاء صناعات مهمة فى مصر. وشملت هذه البعثة عام ١٨٢٩ ثمانية وخمسين طالبا تم إرسالهم إلى فرنسا والنمسا وإنجلترا. وتخصص معظم أفرادها فى عدد من الصناعات الرئيسية، فمن صناعة الصباغة والنسيج والأجواخ وصناعة السفن والفنون البحرية وصب المدافع والقنابل والآلات الهندسية والساعات والأحذية، حتى صناعة الدهانات والآلات الجراحية.

وتخصصت البعثة الرابعة عام ١٨٣٢ فى الطب وكان عدد طلابها ١٢ طالبا من أوائل خريجى مدرسة الطب المصرية فى أبى زعبل، تم اختيارهم لإتمام دراستهم فى باريس لتعيينهم أساتذة فى مدرسة الطب عند عودتهم، وساهموا إضافة إلى التدريس فى ترجمة وتأليف الكتب الطبية والاضطلاع بالأعمال الصحية فى البلاد.

وكانت البعثة الخامسة عام ١٨٤٤ هى أكبر بعثة ترسل إلى فرنسا وهى آخر بعثة كبرى، وصل عدد طلابها إلى نحو ٨٣ طالبا وأُطلق عليها بعثة الأنجال لأنها تضمنت بعض أنجال وأحفاد محمد على. وتم اختيار أعضائها من نوابغ طلبة المدارس المصرية العالية وضمت أيضا بعض المعلمين والموظفين، مما يكشف سلامة منهج اختيار أعضاء البعثات والتخصصات التى توجهوا إلى دراستها، حيث لم تقتصر على طلاب العلم فى مستوى التعليم العالى لإعدادهم لشغل مراكز مهمة فى مجالات الإنتاج والخدمات المختلفة، لكنها فتحت الطريق أمام العاملين فعلا فى هذه المجالات لربط خبراتهم بأحدث العلوم والإنجازات التقنية. وتخصصت هذه البعثة فى العلوم الحربية والطب والطبيعيات، إضافة إلى علوم أخرى.

وتلا ذلك أربع بعثات أرسلت إحداها إلى النمسا فى ١٨٤٥، اهتمت بالكيمياء الصناعية وطب العيون، وأخرى سنة ١٨٤٧، لتعلم الحقوق والمحاماة، وبعثة سنة ١٨٤٧ إلى إنجلترا من ٢١ نجارا لإتقان بناء السفن، وبعثة أخيرة عام ١٨٤٧ مكونة من ٢٥ طالبا تم اختيارهم من نوابغ طلبة مدرسة المهندسخانة للتخصص فى الميكانيكا ذهب أغلبهم إلى إنجلترا وبعضهم إلى فرنسا.

نتائج البعثات العلمية

وبلغ عدد طلبة هذه البعثات ٣١٩ طالبا. وكان من نتائجها تأسيس مدارس للهندسة والطب والصيدلة والألسن والمعادن والفنون والصنائع والزراعة غير المدارس الحربية المختلفة، وإقامة منشآت الرى والزراعة، ومنشآت صناعية أخرى مثل صناعات الغزل والنسيج، ومعامل سبك الحديد وألواح النحاس ومعامل السكر والمطابع، إضافة إلى ترسانات صناعة السفن.

ونظرة إلى وضع الاقتصاد الحرفى قبل هذه الفترة والتطور الملحوظ فى الصناعة والزراعة والإنتاج الحربى، كافية للتدليل على التغير النوعى فى بنية المجتمع والاقتصاد ومسار النهضة الشاملة التى شاركت البعثات العلمية والتقنية فى تأسيسها.

ولا شك أن النهضة قامت على التوسع الكبير فى إنشاء المدارس وإرسال البعثات العلمية إلى أوروبا، ويعتبر هذا المنحى تحديثا للبنية الأساسية فى المجالات الحربية والاقتصادية. وبدأ العمل فى مجال التعليم بتأسيس المدارس العليا وإيفاد البعثات، ثم الانتقال إلى التعليم الابتدائى والثانوى، مما أتاح تكوين طبقة من المتعلمين تعليما عاليا تم الاستعانة بهم فى أعمال العمران ونشر التعليم بين طبقات الشعب.

كان من ثمار البعثات أيضا اتباع المنهج العلمى فى التعامل مع المشاكل الصحية، حيث تم إجراء تطعيم ضد الجدرى كنوع من الحماية من هذا المرض، وأُقيم فى الإسكندرية حجر صحى على السفن الواردة من البلاد الموبوءة، وتم تأليف المجلس الصحى للإشراف على الشئون الصحية فى القطر كله، وتنظيم فرقة من الأطباء الوطنيين للرعاية الصحة وتوفير العلاج المجانى للطبقات الفقيرة.

وساعد على إمداد المدارس العليا والبعثات بطلاب حازوا على قسط من الثقافة يؤهلهم لتفهم دروس المدارس العليا فى مصر وأوروبا، وجود التعليم فى الأزهر الذى كان يمد البعثات بالطلبة النابغين.

وللتدليل على الجانب العملى فى تفكير محمد على، الذى أدرك المستوى الفعلى المنخفض للخبرات المحلية، أنه بدأ بتأسيس مدرسة الهندسة (المهندسخانة) فى القلعة عام ١٨١٦، وكان أول طلابها من أهل البلد والمماليك يتعلمون قواعد الحساب والهندسة وعلم المقادير والقياسات، وتم إحضار آلات هندسية متنوعة لهم من إنجلترا. وكانت الدراسة مجانية ويتم صرف مرتبات شهرية و«كساوى» سنوية للطلبة. ولحقت بها فى عام ١٨٣٤ مدرسة هندسة فى بولاق تولى نظارتها ووكالتها خريجان من خريجى البعثات.

وتم تأسيس مدرسة الطب عام ١٨٢٧ تبعا لاقتراح من كلوت بك كما أشرنا، وكان مقرها فى البداية أبو زعبل لوجود المستشفى العسكرى بها. واختارت الحكومة للمدرسة مائة تلميذ من طلبة الأزهر. وتولى إدارتها كلوت بك فاختار أساتذة أوروبيين معظمهم من الفرنسيين لتدريس علوم التشريح والجراحة والأمراض الباطنية والمواد الطبية وعلم الصحة والصيدلة والطب الشرعى والطبيعة والكيمياء والنبات. وفى عام ١٨٣٧ بلغ عدد طلابها ١٤٠ طالبا و٥٠ طالبا فى مدرسة الصيدلة.

وتعددت المدارس فى مصر فى ذلك العصر مثل مدرسة الألسن، مدرسة المعادن، مدرسة الفنون والصنائع، مدرسة الزراعة، مدرسة الطب البيطرى، إضافة إلى المدارس الحربية والبحرية. ومع تخرج نوابغ أعضاء البعثات وعودتهم إلى مصر تم إنشاء إدارة ديوان المدارس عام ١٨٣٧ التى ترأسها مصطفى مختار أحد خريجى البعثة الأولى.

الزراعة والصناعة خلافه

أدرك محمد على مبكرا أنه لا استقلال بدون اعتماد على النفس فى فنون الزراعة والصناعة والتعليم. ولعل هذا يفسر الاهتمام البالغ بإنشاء البنية الأساسية فى مجال الزراعة، مثل إعادة تشغيل الترع المطمورة وحفر أخرى جديدة فى شتى أنحاء مصر، وإنشاء الجسور على شاطئ النيل من جبل السلسلة جنوبا حتى البحر الأبيض المتوسط شمالا لمنع فيضان المياه على ضفتى النيل، إضافة إلى إنشاء جسور أخرى على أفرع النيل. وتم إنشاء قناطر عديدة على الترع لضبط مستويات المياه تيسيرا للانتفاع بالرى. وكانت أراضى الوجه البحرى تروى بطريق الحياض كرى الوجه القبلى فلا يُزرع فيها إلا المحاصيل الشتوية، فتم إنشاء القناطر الخيرية لضمان توفير المياه فى معظم السنة. وعهد محمد على بدراسة هذا المشروع قبل تنفيذه إلى جماعة من كبار المهندسين منهم لينان دى بلفون وبدأ التنفيذ فى ١٨٣٤، لكن مهندسا فرنسيا آخر هو موجيل أعد تصميما مختلفا وبدأ التنفيذ بمساعدة مهندسين مصريين تخرجا من البعثات العلمية. وتعتبر هذه القناطر التى تعمل فى شمال القاهرة حتى الآن من القناطر الأولى الكبرى التى تقام على نهر واسع.

وكانت نتيجة الإصلاحات الزراعية واسعة النطاق تغيير عدد من الحاصلات، فبعد أن كانت أهم الحاصلات فى مصر: القمح والشعير والفول والعدس والحمص والذرة والترمس والبرسيم وقصب السكر والقنب والكتان والخضر والفواكه، وقليل من القطن، تم التوسع بغرس شجر التوت لتربية دود القز (الحرير). وبعد أن كان القطن من أصناف رديئة تمت زراعة القطن طويل التيلة، تبعا لنصيحة جوميل الذى استقدمه محمد على لتنظيم مصانع النسيج. وأقبلت على طلب القطن المصرى مصانع النسيج فى فرنسا وإنجلترا، وأصبح أساس الثروة الزراعية فى مصر.

اما بالنسبة لزراعة القطن فى مصر فقد بدأت على نطاق واسع خلال عهد محمد على حيث تم اكتشافه عن طريق الصدفة عندما رأى أحد الفرنسيين فى ذلك الوقت شجيرة قطن مزروعة فى أحد البيوت المصرية كنبات زينة وأعجب بمواصفات تيلته وتم إنتاج ثلاث بالات من القطن، وتم بيعها فى فرنسا بأسعار عالية جداً نظراً لطول تيلته. وشجع ذلك محمد على باشا حاكم مصر وقتها على استيراد أجود أنواع بذور القطن، وزراعتها فى مصر مع احتكار سوق القطن لحمايته وحماية صناعة المنسوجات التى كانت وليدة فى ذلك الوقت وعندما أصبحت هذه الصناعة قوية لم يستمر سعيد باشا فى الاحتكار ومنذ ذلك الحين، تضاعفت أعمال زراعات وحلج القطن فى مصر وتطورت هذه الصناعة كما زاد المخزون وتعدد السماسرة، وأنشئت بورصة للقطن بالإسكندرية وكانت من أقدم البورصات على مستوى العالم. وبعد فترة قصيرة عملت وزارة الزراعة فى ذلك الوقت على استنباط أصناف ذات جودة متميزة. وحرصاً من الحكومة على أصناف القطن المصرى. أصدرت الوزارة قرارا فى عام ١٩٢٦ يحظر خلط بذور القطن ويفرض الإشراف عليها.

وكانت السياسة العامة لحكومة محمد على تطبيق سياسة الاحتكار وكان على الفلاحين تقديم محاصيلهم ومصنوعاتهم بالكامل لشون الحكومة بكل ناحية وبالأسعار التى تحددها الحكومة. وكل شونه كان لها ناظر وصراف وقبانى ليزن القطن وكيال ليكيل القمح. وكانت تنقل هذه المحاصيل لمينائى الاسكندرية وبولاق بالقاهرة. وكانت

الجمال تحملها من الشون للموردات بالنيل لتحملها المراكب لبولاق حيث كانت تنقل لمخازن الجهادية أو للإسكندرية لتصديرها للخارج وكان يترك جزء منها للتجار والمتسببين (البائعين) بقدر حاجاتهم. وكانت نظارة الجهادية تحدد حصتها من العدس والفريك والوقود والسمن والزيوت لزوم العساكر فى مصر والشام وإفريقيا وكانت توضع بالمخازن بالقلعة وكان مخزنجية الشون الجهادية يرسلون الزيت والسمن فى بلاليص والقمح فى أجولة وكان ضمن سياسة محمد على لاحتكار الزراعة تحديد نوع زراعة المحاصيل والأقاليم التى تزرعها. وكان قدجلب زراعة القطن والسمسم. وكان محمد على يحدد أسعار شراء المحاصيل التى كان ملتزما بها الفلاحون وكان التجار ملتزمين أيضا بأسعار بيعها. ومن كان يخالف التسعيرة يسجن مؤبد أو يعدم. وأرسل لحكام الأقاليم أمرا جاء فيه(من الآن فصاعدا من تجاسر على زيادة الأسعارعليكم حالا تربطوه وترسلوه لنا لأجل مجازاته بالإعدام لعدم تعطيل أسباب عباد الله). وكانت الدولة تختم الأقمشة حتى لايقوم آخرون بنسجها سرا. وكان البصاصون يجوبون الأسواق للتفتيش وضبط المخالفين. وكان محمد على يتلاعب فى الغلال وكان يصدرها لأوربا لتحقيق دخلا أعلى. وكان يخفض كمياتها فى مصر والآستانة رغم الحظر الذى فرضه عليه السلطان بعدم خروج الغلال خارج الإمبراطورية.

الصناعة

وكما اهتم محمد على باشا بالتعليم المصرى بمختلف أنواعه، وبالزراعة، فقد اهتم أيضا بالصناعة التى تطورت تطورا كبيرا فى عهده والتى أصبحت ثانى عماد للدولة بعد التعليم بكافة أشكالها وبخاصة الحربية لمواكبة الأنظمة التى كانت موجودة بأوربا وحتى لا تعتمد مصر على جلب كافة احتياجاتها من الخارج الأمر الذى سيجعلها تحت رحمة الدول الكبرى من ناحية واستنزاف موارد الدولة من ناحية أخرى إلى جانب أن معظم الخامات المستخدمة فى الصناعة كانت موجودة فعلا بمصر فضلا عن توفر الثروة البشرية، وهكذا تم إنشاء العديد من المصانع وكان أول مصنع حكومى بمصر هو مصنع الخرنفش للنسيج وكان ذلك فى سنة ١٢٣١ هـ / ١٨١٦ م ثم بدأت تتوالى المصانع سواء

الحربية أو غيرها الأمر الذى أدى بمحمد على إلى اتباع سياسة خاصة للنهوض بهذه المصانع بدأها أولا باستخدام الخبراء والصناع المهرة من الدول الأوربية لتخريج كوادر مصرية من رؤساء وعمال وصناع وفنيين وإحلالهم محل الأجانب بالتدريج. وقد انقسمت الصناعات الجديدة التى أدخلها محمد على باشا إلى مصر إلى ثلاثة أقسام الأول وهو الصناعات التجهيزية وتمثلت فى صناعة آلات حلج وكبس القطن وفى مضارب الأرز ومصانع تجهيزه، وتجهيز النيلة للصباغة، ومعاصر الزيوت ومصانع لتصنيع المواد الكيماوية كما قام محمد على باستبدال الطرق البدائية فى الصناعة وإدخال بدلا منه الآلات سواء الميكانيكية أو التى تدار بالبخار والمكابس، أما القسم الثانى وهى الصناعات التحويلية وهى الصناعات المتعلقة بالغزل والنسيج بكافة أنواعه، القسم الثالث وهو الصناعات الحربية وقد بدأ محمد على باشا فيها بعد قيام الحرب الوهابية سنة ١٨١١ - ١٨١٩م حيث أسس أول ترسانة أو دار للصناعة بالقلعة - ورش باب العزب - ليكون على أحدث النظم الأوربية فى ذلك الوقت لتتوالى المصانع الحربية بعد ذلك بأنحاء مصر، هذا ولقد كان ذلك بعضا مما شملته أوجه النهضة بمصر فى عهد محمد على باشا غير أن الصناعات الصغيرة انهارت تماما أو على الأقل تدهورت فى عهد الباشا.

وإذا كانت الصناعات الصغرى قد تدهورت أحوالها فى عصر محمد على بسبب الاحتكار، فإن الصناعات الكبرى شهدت نهضة ضخمة بعد إنشاء الفابريقات التى تدار بالآلات. ولم يقتصر الأمر على إنشاء مصانع حربية وبحرية لكن مصر شهدت أيضا ظهور صناعات الغزل والنسيج ومعامل الحديد والنحاس فى نفس الوقت.

من أول الصناعات التى أنشأها محمد على فابريقة الغزل والنسيج فى الخرنفش عام ١٨١٦، حيث استدعى لها فنيين من فلورنسا تخصصوا فى غزل خيوط الحرير لصناعة القطيفة والساتان الخفيف. وتم نقل الأنوال إلى فابريقة أخرى ووضعت محلها مغازل القطن وماكينات صنع الأقمشة القطنية. ثم أنشأت الحكومة بعد ذلك فى بولاق فابريقة «مالطلة» نسبة إلى العدد الكبير من العمال المالطيين الذين كانوا يعملون فيها، وأُعدت

لغزل القطن ونسج أقمشة مختلفة الأنواع. وكان فيها ورشة لإصلاح آلاتها وآلات مصانع الوجهين البحرى والقبلى، إضافة إلى ورشة للنجارة وورشتين للخراطة. وكان بالقرب من الفابريقة ٨٠ ورشة حدادة لصنع مراسى المراكب، ومعمل لسبك الحديد.

وبالقرب من هذه الفابريقة كان هناك مصنعان آخران لغزل القطن هما فابريقة إبراهيم أغا وفابريقة السبتية. وعلى شاطئ النيل بين بولاق وشبرا تم إنشاء مبيضة لتبييض الأقمشة التى تصنع فى الفابريقات بالأساليب العلمية الحديثة فى حينها. وفى حى السيدة زينب تم إنشاء معمل لصنع أمشاط الغزل، إضافة إلى فابريقة نسيج.

وكانت هناك مصانع للجوخ والحرير والحبال ونسيج الصوف والطرابيش، إضافة إلى مصانع الغزل والنسيج فى الوجه البحرى ومصانع الغزل فى الوجه القبلى.

كانت نتيجة التوسع فى صناعة الغزل والنسيج أن بدأ تصدير جزء من القطن المغزول إلى إيطاليا وألمانيا، وتصدير أقمشة إلى سوريا والأناضول، وقلت الواردات من الأقمشة الأجنبية.

لكن العيب الرئيسى فى صناعة الغزل والنسيج تمثلت فى نظام الاحتكار، الذى لا يتفق مع التقدم الصناعى، لذلك تم إغلاق معظم المصانع التى أنشأها محمد على لأن إداراتها كانت فى أيدى موظفى الحكومة. ولم يكن الموظفون أمناء ولا أكفاء لإدارة هذه الصناعات ولا غيورين على عملهم فيها، فأدى سوء الإدارة فى معظم المصانع وضعف الرقابة على الموظفين إلى اضمحلالها. وكم يشبه ذلك فساد البيروقراطية الراهن الذى يعوق كل جوانب التطور. وكانت الحكومة تستورد الفحم والآلات من أوروبا فزادت النفقات وقلت الإيرادات بمرور الزمن مما سبب فى وجود خسائر كبيرة. وأدى إنقاص الجيش والبحرية فى أواخر عهد محمد على إلى تعطيل المصانع المرتبطة بالصناعات الحربية.

وشهد عصر محمد على أيضا تأسيس مصانع نسيج الكتان وسبك الحديد وصناعة ألواح النحاس ومعامل السكر فى الوجه القبلى، هذا غير مصانع الصابون ودبغ الجلود فى رشيد ومصنع للزجاج والصينى وآخر للشمع.

الصناعات البحرية

كان الدافع وراء الاهتمام البالغ بالفنون البحرية تخطيط محمد على لخوض حروب تحتاج إلى نقل جيوش عن طريق البحر. وبدأ تنفيذ النهضة البحرية بتجديد دار الصناعة (الترسانة) فى بولاق أوائل عام ١٨١٠، حيث أمكن إنشاء ١٨ سفينة كاملة العدة خلال ١٠ أشهر لتنطلق فى البحر الأحمر وفى النيل وفى البحر المتوسط.

بعد أن تأكد محمد على من أهمية الأساطيل البحرية. بدأ إنشاء قوة بحرية فى البحر المتوسط بإنشاء أسطول جديد بأيد مصرية حتى لا تكون مصر عالة على البلدان الأوروبية. وفكّر فى إنشاء ترسانة كبرى فى الإسكندرية مستعينا بمهندس فرنسى هو سريزى المهندس البحرى من طولون، وكان ذا خبرة فى بناء السفن والأحواض والترسانات وجاء إلى مصر عام ١٨٢٩, وكانت الترسانة القديمة فى الإسكندرية هى نواة الترسانة الجديدة التى ترأسها الحاج عمر من أهالى الإسكندرية وكان مهندسا بارعا فى فن بناء السفن. وتم بناء الترسانة عام ١٨٣١، ووجد سريزى من ذكاء المصريين وحسن استعدادهم وحذقهم الصناعات عوامل صالحة لبناء الترسانة وإنشاء السفن الحربية وسفن النقل، فتولى تدريبهم. وأصبحت الترسانة، التى بلغ عدد العاملين فيها ٨٠٠٠ عامل، معهدا لتعليم المصريين بناء السفن وترميمها وتجهيزها بما يلزمها من آلات، حتى استغنت مصر عن شراء السفن من الخارج. وتم إنشاء معسكر لتعليم البحارة من الجنود الأعمال البحرية، ومدرسة بحرية لتخريج الضباط البحريين، وكان يتم اختيار بعضهم لإرسالهم إلى فرنسا وإنجلترا لإتمام علومهم وممارسة الفنون البحرية على متن السفن الحربية الأوروبية.

وأدى خريجو المدرسة والبعثات البحرية خدمات جليلة للبحرية المصرية، فتم تعيين بعضهم قباطين للسفن الحربية لقيادتها وتدريب بحارتها وترجم بعضهم مؤلفات عدة عن البحرية.

وفى زيارة للمارشال مارمون لترسانة الإسكندرية عام ١٨٣٤ يقول واصفا كفاءة العمال: إن العربى له حظ عظيم من المقدرة على التقليد تبلغ درجة النبوغ وهو متصف

بالاستقامة والنشاط والغيرة مع المرونة والطاعة. وبهذه الصفات يمكن الوصول إلى تحقيق كل ما يريده الإنسان. وبفضل هذه المزايا صار العمال الذين خرجوا من صفوف الفلاحين أخصائيين فى الفروع والفنون التى توفروا عليها، كلّ فيما خصص له. ولم يقتصر الأمر على تدريبهم على أعمال الخشابين والنجارين والحدادين بل تخصص منهم كثيرون فى أعمال بلغت غاية الدقة، فنجحوا فى صنع آلات بحرية كالبوصلات والنظارات.

وهكذا تتكامل دوائر مشروع النهضة بالاستعانة بالأجانب وتدريب الكوادر الوطنية وإتاحة الفرصة لها لاكتساب خبرة مباشرة فى العمل ومن خلال البعثات، لتقود العمل فى مجالات التحديث.

وكانت نتيجة النهضة الصناعية انتعاش تجارة مصر الخارجية مما أتاح للحكومة أرباحا هائلة لأنها كانت تحتكر التجارة الخارجية كلها. وساعد على التجارة الخارجية إنشاء أسطولين فى البحرين الأحمر والأبيض، إضافة إلى إصلاح ميناء الإسكندرية.

بدأ التحديث فى عصر محمد على مرحلة الانهيار بعد أن تصدت دول أوروبا بشكل مباشر لهذه النهضة تحت ستار خشيتها من أن ينطلق محمد على من مصر بانيا إمبراطورية قد لا يسهل التغلب عليها، فاتفقت إنجلترا والنمسا وروسيا وبروسيا (ألمانيا) على تهديد محمد على إذا لم يقبل شروط الصلح التى وضعتها تركيا. وفى عام ١٨٤١ أملى الحلفاء شروطهم التى أسموها معاهدة لندن على محمد على، وأنذروه بأنه فى حالة الرفض سيرمون الإسكندرية بالقنابل. واضطر محمد على إلى التوقيع على المعاهدة التى منحته حق حكم مصر والسودان هو وذريته لكنها حددت جيشه إلى ١٨ ألفا وحظرت عليه بناء سفن بحرية.

الإدارة

عندما يتحدث المحللون والاقتصاديون والساسة والمؤدلجون عن عصر محمد على فإن الحديث عن الزراعة والصناعة والرى وقبل ذلك العسكرية يستهلك معظم

حديثهم، غير أن هناك من تنبه إلى أن محمد على هو بانى دولة مصر. بمعنى أنه إداريا ومؤسسيا، إن جاز التعبير، كان هو صانع الهيكل الإدارى الأول لمصر، وفى تقديرنا أن هذا الهيكل الإدارى كان هو سفينة الفضاء التى دخلت بها مصر العصر الحديث.

كان من تنبه لهذا هو الباحث المؤرخ الدؤوب الراحل الكبير يونان لبيب رزق، الذى دأب على قراءة التاريخ كل خميس فى جريدة الأهرام حتى رحل، لم ينتبه كثيرون لتلك الحلقات غير أنها كانت جهدا يفوق الوصف، وقد خصص لبيب صفحة عن الإدارة فى عهد محمد على جاء فيها:

فى عدد الأهرام الصادر يوم٣١ مايو١٩٤١ كتب الأستاذ عبد الحليم صبرى الموظف بدار المحفوظات كلمة تحت عنوان تقسيم مصر الإدارى فى عهد محمد على أشار فيها إلى ما اهتمت به حكومة حسين سرى الثانية من إعادة النظر فى تقسيم مصر الإدارى فقال أن مصر كانت تتألف فى أوائل عهد ساكن الجنان المغفور محمد على باشا الكبير من الوجهين البحرى والقبلى كما هى الآن. وكان كل منهما مقسما سبع ولايات سميت فيما بعد مديريات- يضم الأول منهما الشرقية، والمنصورة، والبحيرة، وقليوب، والغربية، والمنوفية والجيزة، يضم الثانى بهناسوية، والأشمونية، ومنفلوط وجرجا، وأطفيح، والواح، وفيوم. وكان الهدف من هذا التقسيم تحصيل الضرائب بطريق الالتزام وأضاف الأستاذ صبرى أن محمد على باشا قد أدخل على هذا النظام تعديلا، فقسم البلاد إلى ثلاثة أقسام هى: الأقاليم البحرية والوسطى الوسطانية والقبلية. وكانت هناك أربع محافظات هى القاهرة والإسكندرية ودمياط والبرلس فأنشأ محافظات السويس وبورسعيد سنة ١٢٢٥ هـ وإسنا وقنا١٢٣٣ هـ وأسوان والقصير١٢٣٤ هـ وجعل لكل منها حاكما يعادل المدير فى الرتبة، ويليه الكاشف، وهو المفتش وكان يجمع بين السلطتين المالية والإدارية. انتهت إلى هنا تلك النبذة التاريخية التى تقدم بها موظف المحفوظات، وهى على أى الأحوال فى حاجة إلى مراجعة،ولتبدأ عملية المراجعة بتلك العلاقة غير الصحية بين القاهرة وبين سائر الأقاليم المصرية، فقد ثبت على مر السنوات أنه تشكل

العاصمة فى مصر رأسا كبير بينما تشكل بقية مدن القطر جسدا نحيلا،، حتى إن أهالى الأقاليم أطلقوا عليها توصيفات خاصة، فمرة يسمونها أم الدنيا، ومرة ثانية يدعونها المحروسة، ومرة ثالثة يكتفون بإطلاق اسم مصر عليها وكأن سائر الأقاليم خارج مصر! ويشى الوصف الذى قدمه أحد الرحالة المغاربة عن القاهرة بهذه الحقيقة، الرحالة اسمه أبو سالم العياشى وقد زار مصر فى القرن السابع عشر، وجاء فى قوله عن القاهرة (وبالجملة فإن مصر أم البلاد شرقا وغربا.. لكثرة أجناس الناس فيها فمن طلب جنسا وجد منه فوق ما يظن فيظن أن غالب أهل البلد كذلك. ويسوق قولة ابن خلدون: ومصر بخلاف ذلك كلما تخيلت فيها فإذا دخلتها وجدتها أكثر من ذلك. ويسجل طبيعة الحياة المدنية لسكان القاهرة: كأن الناس فيها قد حشروا إلى المحشر لا ترى أحدا يسأل عن أحد، كل واحد ساع فيما يرى فيه خلاص نفسه، وأنه لو توانى الإنسان فى مشيه لفاته غرض من كثرة الأغراض وتزاحم الأشغال.لعل تلك المركزية الشديدة الممتدة من أعماق التاريخ هى التى جعلت حكومة الأستانة بعد أن نجحت فى ضم مصر(١٥١٧) تفشل فيما فعلته بالنسبة لسائر ولايات المشرق العربى التى وضعتها تحت حكمها: أن تقسمها إلى مجموعة من الباشويات أو الألوية أو السنجقيات وتملأها برجالها، فقد ظلت مصر فى كل الظروف ولمدة حوالى ثلاثة قرون باشوية واحدة حتى جاءت الحملة الفرنسية إليها فى عام١٧٩٨ وتغير كثير من الأحوال.خلال تلك الفترة ساد نوع من التقسيم الإدارى المحدود.. خمسة أقاليم إدارية كبرى ; الغربية وعاصمتها المحلة الكبرى، المنوفية وعاصمتها منوف، الشرقية وعاصمتها المنصورة، البحيرة وعاصمتها دمنهور وجرجا وعاصمتها جرجا.والملاحظ أن هذه الأقاليم الكبيرة قد انقسمت إلى مجموعة من الأقسام التابعة لها ;الكاشفيات: ثلاث فى مصر السفلى، وسبع فى مصر الوسطى، وأربعة عشر فى مصر العليا، وإن كان العثمانيون قد أجروا تعديلات فى هذه الكاشفيات بين الحين والآخر وفقا لم تقتضيه الحاجة.أما القاهرة فقد بقيت مقر الحكومة والإدارة يشرف عليها الباشا شخصيا ورجال الإدارة كأغا الانكشارية الذى يقوم بالإشراف على الأمن وتنظيم الشئون التموينية، ويشاركه فى عمله هذا ثلاثة من كبار رجال الأمن أطلق عليهم

توصيف الزعماء ; زعيم مصر أو والى مصر، وزعيم بولاق وزعيم مصر القديمة، وأمين الاحتساب .ويقوم بحراسة المدينة ليلا البكوات الخفراء أو رجال القلقات، وهى قوة عسكرية تقوم بحفظ الأمن ولها ثلاثة مراكز، أحدها فى القبة والثانى فى مصر القديمة والثالث فى منطقة الإمام الشافعى.

إذا كان مثل هذا النظام السابق ملائما لدولة ذات طابع إقطاعى مثل الإمبراطورية العثمانية يتنازع السلطة فيها قوى متعددة، أوجاقات الحامية السبعة على رأسها الانكشارية فى القاهرة، والعزبان فى الأقاليم، هذا فضلا عن البكوات المماليك الذين كانوا كثيرا ما يستقووا على رجال الحامية، كما حدث خلال القرن الثامن عشر، هذا بالإضافة إلى العناصر المحلية خاصة من البدو الهوارة الذين اكتسبوا أهمية بالغة أثناء ذات القرن، حتى أن أحدهم وهو الشيخ همام أسس دولة شبه مستقلة فى الصعيد اضطرت العثمانيين أن يرسلوا قوة للقضاء عليها.. نقول أنه إذا كان مثل هذا النظام مقبولا فى ظل الحكم العثمانى، فهو لم يعد مقبولا فى ظل الدولة الحديثة التى أنشأها محمد على خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. لعل أهم ما فعله هذا الباشا والذى دفع إلى إدخاله فى زمرة مؤسسى الدول الحديثة أنه قضى عل كل عناصر اللامركزية التى كانت سائدة بمصر.. أمراء المماليك قضى على قادتهم بضربة واحدة بحادثة القلعة ١٨١١ تخلص بعد ذلك من زعامة المشايخ التى كانت تنافسه فى التمتع بسلطاته المركزية التى تطلع إليها، ومرة أخرى يلقى محمد على لوما من المؤرخين على ما فعله بهؤلاء الذين أتوا به إلى سدة الحكم، على رأسهم نقيب الأشراف الشيخ عمر مكرم، غير أننا نلاحظ أن هؤلاء، باستثناءات قليلة، ممثلة فى الشيخ حسن العطار وتلميذه رفاعة رافع الطهطاوى، كانوا من العناصر المحافظة، وكان يمكن أن يقفوا حجر عثرة فى طريق سياسة التحديث التى كان يسعى إليها هذا الباشا الطموح.الأهم من ذلك كان ما فعله هذا الباشا المدهش من قص الأجنحة الاقتصادية للنظام الإقطاعى القديم ممثلة فى نظام الالتزام، حيث صادر زمامات الالتزام فى مقابل تعويضات محدودة لأصحابها وحول الأراضى الزراعية إلى أراضى أثر تتملكها الحكومة وتقوم

باستغلالها على أسس اقتصادية رأسمالية، حتى لو كانت رأسمالية الدولة، وهو بذلك أضفى على حكومته مصدرين من مصادر القوة.. المال الذى حصل عليه من عائد استغلال الأرض، وإضعاف الملتزمين القدامى الذين لم يعد لهم فى العير أو النفير، ويروى الجبرتى أنه عندما حاول بعض هؤلاء تشغيل الفلاحين ردوا عليهم بالقول: إحنا صرنا فلاحين الباشا.وقد بدأت التغييرات فى الإدارة المحلية بعد عام١٨٢٦ حيث قسمت مصر إلى أربعة وعشرين قسما يضم الوجه البحرى أربعة عشرة والوجه القبلى عشرة، وبعد ثلاث سنوات ظهر لأول مرة نظام المديرية التى تكونت من تجميع عدد من المقاطعات تحت رئاسة المدير، وتتالى ظهور هذا النوع من الوحدات الإدارية خلال السنوات التالية حتى بلغت عام١٨٣٤ ثمانى مديريات ; بنى سويف والمنيا، الغربية، الشرقية، المنوفية، البحيرة، الجيزة، أسيوط وجرجا وأخيرا قنا وأسوان.الأهم طبعا من التقسيم كان ممارسة حكومة القاهرة لسلطتها المركزية على الأقاليم على نحو لا يسمح بحدوث شاردة ولا واردة دون علمها، وذلك من خلال جهاز إدارى معقد لم يعرفه العصر العثمانى.على رأس هذا الجهاز(المدير) وكان مسئولا عن تنفيذ أوامر الباشا خاصة فيما يتصل بجباية الضرائب والمتأخرات والمحافظة على الجسور والترع والإشراف على المصانع والترع. يليه (المأمور) وكان يضطلع بالمسئولية القصوى فى كل الأعمال فيرسل المفتشين للاطمئنان على حسن سير العملية الزراعية، وينصح بزراعة الأشجار قرب المجارى المائية، ويقوم بجولات تفتيشية ويستمع إلى الشكاوى ضد الموظفين ويعاقب بعضهم بالحبس حسب القواعد، كما كان يتأكد من تحصيل وإحضار المحاصيل إلى شون الحكومة، وكان من مهام المأمور البحث عن الفلاحين الذين هجروا أراضيه فرارا من الضرائب أو الجندية. ولا شك أن يد الحكومة المركزية كانت ثقيلة جدا على الفلاحين من خلال هؤلاء الموظفين ورجالهم، فكانوا يقومون بإعداد الناس للسخرة Corvee التى كان معمولا فيها حتى ذلك الوقت، وكانوا يقدمون أيضا الجنود للجيش والأسطول، ويساعدون الموظفين المختصين بالصناعات المحلية. وكما تقول هيلين ريفلين كان موظفو الناحية يتمتعون تقريبا

بسلطة مطلقة على الفلاحين. وإذا لاحظنا أن موظفى الباشا كانوا يتمتعون بسلطات واسعة وأنهم كانوا يلقون أشد الجزاءات فى حالة التقصير، الأمر الذى يبدأ بالعزل ويصل إلى العقوبات البدنية كالجلد أو حتى السجن، مما جعل النظام القائم أقرب إلى النظام الحديدى، الأمر الذى يصعب معه القول أن الأقاليم المصرية تمتعت بدرجة من الحكم الذاتى، حتى فى الإدارة، وما كان مسموحا للموظفين هامش محدود يتحركون فيه من خلال اجتهادات شخصية، وليس أكثر، ويلقى سوء المصير إذا ما حاول أن يجتهد ولو قليلا وخرج عن هذا الهامش، فحكومة القاهرة واقفة له بالمرصاد وتبدو هامشية الحكم المحلى مما نلاحظه أنه سواء فى عصر محمد على أو بعده، كان يتم انتقاء المديرين من الطبقة الحاكمة فى القاهرة من أبناء الترك، وكان هؤلاء يعلمون أنهم فى مهام مؤقتة، ويمارسون عملهم من قبيل الوجاهة، فمنصب المدير كان يؤهلهم للحصول على منصب أعلى، وربما فى الوزارة. وظل الحال على ذلك طالما ظلت الطبقة التركية، أو منحدرة من أصول تركية تتحكم فى البلاد، ثم حدث بعد ثورة١٩٥٢ بعد أن اختفت الطبقات التركية الحاكمة واختفى معها أصحاب الطرابيش الحمراء رمزا للأرستقراطية القديمة وحل محلهم أبناء الطبقة الوسطى من المصريين من الضباط أصحاب الكابات الصفراء.. صحيح أنه يحدث أحيانا أن يتم اختيار المحافظ، بعد أن تحولت المديريات إلى محافظات، من بعض العناصر المدنية، خاصة من الحقوقيين، غير أن الغالبية العظمى من هؤلاء ظلت من أصحاب الكابات الصفراء حتى لو كانوا قد خلعوها!

آخر صورة قدمت للأقسام الإدارية المصرية فى عهد الملك فؤاد يضمنها تقويم١٩٣٦ الذى كانت تصدره الحكومة المصرية، وقد تضمن خمس محافظات: القاهرة والإسكندرية ودمياط وبورسعيد والإسماعيلية والسويس، هذا فضلا عن ست مديريات فى الوجه البحرى ; البحيرة ومركزها دمنهور، الغربية ومركزها بندر طنطا، الدقهلية ومركزها بندر المنصورة، أما الشرقية فمركزها بندر الزقازيق، بعدها المنوفية يليها لقليوبية، أما فى الوجه القبلى فقد كانت هناك مديرية الجيزة تليها مديرية

الفيوم تأتى بعدها مديريات بنى سويف فالمنيا لتأتى فى ذيل القائمة فى أقصى الجنوب مديريات جرجا وقنا وأسوان.كان هذا هو الحال عندما كانت حكومة حسين سرى فى الحكم فى آخر مايو ١٩٤١ وكان واضحا منذ البداية عزوفها عن التورط فى قضايا الحرب الساخنة، وأخذت تبحث عن القضايا غير المثيرة للجدل، وكان منها موضوع إعادة تقسيم مصر إداريا، أو على الأقل إدخال تعديلات على ما هو قائم.

أول الأخبار عن الموضوع جاءت فى أعداد الأهرام فى ذلك العام تحت عنوان بارز إعادة تقسيم المملكة المصرية على أساس جديد نبهت فيه إلى أن حسين سرى باشا تقدم بمذكرة تقضى تقسيما جديدا يتناول النواحى الإدارية والمالية والقضائية فى المديريات. وتضيف الجريدة من عندياتها أن هذا الموضوع كان قد تم بحثه منذ سنوات، ثم طوى. وذكر الرجل أن مصدر التفكير فى جل هذا الوضع أن التقسيم القائم وضع منذ وقت طويل أيام كان عدد السكان قليلا ولم تكن الحالة العمرانية قد بلغت من التقدم ما بلغته وقتئذ والمفهوم أن التقسيم الجديد سيترتب عليه زياة عدة مديريات، وهناك اقتراح يرمى إلى جعل مديرية الغربية مديريتين نظرا لاتساع مساحتها والزيادة فى عدد السكان وتكبد الساكنين منهم فى الأطراف مشقة السفر البعيد إلى المركز الرئيسى للقضاء والإدارة فيها.ونتوقف هنا لنسجل ملاحظتين; الأولى أن طنطا لم تكن لها قيمة تذكر قبل أن تصبح بندر الغربية وكانت المحلة الكبرى هى بندر تلك المديرية بحكم أهميتها الاقتصادية، غير أنها بعد أن مدت الخطوط الحديدية فى الدلتا اكتسبت طنطا أهمية اقتصادية بالغة باعتبارها المركز الرئيسى لهذه الخطوط، وتبع ذلك أن أصبحت مركزا اقتصاديا بالغ الأهمية فى تجارة القطن وغيره من المحاصيل الزراعية مما أهلها لأن تتولى مركز القيادة الاقتصادية فى الدلتا، بل أكثر من ذلك أنها لما ضاقت على هذا النشاط المتعدد الجنوب فكر المسئولون فى تحويلها إلى مديريتين، وهو ما حدث فعلا فيما بعد حين خرجت منها مديرية الفؤادية، نسبة إلى الملك فؤاد، ولم تلبث أن تغير اسمها إلى كفر الشيخ، وهى التسمية التى تحتفظ بها حتى يومنا هذا. وفى مذكرة أخرى وضعها حسين سرى أضاف مزيدا

من الأسباب التى تدفع الحكومة إلى إعادة تقسم الإدارة المحلية المصرية، منها أنه قد يحدث أحيانا أن تتبع بعض أجزاء من إحدى المديريات . من الاختصاص . محافظة تجاورها دون أن يكون هناك مبرر لهذه التبعية سوى خط التقسيم الذى تقرر منذ أكثر من عشر سنوات.ويضيف مندوب الأهرام انه قد تشكلت لجنة على مستوى عال لبحث الموضوع، وقد صرح أحد أعضائها أن الغرض من التعديل المنوى اتخاذه هو تيسير الانتقال والتعامل للجمهور وللموظفين من النواحى الإدارية والقضائية والصحية، وكذلك من ناحية شؤون الرى.وضرب الرجل مثلا على ذلك بمركز ملوى فهو تابع لمديرية أسيوط، ولكنه أقرب إلى مديرية المنيا، كذلك مركز فارسكور فإنه أقرب إلى دمياط منه إلى المنصورة، وشربين أقرب إلى الدقهلية منه إلى الغربية. وختم عضو اللجنة تصريحه لمندوب الأهرام أن التعديل قد يتناول مركزا بأكمله، ولم يقتصر على ضم مناطق من مركز أو مديرية إلى مراكز ومديريات أخرى حسب ما تقضى به المصلحة على ضوء ما مضى من التجارب فى هذا الشأن.ومضت اللجنة قدما فى عملها على هذه الأسس وتوالت الأخبار عن طبيعة هذه الأعمال، وقد وضعت عددا من القواعد تتبعها فى عملها كان منها تعريف محدد للمدينة ;فهى إحدى عواصم المحافظات أو عواصم المديريات، وكل بلدة مقررة على مبانيها ضرائب أملاك ويكون بها مجلس بلدى أو مجلس محلى أما البلاد التى بها مجالس قروية فهى بالضرورة قرى إلى أن يرقى مجلسها إلى مجلس محلى، على أن يعد من المدن بعض البلاد التى تقوم فيها شركات كبرى مقام المجالس المحلية فى أعمال التنظيم كالإسماعيلية. فضلا عن ذلك فقد كانت هناك تعليمات وزير الداخلية التى كان على اللجنة اتباعها: الوقوف على ما يلزم من تعداد السكان والزمام ودرجة العمران على أن يراعى فى ذلك تعادل التوزيع من حيث عدد السكان والمساحة وحالة الأمن، وما إذا كان هناك ما يدعو إلى فصل بعض المراكز أو البلاد، أو تعديل الحدود بين مديرية وأخرى.كما طالب موافاة الوزارة بحالة القرى التى تتبع المحافظات فى بعض الأعمال كالضبط والصحة، فى حين أنها تتبع المديريات فى الأعمال الإدارية والمالية. وعلى ضوء هذه القاعدة والتعليمات أعادت

اللجنة النظر فى التقسيم الخاص بمديرية الشرقية, وقررت إنشاء مركز جديد بناحية أبو كبير يتألف من٣١ بلدة منها١٤ بلدة من بلاد مركز كفر صقر، و١٣ من بلاد مركز ههيا، و٤ من مركز فاقوس، على أن تفصل مدينة القنطرة غرب من مركز فاقوس وتلحق بمحافظة القناة. وسارت اللجنة قدما فى عملية الفصل والإلحاق لأسباب وجيهة ارتأتها، فهى قد وافقت على فصل نواحى كفر الزقازيق قبلى وكفر عبد النبى وكفر على غالى من مركز منيا القمح وضمها إلى مركز شبين القناطر، وفصل جميع بلاد مركز ميت غمر وإلحاقها بمركز منيا القمح لقربها منها,ويصبح هذا المركز الأخير مؤلفا من٨٦ بلدة. وفصل تسع من بلاد مركز أبو حماد وإلحاقها بقسم الإسماعيلية بمحافظة القناة وبلدة الجناين من هذا المركز وإلحاقها نهائيا بمحافظة السويس.وكان قرار اللجنة بإلغاء محافظة دمياط من أكثر ما أثار الجدل، وقد اعتمدت فى ذلك على أن دائرتها من الضيق بحيث لا يصلح بقاؤها على أساس النظام القائم الذى يكلف الدولة نفقات لا مبرر لها، وقد رؤى أن تضم إلى مديرية الدقهلية، وكان أول المحتجين على ذلك مراسل الأهرام فى المدينة الذى ذكر أنه لا يجوز جعل هذه المحافظة مركزا، وذلك بالنظر إلى أهمية موقعها وكثرة عدد سكانها وتقدم الصناعات فيها، هذا إلى ما تضمه من من نشآت عامة ومعاهد تعليم ودور صناعات.غير أنه لم يمض وقت طويل حتى انتهى الجدل بعد انتهاء العمر الافتراضى لوزارة سرى الثانية بعد حادثة٤ فبراير١٩٤٢ الشهيرة، ولم يعد ثمة سبب لشغل الناس بأمور قليلة الأهمية مثل تلك الأمور التى انشغلت بها اللجنة خلال فترة انعقادها التى لم تتجاوز شهورا قليلة.

■■■

4

حـــروب دولة البــاشــا

قيام وانهيار آل محمد على



معـارك مع الوهابيـة

■■

نظـرة عامـة

عندما بدأت ولاية محمد على على مصر كانت لديه مهمة لا تقل عن مهمة البناء من الداخل ويبدو أن قدر مصر أن يظل نموها فى الداخل محكوما ومرتبطا بمدى حفاظها على أمنها وامتدادها فى الخارج.

لذلك وجد محمد على نفسه فى أتون معارك متعددة فى جهات مختلفة، وفى تقديرنا فإن محمد على لم يكن يسعى إلى تلك المعارك بقدر ما جرته إليها الظروف التاريخية المحيطة، سواء للحفاظ على علاقته بالباب العالى فى تركيا، أو مواجهته فيما بعد كما سنرى، أو لمواجهة قوى أخرى صاعدة ومنافسة على بسط السيطرة على المنطقة وعلى موارد التجارة، ويمكن إجمال حروب محمد على كالتالى:

(أ) حروبه فى الجزيرة العربية : ١٨١١ ـ ١٨١٨ م: كلف السلطان العثمانى محمد على بالقضاء على حركة الوهابيين فى شبه الجزيرة العربية فأرسل ابنه طوسون عام ١٨١١ فاستولى على الحجاز، ثم وصل أخوه إبراهيم الذى دخل إلى الدرعية وهدمها وبعث بالزعيم السعودى عبد الله إلى الآستانة، وبسط نفوذه على شبه جزيرة العرب، فتدخلت إنجلترا وأنزلت قواتها فى عدن عام ١٨٣٩ وأجبرته على سحب قواته من شبه الجزيرة العربية.

(ب) احتلال السودان ١٨٢٠ ـ ١٨٢٣ م: أرسل محمد على ابنه اسماعيل على رأس حملة عسكرية عام ١٨٢٠ إلى السودان لاستخراج الذهب والاستعانة بالسودانيين فى جيشه.

فتح اسماعيل مدينة بربر ثم شندى ثم سنار، إلاّ أن ابنه قتل فى إحدى المعارك فأرسل صهره محمد الدفتردار الذى أكمل فتح السودان، غير أن أهداف الحملة لم تتحقق.

(ج) حملة محمد على على بلاد الشام ١٨٣١ ـ ١٨٤١ م: رغب محمد على بضم بلاد الشام إلى دولته للاستفادة من خيراتها، فأرسل ابنه إبراهيم باشا على رأس حملة برية وبحرية كبيرة فاستولى على غزة ويافا وعكا، وفتح القدس وطرابلس وبيروت ودخل دمشق دون مقاومة وهزم القوات العثمانية عند بحيرة قطينة قرب حمص. ووصل إبراهيم إلى حدود الأناضول وانتصر على الجيش العثمانى فى معركة قونية عام ١٨٣٢ وأصبح طريقه إلى الآستانة مفتوحاً فتدخلت الدول الأوروبية لوضع حد له. فضغطت فرنسا وإنكلترا على السلطان لإيقاف القتال وعقدت معه اتفاقية كوتاهية عام ١٨٣٣، وفيها منح محمد على ولاية سوريا وإقليم أضنة. عمل إبراهيم باشا على تحسين الأوضاع فى سوريا بشكل عام، إلا أن الشعب قد استاء من الاحتكار المصرى للبضاعة السورية فقامت ثورات مختلفة فى بعض المدن السورية (دمشق حلب. جبال اللاذقية ـ جبل لبنان) وقد قمع إبراهيم باشا هذه الثورات بأساليب عنيفة أما السلطان العثمانى فكان ينتظر الفرصة المناسبة للاقتصاص من جيش محمد على فوجه جيشه لدخول سوريا من جهة الشمال، فجرت بينهما معركة عنتاب عام ١٨٣٩ انهزم فيها الجيش العثمانى، فتدخلت الدول الأوروبية مجدداً وفرضت على السلطان العثمانى وعلى محمد على توقيع اتفاقية لندن عام ١٨٤١ م التى نصت على: منح محمد على ولاية مصر وراثية وينتقل حكمها إلى أكبر أفراد أسرته سنا. أن يحكم ولاية عكا مدى حياته. تسرى قوانين الدولة العثمانية على مصر باعتبارها ولاية عثمانية. يدفع محمد على للسلطان العثمانى غرامة قدرها ٤٠٠ ألف جنيه

وبذلك خابت آمال محمد على بتكوين دولة مستقلة تشمل بعض الأقطار العربية.

الوهابيــــة

تعود الوهابية أو السلفية إلى محمد بن عبد الوهاب ١٧٠٣ ـ ١٧٩٢ والوهابية تمثل الدعوة لممارسة الأسلام بنفس الطريقة التى مارسها الأسلاف فى بدء الإسلام والوهابية تمثل حوالى ٧٣٪ من سكان السعودية.

الحقبة الوهابية الأولى

بدء محمد بن عبد الوهاب دعوته ١٧٢١ واستطاع أن يكسب فى صفه الأميرمحمد بن سعود أمير الدرعية القريبة من الرياض وهنا تبلورت كدعوة دينية ونفس الوقت كحركة مسلحة لتوحيد القبائل المختلفة تحت ظل التعاليم الوهابية التى وجدت لها بيئة صالحة ومرحبة وسط القبائل البدوية البسيطة التى تتطلع لاستعادة أمجاد الماضى، فى عام ١٧٤٤ تم الاتفاق على أن يقود بن عبد الوهاب الجانب الدينى ويقوم بن سعود بالجانب العسكرى وأستطاعت الحركة أن تتحكم فى نجد بالكامل التى كانت نظرياً تحت حكم السلطنة العثمانية الضعيفة وبذلك أستطاعت أن تقيم حقبة بن سعود الأولى وبعدها قاموا بالسيطرة على المدينة ومكة. ولكن استطاع أمير الحجازمسعود بن سعيد استعادة المدينة ومكة مرة أخرى وطرد الوهابيين إلى نجد وهنا قام الوهابيين عن طريق فتوى لابن عبد الوهاب بقطع طريق الحج إلى مكة والمدينة وبعدها دارت عدة معارك حتى أستطاع الوهابيون السيطرة على مكة والمدينة مرة أخرى عام ١٨٠٥ واستمرت هذه السيطرة لمدة سبعة أعوام تم فيها منع المصريين والسوريين من الحج على أساس أنهم من غير المؤمنين وأنهم ليسوا مسلمون حقيقيين.

وفى عام ١٨١١سمح الباب العالى لمحمد على باشا حاكم مصر بإرسال حملة لمحاربة الوهابيين الذى انتصر عليهم واستعاد المدينة ومكة تحت الحكم المصرى وبالتالى العثمانى وفى١٨١٦ ارسل محمد على ابنه إبراهيم باشا بجيش إلى نجد معقل الوهابيين ودارت معارك عديدة انتهت بهزيمة الأمير عبدالله بن سعود عام ١٨١٨ وفرض السيطرة المصرية.

تفاصيل الصراع

لما علم السطان بقوته وإمساكه بزمام الأمور بالبلاد كان كل همه الاستقلال بحكم مصر وإرضاء الباب العالى وإثبات كفاءته. فكلفه السلطان بحرب الوهابيين بنجد بالسعودية عام١٨١١ فأرسل تجريدة عسكريا من جيش قوامه ٨٠٠٠ عسكرى بما فيهم ٢٠٠٠ فارس بقيادة ابنه طوسون باشا. وكان عمره ١٦ سنة وحارب الوهابيين

فيما عرف بالحرب الوهابية المصرية. وواجهت حملة محمد على مقاومة شديدة فى ممر جديدة قرب منطقة الصفرة وتقهقرجيشه لينبع وخلال العام التالى استطاع طوسون باشا السيطرة على المدينة المنورة بعد حصار طويل لها .واستولى بعدها على جدة ومكة. وقد هزم الوهابيين،وقبض على قائد التمرد. وقد ألم بمحمد على باشا حظ عاثر. وقرر القيادة للحرب بنفسه. وترك مصر فى صيف ١٨١٣ .وتوجه للجزيرة العربية. وخلف ابنه الثانى إبراهيم ليرعى شئون البلاد .وفى المقابل واجه صعوبات جمة هناك بسبب طبيعة بلاد الحجاز فكانت الحرب مرهقة لقواته وسهلة بالنسبة للعدو الذى ألف الحرب فوق أرضه. فنفى شريف مكة وقتل قائد الوهابيين سعود الثانى وعقد بعدها معاهدة مع خلفه عبد الله عام ١٨١٥ ولما سمع بهروب نابليون من جزيرة إلبا، فخاف على مصر من الغزو الفرنسى أو البريطانى. فعاد لمصر عن طريق القصير، ثم قنا فوصل القاهرة عاصمته فى يوم ذكرى معركة واترلو. ومما عجل بوصوله علمه أن الأتراك الذين أيدهم فى شبه الجزيرة العربية يخططون على عجل لغزو مصر بجيش عثمانى. وعاد طوسون للقاهرة عندما سمع بالثورة العسكرية بالقاهرة ومات ١٨١٦فى سن العشرين. لكن محمد على لم يكن مقتنعا بالمعاهدة مع الوهابيين الذين لم يلتزموا ببعض بنودها. فقرر إرسال جيش ثان للحجاز عساكره يتم يزون بالقسوة. وكانت هذه الحملة تحت قيادة ابنه الأكبر إبراهيم باشا وتوجهت فى خريف ١٨١٦وكانت حربا طويلة وشاقة. واستطاع إبراهيم باشا الاستيلاء على الدرعية عاصمة الوهابين عام ١٨١٨ وأسر رئيسهم عبد الله وأرسله مع ثروته وسكرتيره لإستانبول (الآستانة) رغم وعود إبراهيم باشا بسلامته. وتوسط محمد على إلا أنه أعدم هناك. وفى نهاية عام ١٨١٩ عاد إبراهيم باشا للقاهرة بعدما أخمد ثورة الوهابيين.

نتائج مهمة

كان من أهم نتائج هذه الحرب مع الوهابية هو لفت الانتباه إلى أول جيش نظامى فى المنطقة. والذى غير العقيدة القتالية بإحداث التوازن العسكرى ولاسيما بعد فتحه للسودان. وكان أكبر تاجرمورد للعبيد للجيوش العالمية والسلطنة والجيش.

وكانت نظريته أن أولاد البلد سيحافظون عليها .كما أن جيشه كان يتكون من فرسان ومدفعية ومشاة وبحرية وفرسان من القوقاز والمشاة من السودانيين يجيدون الرمح.فلقد بدأ محمد على بتكوين أول جيش نظامى فى مصر الحديثة يضم الشركس والألبانيين والسودانيين والمصريين. وكان بداية العسكرية المصرية ومما ساعده فى تكوين هذا الجيش أن أشرف عليه الخبراء الفرنسيون بعدما حل الجيش الفرنسى فى أعقاب هزيمة نابليون فى وترلوا وروسيا. وإنشاء الترسانة البحرية بالقاهرة والإسكندرية.

وكان من قوة سمعة هذا الجيش بعد انتصاره فى معاركه ضد الوهابية أن أصبح مطلوبا للدخول فى تحالفات عسكرية وهناك وثيقة مهمة تكشف عن ذلك، فبينما كانت قوات إبراهيم باشا تسيطر على الدرعية وتزحف صوب الأحساء، كانت حكومة الهند البريطانية تناقش تغير الخريطة السياسية والاستراتيجية لحوض الخليج العربى على ضوء تلك التطورات. كما كانت حكومة الهند البريطانية تدبر أمر حملة جديدة إلى الخليج للقضاء على قدرات المشيخات العربية البحرية، وخاصة القواسم، التى كانت تنقض على السفن التابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية وتستولى على محتوياتها. وكانت مثل تلك العمليات قد تزايدت بشكل كبير خلال العقدين الأولين من القرن التاسع عشر.

وطرأت على ذهن حاكم عام الهند، وارن هَستِنجز، فكرة تعاون عسكرى بين حكومة الهند البريطانية ومصر (محمد على باشا) ضد القواسم بالذات على اعتبار أنهم يمثلون عدواً مشتركاً للطرفين.

يقول نص الرسالة:

من إيرل هَستنكز إلى إبراهيم باشا

كتبت فى ٢ يناير ١٨١٩

لقد اغتبطت للأنباء التى نقلت إلى عن الانتصار الرائع للقوات العثمانية التى تحت قيادتكم المباشرة، وإننى لأنتهز فرصة وصول أنباء سقوط

الدرعية إلى لأهنئكم على شجاعتكم الفذة وحكمتكم المتميزة وقيادتكم التى بمقتضاها زحف جيشكم فى وقت مبكر وبكل مقومات الشرف. فكانت الهزيمة الكاملة، وسقوط قوة وصلت بسرعة إلى مكانة عالية بشكل غير عادى هى النتيجة التى يتباهى بها.

ولقد كتب لسموكم فى النهاية أن تخضعوهم.

إن المنطلق لتقديم تهانئى ولأن ألتمس إخلاصى لكم ليوجد من حسن حظى فى ملابسات الاتصالات الودية مع والدكم المبجل محمد على باشا والى مصر، وأن مشاعر الاحترام والاعتبار التى أكنها لسموه، وأن صداقته التى لا تتغير ونياته القلبية نحو الحكومة البريطانية وكلها تؤخذ على أنها تقوى وتدعم ليقودنى بالضرورة لأن أتمتع بنعمة ما نتحصل عليه رعايته.

ولكننى أؤكد لكم أن امتنانى قد تدفق لأن تهانئى بمناسبة كان فيها مجد ابنه وخليفته فى القيادة أمراً شديد الإرتباط.

ولقد أُبلغت أن سعادتكم تتجهون الآن إلى استخدام قواتكم المظفرة لإرغام شيوخ آخرين متصلبين لطاعتكم، وخاصة القواسم.

ومن المحتمل أنه بلغ مسامعكم أن عمليات القرصنة الجريئة والنهب التى ارتكبت بواسطة القبيلة المذكورة فى الخليج الفارسى، والأعمال العدوانية القاسية التى اقترفت بواسطة طواقمها، قد وضعتهم فى حالة عداء مع الحكومة البريطانية.

زمن ثم، كنا نفكر فى اتخاذ اجراءات لتأديبهم فى وقت مبكر. وقد طرحت احتمالية لهدف سعادتكم أن نتلاحم بواسطة عمل مشترك من جانب الحكومتين.

إن قيام تعاون مشترك بين الجيش الذى تتولون قيادته، والجيش والقوة البحرية اللتان تقدمهما الحكومة البريطانية ليبدو لى هو الطريق المعبد والمقبول.

وإذا ما تفضلتم سعادتكم وصدقتم على هذا الإجراء، بإننى أحيل سعادتكم إلى السير/ إيفان نيبيان، حاكم بومباى، الذى هو على بينة من مشاعرى إزاء هذه النقطة. والذى ستكون معه الاتصالات بشأن شكل هذا التعاون وبشأن الفترة التى ستكون مناسبة للتنفيذ. وإننى لألتمس بيكم أن تنظر بعين الاعتبار لذلك على نحو ما انظر أنا إليه.

وإذا ما حظيت الخطة التى اقترحتها على سعادتكم بتبنيكم لها، فبكل وبشكل مناسب وملائم للتعاون بين سعادتكم، أو ضباطكم المفوضين بصلاحيات كافية، والسادة من قبل الحكومة البريطانية مزودين بالسلطات الشاملة والتعليمات من صاحب السعادة حاكم بومباى.

وكمبادرة شخصية لتقديركم واعتباركم فإننى أرجو التفضل بقبول سيف سيبعث إليكم من كلتا مع هذا الخطاب مقدماً لكم من حاكم بومباى.

●●●

ولكن كلاً من الحكومتين كان لها سياستها الخاصة بها والمختلفة اختلافاً جوهرياً عن الأخرى.

كانت عين حكومة الهند البريطانية على الخليج بينما كانت عين محمد على على البحر الأحمر.

كان كل منهما أقل اهتماماً بقلب الجزيرة العربية حينذاك.

ولكن كانت حكومة الهند البريطانية ترى أن تعاون حكومة إسلامية مثل مصر محمد على معها لتوجيه ضربة قاضية للقواسم هو الأكثر صواباً حيث إن ذلك يحول مصر فى شرق الجزيرة إلى حليف لبريطانيا، ونظراً لأن قدرات مصر حينذاك كانت برية وليست بحرية، بإن محصلة هذا التعاون ستكون لصالح بريطانيا فى منطقة الخليج.

وفعلاً دبجت حكومة الهند البريطانية خطاباً من هستنجز إلى محمد على باشا يغريه بالتعاون العسكرى المشترك ضد القواسم، ولكن حامل هذه الرسالة وصل إلى شرق الجزيرة العربية فى الوقت الذى كان فيه إبراهيم باشا قد غادر الأحساء، وعبر بمعظم قواته الجزيرة العربية إلى الحجاز. ومنها غادر إبراهيم باشا الحجاز دون أن يعطى جواباً لدعوة حكومة الهند البريطانية لمشاركتها فى حملتها ضد القواسم. فكان أن تحركت الحملة الإنجليزية إلى الخليج، وقد شاركت فيها سلطنة عمان، لتوجيه ضربة قاضية للقدرات البحرية لمشيخات الساحل (المتصالح) بين الأحساء ومسقط عام ١٨١٩ م.

أما محمد على فقد وجد نفسه محط آمال السلطان العثمانى لتوجيه الضربات العسكرية ضد المتمردين على الحكم العثمانى فى كريت وفى اليونان (المورة) وفى البلقان. بل وكانت مصر محمد على أمل السلطان فى أن يبعث محمد على باشا بقواته لإنقاذ بغداد من الحصار الذى ضربه الفرس عليها. ونلاحظ فى رسالة محمد على باشا إلى ابنه إبراهيم باشا، الذى كان يقود جيشاً لفتح السودان، أن محمد على ذكر لابنه تكليفات السلطان لمحمد على بالقيام بتلك المهام الإنقاذية للدولة العثمانية دون أن يذكر من بينها مسئولية الدولة أو مسئوليته فى إنقاذ الخليج ومشيخاته من التسلط البريطانى فى الخليج، حتى يمكننا القول إما:

أن الخليج كان يمثل حينذاك أحد الأطراف الأقل أهمية عن بقاع الدولة الأخرى الأمر الذى أعطى الفرص الواسعة للسيطرة البريطانية على تلك المنطقة.

محمد على، الذى خُبّر بأس بريطانيا فى حملتى النيل (على نابليون) وفريزر، قد أعلم منها مباشرة عن اهتمامها بالخليج، لذلك فقد أراد محمد على تفادى أى فرصة للاحتكاك مع بريطانيا.

وفى الحقيقة إن محمد على قد تعرض لمحاولات عديدة لاستغلال قوته سواء من قبل فرنسا التى أرادت منه التعاون معها لاحتلال الجزائر أو من قبل الدولة العثمانية التى كلفته بالحروب التالية:فى شبه الجزيرة العربية،فى اليونان.

عودة الوهابية وتطورات خطيرة

رغم الحكم المصرى بدأت الوهابية فى الظهور والانتشار مرة أخرى عام١٨٢٤ وحتى وفاة الأمير فيصل عام ١٨٦٥ الذى خلفه ابنه عبدالله الذى أطاح به أخيه سعود كبداية لصراعات داخل العائلة السعودية انتهت بسيطرة عائلة جديدة هى عائلة رشيد مما دفع بعائلة سعود إلى الهرب والأحتماء بقبائل مورا البدوية بالكويت.

على أن هناك تطورا مهما فى علاقة محمد على بالوهابية يكشفه هروب الإمام فيصل من معتقله بمصر، ونود الإشارة إلى أن الاهتمام بتفاصيل قصة خروج الإمام فيصل بن تركى من معتقله بمصر عام ١٢٥٩هـ (١٨٤٣م) للمرة الثانية من أهم ما يعنيه التاريخ عموماً، غير أن الأكثر أهميةً منه هو دراسة الأجواء السياسية والاجتماعية التى كانت تحيط بذلك المفصل التاريخى.. حيث أشارت كل التقارير الغربية، خاصة تقارير السفارة البريطانية، إلى أن عباس باشا - حفيد محمد على - لعب دوراً أساسياً فى عملية تسهيل هروب الإمام فيصل للمرة الثانية من معتقله بمصر يومئذ، إلا أن الباحث المتمكن يتوقع نتيجة لهذا الحدث أن شيئاً ما قد صار فعلاً، أو أن أشياء كثيرة فى طريقها للحدوث!! وبحسب الكاتب عبد الرحمن الرويشد فإن ما يساعد الباحث على هذا الاستنتاج أن سياسة محمد على باشا فى تلك الآونة قد تحولت إلى صدام وخلاف مع العثمانيين، كما تغير إدراكه من خلال ما يتلقاه من تقارير متعددة ومتنوعة عن الجزيرة العربية، ولا سيما ما تلقاه من ابنه (إبراهيم باشا) فى تعامله مع حروب الجزيرة العرية وشعبها الذى فهم منه أن تصوره عن الدولة السعودية ومذاهبها وقادتها كان زيفاً واستجابةً للتحريفات ضدهم أعدائهم المحليين، وخصومهم الأقربين والأبعدين، وليس نقلاً للحقيقة كما هى على أرض الواقع. كما اقتنع محد على باشا بتمسك النجديين بعقيدتهم الإسلامية وبقيادتهم، ولا سيما البيت السعودى، خاصة أنه قرر نزع عباءة العثمانيين، وأصبح يتحين الفرصة للانقضاض على جنوب الجزيرة العربية والخليج، كما أصبح يشكل هاجساً للنفوذ البريطانى فى عدن والبحرين والكويت. وفى تلك الأثناء بدأت الاستخبارات الأوربية وخاصة البريطانية والفرنسية

تتحدث عن أطماع والى مصر. ولأن محمد على باشا أراد انتهاج سياسة جديدة تمكنه - تبعاً لطموحاته - من إيجاد قوة محلية فى وسط الجزيرة العربية يعتمد عليها ويستعين بها فى تحقيق أهدافه، لجأ إلى البيت السعودى الذى ساهم فى السابق فى تدميره، لكنه اليوم سيكون أقل تشدداً معه، وسيعمل على مصالحته. كما أدرك محمد على باشا بدهائه السياسى أن تلك الجزيرة الوعرة المسالك لن تستجيب له إلا من خلال قيادة من أصلاب ذلك البيت، فاختار (خالد بن سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود) المقيم فى مصر لتلك المهمة، لكن خالداً على الرغم مما لديه من علم وفهم وثقافة جيدة، ساير محمد على باشا فترة ثم أدرك أن الحكم قد خرج من يده، ولن يعود إليه أبداً، فغادر ورضى من الغنيمة بالإياب، وشاء الله له أن يموت فى مكة المكرمة بعد أن يئس من الحكم ولم يظفر به!. إن المدبر للهرب هذه المرة سيكون عباس بن طوسون حفيد محمد على باشا، الذى كانت تربطه بالإمام فيصل صداقة، حيث ذاعت شهرة الأخير، وأصبح شخصية مرموقة يلتف حولها السعوديون فى مصر إذ كان أكبر شخصية سياسية معتقله فى القاهرة. وكان محمد على باشا يميل إلى حفيده وشاع وقتها أنه سيورثه العرش بعد أن تدهورت صحة ابنه إبراهيم. وكان لعباس اتجاهاً إسلامياً، فوجد فى الإمام فيصل ما جذبه إليه، لذلك أشارت التقارير الصادرة آنذاك إلى أن عباس باشا لعب دوراً كبيراً فى عملية تهريب الإمام فيصل بن تركى من معتقله فى مصر. وقد ذكر أحمد زينى دحلان فى كتابه رواية تشبه هذه الرواية إذ قال: إن الخديوى عباس هو الذى أخرج الأمير فيصل ومن معه، وإن عباس باشا كان كثير الاجتماع بالأمير فيصل ومن معه، وإن عباس باشا كان كثير الاجتماع بالأمير فيصل فى سجنه، ودار بينهما حديث حول استيلاء عبدالله بن ثنيان على بلاد نجد، فاتصل عباس باشا بجده (محمد على باشا) وسعى لإخراج فيصل بسرية تامة وعندما تمكن من تجهيز الخيل والمطايا التى تحمله ومن معه إلى نجد بتواطؤ من الحراس. وعلم بذلك (إبراهيم باشا) أرسل من يتعقبه لعلهم يدركونه، وكان عباس باشا مع المتعقبين! أما المؤرخ النجدى عثمان بن بشر فقد ذكر رواية تختلف عن هذه فى خروج الإمام

فيصل بن تركى وابنه عبدالله ومن معهما من أبناء عمومتهم... فذكر أنهم تمكنوا من الهرب سراً بمعجزة، دون أن يعلم بهم أحد على الرغم من تشديد الرقابة حول السجن، إذ نزلوا من القلعة بواسطة حبال متدلية من فرجة بسور السجن ارتفاعها عن الأرض يقارب السبعين ذراعاً، ثم ركبوا مطايا سبق إعدادها وتجهيزها تحت السور، وخرجوا من الأراضى المصرية بإرادة الله وتدبيره. وساروا إلى جبل شمر. ومع إيماننا بأن إرادة الله فوق كل شىء، وهو صاحب المشيئة المطلقة، وتصديقنا بوجود المعجزات إذا توفرت شروطها، غير أننا لسنا مع ابن بشر فيما ذهب إليه؛ لأن إمكانية هروب شخصية مثل الإمام فيصل بن تركى ومن معه أمر مستبعد، بل مستحيل فى ظل الحراسة المشددة، دون أن يبصر بهم أحد من حراس السجن أو غيرهم، ثم إن من سجنهم هو محمد على باشا، المعروف بشدته وبطشه، فلا يمكن للحراس والجنود أن يهملوا أمر ذلك السجن المنيع، ولا يمكن أن يغفلوا أمر سجين ليس كغيره من السجناء، لأنه ليس رجلاً عادياً، بل هو أمير سعودى جىء به من مكان بعيد، للمرة الثانية إلى ذلك السجن. أما رواية حافظ وهبة فى كتابه فتقول: إن الخديوى عباس اندفع إلى إخراج الأمير فيصل ومن معه من سجنهم بسبب إعجابه به. وعزا المؤرخ المعروف كيلى أن خروج الأمير فيصل من سجنه إلى جهد المقيم البريطانى فى الخليج العربى (هنل) الذى توسط لدى محمد على باشا لإطلاق سراح الأمير فيصل.. ولعل هذه الرواية هى أبعد الروايات عن الصواب. ومع أن كل تلك الروايات ممكنة الحدوث، وربما تقارب بعضها من الصواب إلى درجة الملامسة لإيماننا المطلق بقدرة الله تعالى وتدبيره، ثم لما للخديوى عباس، من مكانة عند جده محمد على باشا، إلا أن تلك الروايات جميعها فى نظرى غير مقنعة إلى درجة كافية. غير أن أمراً واحداً فى غاية الأهمية ربما كان السبب الحقيقى فى خروج الإمام فيصل بن تركى من معتقله من مصر على الرغم من إحجام المؤرخين عن ذكره، ذلك هو الضغط السياسى الذى توج بمؤتمر لندن عام ١٢٥٦هـ (١٨٤٠م)، الذى بدأت فكرته عندما أحس الغرب بتوسعات محمد على باشا خارج مصر، مما أخاف بريطانيا على مصالحها فى الهند ومناطق المرور إليها فى

الخليج العربى حيث بدأت بريطانيا تخوف فرنسا والسلطات العثمانية، فما كان من فرنسا إلا أن أقنعت السلطات العثمانية منذ عام ١٢٤٧هـ (١٨٢٣م) بضرورة تقليم أظافر محمد على والحد من قوته وتوسعاته فآنئذ ضغطت بريطانيا وفرنسا بمساعدة بلدان أوربية أخرى فخافت حتى روسيا وبروسيا على مصالحهما مع الدولة العثمانية مما أفضى لاتفاقية لندن التى تضمنت تعهد الدولة العثمانية وبريطانيا وبقية الدول بتوحيد جهودهم لإلزام محمد على باشا بشروط التسوية، وبملاحق أخرى تحدد ممالكه فى مصر بحكم وراثى فى أسرته شريطة بقاء مصر ولاية عثمانية. وهذا هو ما فطن إليه الأمير سلمان بن عبدالعزيز فى حديث أدلى به إلى مجموعة من المهتمين بعلم التاريخ، إذ ذكر أنه قد تولدت لديه قناعة بعد استعراضه للكثير مما دون حول خروج الإمام فيصل بن تركى من معتقله بمصر، فهو يرى أن محمد على باشا نفسه كان قد أعطى إذناً لحفيده عباس أثناء أجواء الشحن بينه وبين خصومه فى الدولة العثمانية، وفى الغرب كى يمهد للإمام فيصل الفرار من مصر، وهذا فى الظاهر لكنه خروج بموافقة عليا، وعلل سلمان ذلك بأن مصر يومئذٍ ماتزال ولاية عثمانية، ولا يستطيع محمد على باشا الجهر بمعاندة الباب العالى وإطلاق سراح الإمام فيصل بن تركى ليعود إلى بلاده جهاراً، فجعلها مسألة مدبرة سراً ليأمن اللوم أو الاتهام بالمؤامرة على الدولة.. يضاف إلى ذلك أن محمد على باشا كلف بمعارك نجد من قبل السلطات العثمانية لمصلحة يراها هو فلما بدأ النزاع وتوقع أنه سيخسر وينكمش لم يعد يبالى بما ستواجهه الدولة العثمانية من متاعب فى داخل الجزيرة العربية. وتوقع محمد على باشا أن تنغص عودة آل سعود لحكمهم على الدولة العثمانية وهو عين ما كان يتمناه لها لأن العثمانيين قد تنكروا له ولجهوده، إضافة إلى أن (إبراهيم باشا) كان فى غاية الحنق على العثمانيين والأوروبيين بسبب ما كان يدبر فى الخفاء ضده.. لذلك انصب همه وهم والده على تدبير المتاعب للعثمانيين فى البلاد التى تنسحب منها جيوشه.. لذا تغاضى عما فعله ابن أخيه عباس باشا. وكان محمد على حينها قد أوشك على التنازل عن الحكم لإبراهيم باشا. وهذه الرؤية فى نظرى هى الأقرب من بين تلك

الروايات إلى الصواب، لأنها تكاد تتفق مع رواية المؤرخ أمين الريحانى الذى ذكر أن محمد على باشا هو الذى أمر بإخراج الإمام فيصل وإعادته حاكماً لأرض نجد. وعليه تكون رؤية الأمير سلمان مع ما يؤيدها من رواية المؤرخ أمين الريحانى، هى أرجح الروايات وأقربها للحقيقة لأنها تنسب تدبير الهروب إلى الرجل الأول فى الحكومة الذى بيده الحل والعقد من ناحية، ثم للتوافق الزمنى بين خروج الإمام فيصل من المعتقل وبين أفول نجم حكم محمد على باشا الذى استمر حتى عام ١٢٦٤هـ (١٨٤٧م) بسبب مرضه. وكان محمد على باشا يأمل من وراء كل ذلك أن يرتبط الإمام فيصل به، وأن تقوم علاقات طيبة بينهما. وأياً كان الأمر، فإن جميع هذه الروايات، على اختلاف توجهاتها، تتفق فى أن الإمام فيصل بن تركى عاد إلى إقليم نجد عن طريق جبل شمر، الذى اختاره دون غيره لأسباب كثيرة لعل من أهمها أن تلك المنطقة هى أقرب المناطق إلى مصر وأن حاكمها آنذاك عبدالله بن على بن رشيد، أمير ذو شخصية، وله قوة مرهوبة خاصة بعد انتصاره على من حوله فى معركة بقعاء وأنه قد جمع بين محبة رعيته له وخوفها منه، كما كان الصديق الحميم القديم للإمام فيصل بن تركى، وهو يتمتع فى بلده (جبل شمر) باستقلالية ولن يستطيع ابن ثنيان فى الرياض الوصول إليه.. مما سهل مهمة الإمام فيصل بن تركى إلى وصوله لبلده ومملكته بعد أن استقبله صديقه عبدالله بن رشيد وتلقاه بالتكريم والإكرام، وعظمه غاية الإعظام، قائلاً له: (أبشر بالمال والرجال والسير معك وحط الرحال) فكان عند حسن ظن الأمير فيصل به وما كان يأمله فيه، كما قال ابن بشر فى تاريخه. لكن لِمَ هذا الاهتمام بالخروج الثانى للإمام فيصل دون خروجه للمرة الأولى؟ وهو الحدث الأكبر من الأهمية فى حياة الإمام تركى والد الإمام فيصل عام ١٢٤٣هـ، حين عاد الأمير فيصل إلى الرياض بعد تمكنه من الهروب من مصر التى عاش فيها سنوات طويلة، عاد وقد كان والده فى أشد الحاجة إليه فصار ركن والده الركين، وأصبح يعتمد عليه فى كل شئونه. وقد ساعده على ذلك ما يتمتع به من صفات قيادية وفطرية، فقد كان متديناً، حافظاً لكتاب الله، قيادياً عسكرياً، صهرته الأحداث،

وشارك فى حرب الدرعية، ولما يبلغ الخامسة عشرة من عمره فى عهد الإمام سعود الكبير وقاوم قوات محمد على باشا حتى وقع أسيراً ونقل إلى مصر ليبقى فيها نحو عشر سنوات. ثم أفلت من معتقله وعاد إلى عاصمة والده وكان مقدراً له أن يحكم فيما بعد مرتين وأن يكون من أعظم آل سعود، بل أعظمهم فى الدولة السعودية الثانية، وقد تزامنت سنة قدومه من مصر مع تحول فى حكم والده فى سيطرته على أقاليم نجد.

صحيح.. لم يهتم المؤرخون بتتبع مجريات أحداث هروب الإمام فيصل من معتقله للمرة الثانية فى مصر وتحليلها، ولم يهتموا بمغامرة خروجه الأول بعد سجنه الطويل فى مصر، أو فرض الإقامة الجبرية عليه لأكثر من عشر سنوات.. حتى إن بعض المؤرخين المحليين مروا على الحدث مر الكرام؟! والجواب أن الأمر واضح، فالحادثة الأولى كانت حمله إلى الأسر بعد هدم الدرعية مع مجموعة كبيرة من الأبطال، والعوائل من آل سعود، وآل الشيخ، ومن الملازمين لهم حتى قيل إن مجموعهم بلغ (٤٠٠) فرداً!!

وقد قيل حول ذلك الأسر: إن أهل مصر خرجوا كلهم لمشاهدة القافلة المهزومة، ومشاهدة الأمراء الأسرى يُزج بهم فى السكن الذى خصص لهم للإقامة الجبرية فى حى السيدة عائشة، قرب القلعة، وتناقل البعض ما يتحدث به بعضهم من صلاح أصحاب تلك القافلة فقد ذكر ابن بشر: بعد استسلام الإمام فيصل، وكان - إذ ذاك - شاباً مقاتلاً وصل إلى المدينة المنورة، ومنها إلى مصر حيث أنزل فى بيت، وجعل عنده حراساً وكان يقضى وقته فى العبادة، وكان كثير من أهل مصر يأتون إليه ليرقيهم الرقية الشرعية فكانوا يرون أثر الشفاء من تلك الرقية. وقد شهد كثير من المؤرخين أنَّ مَنْ رحلوا إلى مصر من السعوديين عوملوا معاملةً حسنةً، حتى إن بعضهم أطلق سراحه ليتجول ويدرس. فكانوا يتنقلون بحرية ويجتمعون بمن شاءوا.. الأمر الذى سهَّل خروج الكثير منهم بعد أن بدأ محمد على باشا يتحول فى سياسته وينصرف عن الباب العالى، وكأنه اضطر أو أحس بضرورة المصالحة مع تلك الجماعة. ومن هنا، كان الاهتمام بقضية هروب بعض أفراد الأسرة السعودية وبعض أفراد آل الشيخ وغيرهم من الأسرى فى ذلك الوقت، أمراً غير لافت.. ويختلف هذا عن هروب الإمام فيصل من

معتقله للمرة الثانية لما له من آثار هامة سبقت الإشارة إلى بعضها. ولهذا يستغرب المستشرق المسلم عبدالله فيلبى عدم تقديم المؤرخين المعاصرين للإمام فيصل بن تركى تفاصيل أكثر عن مغامرة هروبه الثانية الخيالية، حيث لا تفاصيل ولا اهتمام من المعاصرين بتلك القضية المثيرة.

■■■

الســـــودان

■■

تظل الحروب التى خاضها محمد على موضع حيرة دائمة وتساؤلات لا تنتهى، وليس سبب تلك الحيرة هو عدم معرفتنا بدوافع محمد على لخوض تلك الحروب فى الحجاز والسودان وسوريا واليونان، فكلها كانت لتدعيم نفوذه ومركزه كحاكم، ولزيادة رقعة مملكته لتصبح إمبراطورية مترامية الأطراف..

وبحسب الباحث الشاب هانى المصرى فإن سبب الحيرة ونحن نقرأ هذه الصفحة من تاريخنا الحديث هو الإحساس بأن مصر كانت فى إحدى فترات تاريخها تحت حكم محمد على باشا دولة استعمارية تتصرف بنفس عقلية الدول الاستعمارية الكبرى التى تتلخص فى منطق القوة والمدنية، فلأن مصر حينها كانت أكثر بلاد الشرق قوة ومدنية، فإن ذلك يتيح لها فرض سيطرتها وحضارتها على كل ما يجاورها من البلاد والأقاليم ولو بالقوة، وهذا لم يتحقق منذ أيام الفراعنة إلا فى عهد محمد على باشا..

وللأمانة يجب أن نذكر أن الفتوحات المصرية فى إفريقيا لا يمكن أن نشبهها مثلاً بالاستعمار الإنجليزى أو الفرنسى، فلم يكن هدف الحكومة المصرية حينها استنزاف موارد تلك البلاد بقدر ما كان هدفها هو تأمين حدود مصر وتدعيم مركزها الدولى.. ولا يفوتنا أن نذكر الدور الحضارى والتنوير الفكرى الذى لعبته مصر فى كل الأقاليم التى شملها حكمها، وهو ما يختلف عن الاستعمار الأوروبى لإفريقيا الذى لم يكن فى الأساس إلا للاستيلاء على خيرات تلك المستعمرات واستعباد أهلها..

ومع ذلك تبقى الحيرة والتساؤلات، هل يمكن أن يبرر الدور الحضارى الكبير الذى لعبته مصر فى البلاد التى فتحتها أن تفرض سيطرتها العسكرية على تلك البلاد؟ أم

نأخذ بمبدأ مصر أولاً وأخيراً ونبرر تلك الحروب والغزوات بأنها (هى التى مكنت مصر من تحقيق استقلالها القومى، ولولا تلك الحروب التى عززت مكانة مصر بين دول العالم لبقيت مصر ولاية تحكمها تركيا كما كانت تحكم سائر ولايات الدولة العثمانية فترسل لها حاكمًا كل سنة أو سنتين..) كما يقول المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى؟

فتح السودان.. أم غزوه؟!

يعد ضم السودان (١٨٢٠-١٨٢٢م) للسيادة المصرية من أهم الحروب التى خاضتها مصر فى عهد محمد على، وكان لفتح السودان أهداف عديدة منها كشف مناجم الذهب والماس التى يتحدث الناس عن وجودها فى السودان، وإمكان تجنيد السودانيين فى الجيش المصرى النظامى لما اشتهر به السودانيون من الصبر والشجاعة والطاعة للرؤساء، إضافة إلى رغبة محمد على فى التخلص من الفرق الباقية من عسكر الأرناؤوط (الألبانيين) وغيرهم من الجنود غير النظاميين ممن لم تهلكهم حروب جزيرة العرب وعادوا إلى مصر يثيرون الفتن والقلاقل كعادتهم، وكان من أهدافه أيضاً القضاء على البقية الباقية من المماليك الذين هربوا إلى دنقلة بعد مذبحة القلعة، إضافة إلى أن محمد على كان يرمى إلى توسيع رقعة مصر من الجنوب وإيجاد الروابط الاقتصادية بين مصر والسودان وضمان سلامة مصر والاطمئنان على منابع النيل، وفى هذا يقول اللواء إبراهيم باشا فوزى فى كتابه (السودان بين جوردون وكتشنر): إن محمد على تخلص من ورطتين كبيرتين عندما فتح السودان، فقد علمت من شيخ ذى منصب معاصر لمحمد على باشا أن دولة أوروبية كانت تسعى لمعارضته باحتلال منابع النيل، فاهتم الباشا لهذا الخبر، واستشار كثيراً من المهندسين الأوروبيين الذين جاء بهم فأقروا بالإجماع أن وقوع منابع النيل تحت براثن هذه الدولة مما لا تحمد عقباه حيث تصير حياة مصر فى يدها، ومن هنا صمم الباشا على إرسال الحملة إلى السودان..

ومازلنا مع الباحث هانى المصرى الذى يرصد حملة محمد على باشا على السودان، فمن الواضح أن تلك الدولة التى يشير إليها فوزى باشا فى كتابه هى إنجلترا، ففتح

السودان إن - كما يرى عبد الرحمن الرافعى - كانت حرباً دفاعية الغرض منها المحافظة على كيان مصر وسلامتها وتحقيق وحدة وادى النيل..

أعد محمد على جيشاً لفتح النوبة والسودان وتعقب المماليك الفارين، وجعل قائد الجيش نجله إسماعيل باشا (وهو غير الخديوى إسماعيل) وتحركت الحملة المصرية فى يوليو سنة ١٨٢٠م وفتحت دنقلة ثم أم درمان وتوالى فتح المدن السودانية إلى أن وصل الجيش إلى (قرية) الخرطوم وكانت لا تتكون من أكثر من ١٠ بيوت من الغاب، فحولتها الحكومة المصرية إلى مدينة كبيرة أصبحت عاصمة السودان ومنبع الحضارة والعمران فيه..

وبفتح السودان اتسعت رقعة الدولة المصرية ووصلت حدود السودان المصرى شرقاً إلى البحر الأحمر، وكذلك دخلت سواكن ومصوع (التى تقع فى إريتريا الآن) فى حدود السودان المصرى بعد أن استأجرهما محمد على من السلطان العثمانى..

أما من جهة الجنوب فقد بلغت الحملات التى أرسلها محمد على جنوباً إلى جزيرة (جونكر) فى أقصى جنوب السودان، ولم تتعدّ الفتوحات هذه النقطة لعدم تخطى الكشوف الجغرافية هذه الجهة، أما ما بعد جزيرة (جونكر) وهو الإقليم المعروف باسم مديرية خط الاستواء وأوغندا فقد ضمته مصر إليها بعد ذلك فى عهد الخديوى إسماعيل(!!)أسست مصر فى السودان حكومة منتظمة كان لها الفضل الكبير فى نشر الأمن والأمان فى ربوع السودان، ولم ينظر للسودان فى يوم من الأيام على أنه مستعمرة للاستغلال، بل نظر إليه دائماً على أنه جزء من الوطن المشترك، فاهتمت مصر بعمرانه ونهضته تماماً كما كانت تهتم بعمران الغربية أو الدقهلية أو غيرهما من المديريات المصرية الأخرى، حتى إن اللواء محمد نجيب أول رئيس لجمهورية مصر العربية ولد فى إحدى مديريات السودان كما ذكر فى مذكراته..

ومهما اختلف الكتاب الأوربيون فى تقدير الحكم المصرى فى السودان، فإنهم مجمعون على دور مصر فى نشر الأمن والاستقرار فى السودان، فقد كانت الرحلة إلى

السودان قبل الفتح المصرى محفوفة بالأخطار. إذ كانت الطرق مقطوعة وسلطة رؤساء القبائل ضعيفة، وكانت قوافل التجار والحجاج هدفا دائما للسلب والنهب، فجاء الحكم المصرى لينهى هذه الفوضى وينشر الأمن فى ربوع السودان، وكان من نتائج ذلك نشاط المعاملات التجارية فى أنحاء السودان، وبين مصر والسودان، ومن نتائج ذلك أيضاً تنظيم البريد، وكان ينقل فى السفن ثم يحمل على الجمال فيرسل إلى مصر وإلى جميع مديريات السودان، وكانت الرسائل تصل من مصر إلى الخرطوم مرتين فى الشهر، ويعتبر هذا فى حد ذاته أحد إنجازات محمد على.

يقول المسيو جومار المقيم بفرنسا: من ذا الذى كان يظن قبل أربعين عاماً أو حتى قبل خمسة عشر عاماً أن تصلنا الرسائل من ضفاف النيل الأبيض إلى ضفاف السين فى باريس فى اثنين وثلاثين يوما فحسب؟!!.

وكان للفتح المصرى للسودان فضل كبير على العلم والعمران مما شجع العلماء والباحثين الأجانب على القيام بالرحلات العلمية لاستكشاف بقاع السودان البعيدة وخاصة منابع النيل، وقد كان محمد على يهتم اهتماماً كبيراً بالرحالة والمستكشفين، فكانت الحكومة المصرية فى السودان ترعاهم وتوفر لهم كل ما يلزمهم، وصارت الخرطوم مركزاً للرحلات الجغرافية التى انطلقت منها لكشف منابع النيل ووسط إفريقيا، فللحكم المصرى فى السودان فضل كبير على الاستكشافات الجغرافية التى تمت فى ذلك العهد، وهذه الاستكشافات هى التى مهدت الطريق بعد ذلك لكشف منابع النيل بأكملها سنة ١٨٦٢م..

الغزو المصرى التركى

يعتبر كثير من الباحثين السودانيين أن حملات محمد على تندرج تحت بند الغز ويسمونه الغزو المصرى التركى وبحسب مصادر تاريخية سودانية رسمية فإنه بعد استيلاء محمد على باشا على مصر أراد أن يكون له جيشاً قويا بسبب الأطماع الأوروبية الهادفة إلى الاستيلاء على بلاده وخاصة بعد الغزو الفرنسى لمصر الذى

استمر من ١٧٩٨ ولم ينتهِ إلا بالصلح الذى عقده الفرنسيون مع الإنجليز سنة ١٨٠٢ ثم حاولت إنجلترا غزو مصر فى ١٨٠٧ لكن المصريين ردوهم. فعمل الباشا جاهداً على أن يوسع رقعة حكمه شرقاً إلى الحجاز، غرباً إلى ليبيا وجنوباً إلى السودان ليضم هذه البلدان تحت إمبراطوريته حتى انه شمل فى تهديده الإمبراطورية العثمانية شمالاً بدأ بأراضى الحجاز فهاجمها فى السنوات ما بين ١٨١١ - ١٨١٨م وانتصر على السعوديين وبعدها اتجه غربا فأمّنَ حدوده الغربية حتى واحة سيوة سنة ١٨٢٠.

لم يبقى له سوى تأمين الحدود الجنوبية، إن حملاته ضد الوهابيين شغلته عن ذلك سابقاً حتى أرسل وفداً يحمل فى ظاهره الصداقة والمودة إلى سلطان الفونج فى ١٨١٣ وكانت مهمة الوفد استقصاء الحقائق حول الوضع السياسى، الاجتماعى، الاقتصادى والحربى. وقد حمل الوفد هدايا إلى السلطان تقدر قيمتها بـ ٤٠ ألف ريال (كانت العملة السائدة فى السودان فى ذلك الوقت الريال النمساوى أو الأسبانى أو المكسيكى) فرد السلطان الهدية بما يتناسب ورغبات الباشا ولكن أهم ما حمله الوفد فى طريق عودته كانت التقارير التى تفيد ضعف السلطنة خاصة والسودانيين عامة بالإضافة إلى خلو السودان من الأسلحة النارية. رغم ذلك تأخر الغزو بعد ذلك عدة سنوات لأن الوهابيين لم تتكسر شوكتهم بعد. أراد محمد على أن يكون جيشه حديثاً ومجهزاً بأحدث الأسلحة وبنظام وتدريب حديثين، لكنه علم أن جنوده لن يقبلوا هذا النظام بسبب عدم اهتمامهم وبسبب عدم رغبتهم فى إطاعة الأوامر. فقرر أن يستجلب الجنود من السودان وكان هذا من الأسباب التى دفعته إلى الاستيلاء على السودان. كان السودانى بقامته العسكرية وشجاعته المعهودة وإخلاصه وطاعته خير ما يطلب وقد كان السودان أيضاً مصدر الجنود فى الحضارة الفرعونية. اشتهر السودان منذ القدم بأن أراضيه غنية بالذهب وكان محمد على فى حاجة إليه لإنفاقه على بلاده عسكرياً وصناعياً وحتى زراعياً.

خلال القرن الثامن عشر كانت الحبشة تشكل تهديداً للمصريين والسودانيين بتحويلها لمجرى النيل وخاصة بعد الأنباء التى أشاعت أن الإنجليز وأوروبا عامة مساندة لفكرة التحويل. أراد محمد على أن يأمن هذا الأمر أيضاً باستيلائه على

السودان قبل الفتح المصرى محفوفة بالأخطار. إذ كانت الطرق مقطوعة وسلطة رؤساء القبائل ضعيفة، وكانت قوافل التجار والحجاج هدفا دائما للسلب والنهب، فجاء الحكم المصرى لينهى هذه الفوضى وينشر الأمن فى ربوع السودان، وكان من نتائج ذلك نشاط المعاملات التجارية فى أنحاء السودان، وبين مصر والسودان، ومن نتائج ذلك أيضاً تنظيم البريد، وكان ينقل فى السفن ثم يحمل على الجمال فيرسل إلى مصر وإلى جميع مديريات السودان، وكانت الرسائل تصل من مصر إلى الخرطوم مرتين فى الشهر، ويعتبر هذا فى حد ذاته أحد إنجازات محمد على.

يقول المسيو جومار المقيم بفرنسا: من ذا الذى كان يظن قبل أربعين عاماً أو حتى قبل خمسة عشر عاماً أن تصلنا الرسائل من ضفاف النيل الأبيض إلى ضفاف السين فى باريس فى اثنين وثلاثين يوما فحسب؟!!.

وكان للفتح المصرى للسودان فضل كبير على العلم والعمران مما شجع العلماء والباحثين الأجانب على القيام بالرحلات العلمية لاستكشاف بقاع السودان البعيدة وخاصة منابع النيل، وقد كان محمد على يهتم اهتماماً كبيراً بالرحالة والمستكشفين، فكانت الحكومة المصرية فى السودان ترعاهم وتوفر لهم كل ما يلزمهم، وصارت الخرطوم مركزاً للرحلات الجغرافية التى انطلقت منها لكشف منابع النيل ووسط إفريقيا، فللحكم المصرى فى السودان فضل كبير على الاستكشافات الجغرافية التى تمت فى ذلك العهد، وهذه الاستكشافات هى التى مهدت الطريق بعد ذلك لكشف منابع النيل بأكملها سنة ١٨٦٢م..

الغزو المصرى التركى

يعتبر كثير من الباحثين السودانيين أن حملات محمد على تندرج تحت بند الغز ويسمونه الغزو المصرى التركى وبحسب مصادر تاريخية سودانية رسمية فإنه بعد استيلاء محمد على باشا على مصر أراد أن يكون له جيشاً قويا بسبب الأطماع الأوروبية الهادفة إلى الاستيلاء على بلاده وخاصة بعد الغزو الفرنسى لمصر الذى

استمر من ١٧٩٨ ولم ينتهِ إلا بالصلح الذى عقده الفرنسيون مع الإنجليز سنة ١٨٠٢ ثم حاولت إنجلترا غزو مصر فى ١٨٠٧ لكن المصريين ردوهم. فعمل الباشا جاهداً على أن يوسع رقعة حكمه شرقاً إلى الحجاز، غرباً إلى ليبيا وجنوباً إلى السودان ليضم هذه البلدان تحت إمبراطوريته حتى انه شمل فى تهديده الإمبراطورية العثمانية شمالاً بدأ بأراضى الحجاز فهاجمها فى السنوات ما بين ١٨١١ - ١٨١٨م وانتصر على السعوديين وبعدها اتجه غربا فأمّنَ حدوده الغربية حتى واحة سيوة سنة ١٨٢٠.

لم يبقى له سوى تأمين الحدود الجنوبية، إن حملاته ضد الوهابيين شغلته عن ذلك سابقاً حتى أرسل وفداً يحمل فى ظاهره الصداقة والمودة إلى سلطان الفونج فى ١٨١٣ وكانت مهمة الوفد استقصاء الحقائق حول الوضع السياسى، الاجتماعى، الاقتصادى والحربى. وقد حمل الوفد هدايا إلى السلطان تقدر قيمتها بـ ٤٠ ألف ريال (كانت العملة السائدة فى السودان فى ذلك الوقت الريال النمساوى أو الأسبانى أو المكسيكى) فرد السلطان الهدية بما يتناسب ورغبات الباشا ولكن أهم ما حمله الوفد فى طريق عودته كانت التقارير التى تفيد ضعف السلطنة خاصة والسودانيين عامة بالإضافة إلى خلو السودان من الأسلحة النارية. رغم ذلك تأخر الغزو بعد ذلك عدة سنوات لأن الوهابيين لم تنكسر شوكتهم بعد. أراد محمد على أن يكون جيشه حديثاً ومجهزاً بأحدث الأسلحة وبنظام وتدريب حديثين، لكنه علم أن جنوده لن يقبلوا هذا النظام بسبب عدم اهتمامهم وبسبب عدم رغبتهم فى إطاعة الأوامر. فقرر أن يستجلب الجنود من السودان وكان هذا من الأسباب التى دفعته إلى الاستيلاء على السودان. كان السودانى بقامته العسكرية وشجاعته المعهودة وإخلاصه وطاعته خير ما يطلب وقد كان السودان أيضاً مصدر الجنود فى الحضارة الفرعونية. اشتهر السودان منذ القدم بأن أراضيه غنية بالذهب وكان محمد على فى حاجة إليه لإنفاقه على بلاده عسكرياً وصناعياً وحتى زراعياً.

خلال القرن الثامن عشر كانت الحبشة تشكل تهديداً للمصريين والسودانيين بتحويلها لمجرى النيل وخاصة بعد الأنباء التى أشاعت أن الإنجليز وأوروبا عامة مساندة لفكرة التحويل. أراد محمد على أن يأمن هذا الأمر أيضاً باستيلائه على

السودان، بالإضافة إلى ما فى ذلك من زيادة للرقعة الزراعية لأراضيه. أراد محمد على من السودانيين أن يكونوا على مودة مع الوالى لكن الأمر لم يكن كذلك إذ أن المماليك الذين هربوا من مكائده اتخذوا من شمال السودان موطناً لهم بالقرب من مملكة الشايقية، حيث أنشأوا مملكة لهم كانت بمثابة طعنة فى ظهر محمد على، لذلك قرر أن يقضى عليهم خوفاً من أن تزيد سلطتهم ويسيطروا على السودان فيشكلوا خطراً على حكمه. كان محمد على يرمى إلى استغلال تجارة السودان واحتكار حاصلاتها وتسويقها فى السوق العالمية عن طريق مصر. من أهم صادرات السودان آنذاك : الرقيق، العاج، الأبنوس، ريش النعام والجلود هذا بالإضافة للذهب الذى طالما اعتقد المصريون وجوده فى السودان بكميات مهولة، كما أن السودان كان سوقاً جيداً للصادرات المصرية. وإذا حصرنا هذه الأسباب نجدها:

- تأمين البلاد ضد الغزو الأوروبى باستجلاب الجنود من السودان. وبزيادة رقعة وعدد سكان بلاده.

- الحصول على التمويل لدعم القطاعات المختلفة فى مصر باستغلال الذهب والتجارة والحاصلات السودانية.

- تأمين مجرى النيل المصدر الوحيد لرى الأراضى المصرية وزيادة المساحة الزراعية.

وجود المماليك فى السودان

بعد عودة الوفد المصرى التركى الذى أرسله محمد على باشا ما لبث أن قدم إلى مصر الشيخ بشير ود عقيد من قرية أم الطيور قرب عطبرة فى ١٨١٦ وطلب من محمد على أن يعينه على خصمه ملك الجعليين الذى أقصاه من مشيخته، اعتقد الشيخ أن الباشا سيساعده فأبقاه الباشا وأكرم وفادته حتى أعد العدة لفتح السودان وأرسله مع الجيش سنة ١٨٢٠، ثم عينه شيخاً على شندى فى آخر الأمر بعد نزوح الملك نمر إلى الحبشة. وأرسل أيضاً جيشاً آخر إلى سلطنة الفور ليستولى على كردفان ودارفور.

الحملة الأولى ـ الزحف إلى سنار يوليو ١٨٢٠

تولى قيادة الجيش الأول إسماعيل بن محمد على باشا وضم الجيش ٤٥٠٠ من الجنود فيهم الأتراك والأرناؤوط والمغاربة (لوحظ عدم وجود أى مصرى بين الجنود، إذ كان الجيش من المرتزقة الذين تعود الأتراك أن يجندوهم) وتسلحوا بالبنادق و٢٤ مدفعاً. كان الباشا يعلم أن السودانيين يجلون علماء الدين إجلالاً عظيما فأرسل مع الجيش ثلاثة من أكبر العلماء وهم: القاضى محمد الأسيوطى الحنفى، السيد أحمد البقلى الشافعى والشيخ السلاوى المكى، وكان عليهم أن يحثوا الناس على وجوب طاعة الوالى ويتجنبوا سفك الدماء (لحرمتها) ويطيعوا الخليفة العثمانى وواليه فى مصر. تعد هذه الوسيلة من الاستخدامات الخاطئة لديننا الإسلامى الحنيف والتى لا يتوانَ الساسة والعلماء أيضاً فى أيامنا هذه عن اتباعها. ما أن ارتفعت مياه النيل فى فيضان يوليو ١٨٢٠ حتى اندفعت ٣٠٠٠ مركبة تشق النيل من أسوان متجهة جنوبا ومثل ذلك العدد من الجمال كان يسير على اليابسة تابعاً للحملة (يوجد عدم تناسق بين الأرقام الواردة عن هذه الحملة وعلى سبيل المثال عدد الجنود لا يتناسب مع عدد المراكب والجمال، لكننا نسرد الأرقام تماماً كما وردت فى المرجع). وجد حكام شمال السودان أنفسهم ضعافاً أمام الحملة نظراً لتفرقهم إلى ممالك صغيرة، فسلموا الأمر إلى إسماعيل باشا. أما المماليك فهرب جزء منهم إلى الجعليين وسلم البعض الآخر نفسه إلى إسماعيل.

معركة كورتى نوفمبر ١٨٢٠

لم يقابل جيش إسماعيل أية عقبة حتى وصل الديار الشايقية الذين اعتزوا بسطوتهم على جيرانهم وثورتهم على الفونج. آثر الشوايقة الخضوع للحكم على أن لا يتدخل الباشا فى شئونهم لكن إسماعيل وضع شروطا كان أهمها هو تسليمهم الخيل والسلاح (الأبيض) وأن يفلحوا الأرض فلم يقبلوا بذلك وعزموا على القتال. بدأ النصر يلوح للشوايقة فى بادئ الأمر إلا أنهم سحقوا بعد ذلك تحت وطأة السلاح النارى

فانقسموا إلى مؤيد للموالاة بقيادة الملك صبير حاكم غرب الشايقية وإلى المقاومين الذين لحقوا بالمماليك فى درا جعل، بقيادة الملك جاويش حاكم عموم الشوايقة فى مروى. فمنح إسماعيل مكافأة لكل جندى يقتل شايقياً ويأتى بأذنيه دليلاً وكان من جراء ذلك أن عاد الجنود بعدد ضخم من آذان القتلى والأحياء لكن هذه القسوة محتها المعاملة الحسنة من عبدى كاشف أحد قادة جيوش إسماعيل حين أعاد الفتاة مهيرة بنت الشيخ عبود شيخ السواراب أحد ملوك الشوايقة التى كانت تؤلب الرجال وتثير فيهم الحماس ليستميتوا فى قتالهم ضد الغزاة. انضم رجال الملك صبير إلى جيش إسماعيل برغبة منهم فساروا معه لإخضاع بقية الأراضى. وذهب الملك جاويش إلى المتمة حيث الملك نمر لكن الملك أبى أن يقبل التحالف معه فاتجه جنوباً إلى حلفاية الملوك الذين رفضوا أيضاً فهاجمهم بخيالته ثم اتجه شمالاً ليعلن عن رغبته فى الانضمام إلى جيش إسماعيل. بانضمام الشايقية إلى الجيش الغازى كان لهم تاريخ جديد هو التعاون مع الأتراك والمصريين حتى قيام الثورة المهدية. وكانت نزعتهم هى أن يكونوا سادة مع السادة مهما كان الأمر بدلاً من أن يعيشوا كسائر الرعية، وربما كان حبهم للجندية هو أهم دافع لهم على السير فى جيش إسماعيل. قرر الملك نمر الإذعان للجيش الغازى فانضم للجيش فألحقه إسماعيل بجيشه ليضمن ولائه. وسار الجيش حتى بلغ الحلفايا دار العبدلاب حتى جاء ملكهم الشيخ ناصر بن الأمين خاضعا للجيش فتركه سيداً على بلاده وأخذ ابنه ليضمن ولاء العبدلاب كما جعل من الملك نمر ضماناً لولاء الجعليين وكان ذلك فى ١٨٢١.

اجتياح سنار

سار الجيش متجها نحو سنار عاصمة مملكة الفونج فأرسل إسماعيل إلى الوزير محمد ود عدلان الذين كان ممسكاً بزمام الحكم بدلاً من السلطان بادى السادس. وطلب إسماعيل باشا الولاء للخليفة العثمانى فكتب له ود عدلان رسالته المشهورة: لا يغرنك انتصارك على الجعليين والشايقية، فنحن هنا الملوك وهم الرعية. أما علمت بأن سنار محروسة محمية، بصوارم قواطع هندية، وجياد جرد أدهمية، ورجال صابرين على القتال بكرة وعشية.. كان

ظاهراً أن ود عدلان لم يكن يعيش واقع عصره إذ أن جواسيسه أخبروه أن الجيش قوامه ١٨٦ ألف محارب (نلاحظ أن الجيش المتحرك من مصر كان ٤٥٠٠ جندى) حتى إنه أخذ يطلب العون من الأولياء والصالحين بدلاً من تجنيد الجند من القبائل ومحالفة القبائل الأخرى ليستعد لمقابلة الجيش. تم اغتيال ود عدلان بسبب مشاكله مع أبناء عمومته قبل أن يصل إلى اتفاق مع الفور بشأن توحيد الكلمة لمحاربة الغازى. بدأ الأرباب دفع الله الوزير الجديد للسلطنة بالمفاوضات فى ود مدنى مع إسماعيل ونقل إليه رغبة السلطنة فى الخضوع بعد أن أدرك أنه لا فائدة ترجى من المقاومة. لما اقترب إسماعيل من سنار خرج إليه بادى السادس (الذى كان شاباً فى الخامسة والعشرين) مبايعاً وتنازل عن سلطانه لخليفة المسلمين فى ١٣ يونيو ١٨٢١ هكذا انتهت سلطنة الفونج التى عاشت فى ربوع السودان من عام ١٥٠٤ ١٨٢١م، بدخول الجيش فى اليوم التالى دخول الغزاة المنتصرين وهم يقصفون البر ومن خلفهم سار السلطان السابق بعد أن عينه إسماعيل شيخاً على سنار ليجمع الضرائب ويسلمها للإدارة التركية المصرية.

الحملة الثانية ـ حملة كردفان ودارفور

أرسل محمد على جيشاً آخر بقيادة صهره محمد بك الدفتردار لضم غرب السودان إلى أملاك مصر. ولقد أمد الكبابيش وهى القبيلة التى تقطن بين مصر والمناطق الغربية للسودان والتى كانت تحمل البضائع من وإلى مصر من تلك المناطق أمدت جيش الدفتردار بما احتاج إليه من جمال لنقل العتاد إلى غرب السودان وكانوا خير دليل لتحديد أماكن الآبار ومناطق المعسكرات. سار جيش الدفتردار عقب انطلاق الجيش الأول وقبل أن يصل إلى الأبيّض عاصمة الفور أرسل إلى سلطانها محمد الفضل ينصحه بالتسليم فرد ود الفضل: أما علمت أن عندنا العباد والزهاد، والأقطاب والأولياء الصالحين من ظهرت لهم الكرامات فى وقتنا هذا وهم بيننا يدفعون شر ناركم. فتصير رماداً، ويرجع إلى أهله والله يكفى شر الظالمين. لكن الدفتردار تقدم إلى كردفان دون أن يعترضه أى معترض فلما علم الوالى خرج بعسكره متجهاً شمالاً إلى بارة ليواجه الجيش الغازى.

واقعة بارة ١٦ أبريل ١٨٢١م

التقى الغزاة مع جيش المقدوم مسلم والى كردفان الذى عينه السلطان محمد الفضل، فاندفع جيش الأخير لا يظن سوى النصر (كما فعل الشايقية من قبل) لكنهم تفاجئوا بسقوط الجنود بالرصاص فعلموا أنه لا قبل لهم بعدوهم وهم يحملون السيوف والرماح. وهكذا انتهت واقعة بارة بانهزام الوطنيين وانتصار الغزاة فسقطت كردفان فى يد الدفتردار قبل سقوط سنار فى يد إسماعيل. لم يحاول السلطان المقاومة بل نزح إلى الفاشر ينتظر تطورات الموقف. لم يسر الدفتردار أبعد من الأبيّض لندرة المياه فى تلك المناطق فأعلن محمد على باشا عدم رغبته فى فتح دارفور بل فكر فى إخلاء كردفان والتنازل لأحد الملوك ليدفع الجزية إلا أن الدفتردار أقنعه بالعدول فعدل عن ذلك فى ١٨٢٢م.

مقتل إسماعيل بن محمد على باشا ١٨٢٢

بدأت الثورات تظهر فى مختلف المناطق بسبب الازدياد المتواصل فى الضرائب التى فرضها الأتراك على السودانيين إذ أن الضرائب السنوية للممتلكات كانت تقدر بنصف الثمن. فلما هدأت تلك الثورات بعد أن زاد الولاة فى قسوتهم وزادوا فى ضرائب الجهات الثائرة إذ أن الجزيرة زيدت ضرائبها من ٣٥,٠٠٠ ريال إلى ٥٠,٠٠٠ ريال وكذلك أراضى الجعليين.

وصل إسماعيل باشا إلى شندى فى ديسمبر ١٨٢٢ وأمر الملك نمر والملك مساعد بالمثول أمامه وعند حضورهما بدأ الباشا بتأنيب الملك نمر واتهامه بإثارة القلاقل ومن ثم عاقبه بأن أمره أن يدفع غرامة فادحة، الفرض منها تعجيزه وتحقيره (١٠٠٠ أوقية ذهب، الفى عبد ذكر، ٤ آلاف من النساء والأطفال، ألف جمل ومثلها من البقر والضأن) واختلفت المصادر فى الأعداد لكن اتفقت فى استحالة الطلب. رد الملك باستحالة الطلب فأهانه الباشا وضربه بغليونه التركى بإساءة بالغة أمام الحاضرين. حتى إن الملك رفع سيفه فأوقفه الملك مساعد وتحدث إليه باللهجة الهدندوية (التى عرفوها عن طريق

التجارة مع سكان البحر الأحمر) فأبدى الملك رضوخه وأظهر خضوعه بأن دعا الباشا إلى العشاء وذبح له الضأن وهيأ له الحرس وأمعن فى خدمته وأخبره أن الغرامة ستدفع فى صباح اليوم التالى، أثناء ذلك كان الجعليون يطوقون الحفل بالقش من كل مكان مخبرين رجال الباشا أنها للماشية التى ستحضر وقبيل انفضاض الحفل أطلق الجعليون النار فى القش فمات إسماعيل ورجاله خنقاً وحرقاً. نتيجة لذلك ساءت معاملة المغتصبين أشد الإساءة حتى أنهم قتلوا فى إحدى المرات ٣٠,٠٠٠ من الجعليين العزل، استمر الملك نمر فى إغارته على الدفتردار حتى بلغت خسائر رجاله عدداً عظيما بفضل السلاح النارى فهاجر الملك ومعه عددا لن يستهان به من القبيلة إلى حدود الحبشة حيث خطط مدينة أسماها المتمة أسوة بعاصمة الجعليين فى الشمال ومكث هناك عدة سنين حتى مات.

استمر الحكم الدفتردار العسكرى للسودان واستمرت المجازر البربرية كما أن الجنود الذين لم يتسلموا مرتباتهم لمدة ثمانية أشهر بدءوا بالبطش والنهب ليجدوا متطلبات حياتهم، إلى أن ثار الرأى العام الأوروبى، فأمر محمد على، الدفتردار بالعودة سنة ١٨٢٤ محاولة منه إنهاء الحكم العسكرى وإرساء نظام إدارى أكثر إنسانية.

عند الدخول التركى عينت سنار عاصمة للسودان إلا أن أمطارها الخريفية وكثرت الأمراض فيها اضطرتهم إلى تغييرها إلى ود مدنى إلى أن أتى عثمان باشا الذى خلف الدفتردار عقب عودته إلى مصر وأعجب بالمنطقة التى يقترن فيها النيل الأبيض بالأزرق فبنى قلعة ووضع فيها الجند سنة ١٨٢٤ واتخذها عاصمة له. تلك كانت بداية مدينة الخرطوم التى ازدهرت وسكنها ٦٠ ألف نصفهم من المصريين واليونان واللبنانيين والسوريين وأعداد من الأوروبيين. اهتم خورشيد باشا أيام حكمه ٢٦-١٨٣٨ بتحسين الخرطوم وإنشاء المنشآت كما شهدت الخرطوم فى عهده نوعا جديدا من الحكم إذ امتاز بإشراك السودانيين فى الحكم كما عين الشيخ عبد القادر ود الزين مستشاراً له. الذى ساعده بدوره فى حل الكثير من مشكلات السودان وأهمها هجرة السودانيين إلى المناطق المتاخمة للحبشة والبحر الأحمر هرباً من البطش

والضرائب، فأعفى المتأخرات وأعفى الفقهاء ورجال الدين ورؤوس القبائل من الضرائب فبدأت الوفود بالعودة.

التقسيم الإدارى للسودان فى عهد محمد على

بعد استقرار الأحوال قليلا فى السودان قسم محمد على البلاد على النظام الإدارى التركى إلى ٦ مديريات: دنقلا، بربر، الخرطوم، سنار، كردفان وفازوغلى (كما وردت فى المرجع). ثم ضمت مديرية التاكا فى الشرق فأصبحت السابعة. سنة ١٨٣٤ أطلق محمد على اسم الحكمدار لحاكم السودان وأعطيت له السلطات العليا الإدارية، التشريعية، التنفيذية والعسكرية. لكنه غير النظام سنة ١٨٤٣ لتخوفه من الحكمدار أحمد باشا شركس (أبو ودان) الذى كان طموحا وأراد أن يستقل بالسودان عن طريق فرمان من الباب العالى التركى. واستبدل الحكمدار بالمنظم بعد وفاة أحمد باشا أبو ودان المفاجئة. إلى أن أعاد الحكمدارية للسودان بسبب ضعف المنظم الذى عينه.

■■■



البـــاب العـــالى

■■

فى سنة ١٨٢١م ثار أهالى قبرص وجزيرة كريت وبلاد المورة (اليونان) على الدولة العثمانية، وكانت كل هذه البلاد خاضعة للحكم العثمانى، ولما عجزت الدولة العثمانية عن التصدى لهذه الثورات، عهد الخليفة العثمانى السلطان محمود لمحمد على بإرسال جيش لإخماد الثورة فى بلاد اليونان، فاستجاب محمد على لطلب السلطان محمود، وأرسل أسطولاً بحرياً عملاقاً، وصفه المؤرخون الأوربيون بأنه حملة لم يرَ الشرق مثلها فى ضخامتها منذ حملة نابليون بونابرت، فكأن الشرق أراد أن يغزو الغرب جواباً على حملة أوروبا عليه.

وانتهت الحروب اليونانية بعد ذلك بعدة سنوات بتدمير أغلب الأسطول المصرى فى موقعة نافارين البحرية بعد أن تحالفت عليه إنجلترا وفرنسا وروسيا، فلم تستفد مصر شيئاً من وراء هذه الحرب من الناحية المادية، وإن أكسبتها حروب اليونان منزلة معنوية كبيرة بعد أن برهن الجيش المصرى على كفاءته وأثبت أنه يضارع أرقى الجيوش الأوروبية فى ميادين القتال..

وقد خسرت مصر حوالى ثلاثين ألف جندى، وفقدت معظم أسطولها البحرى، بعد الضربة القاصمة التى أنزلها التحالف الأوروبى بالأسطول المصرى والعثمانى فى موقعة نفارين البحرية سنة (١٢٤٣هـ = ١٨٢٧م)، فأحجم محمد على باشا والى مصر عن الاستمرار فى مجابهة الأوروبيين، ورجعت بقايا الأسطول المصرى المحطم إلى الإسكندرية. تاركة خلفها الدولة العثمانية لتواجه الدول الأوروبية الكبرى التى أرادت إخراج العثمانيين نهائيا من أوروبا

وقد أرادت تركيا أن تعوض محمد على بعض خسائره فى حروب اليونان، فولته حكم جزيرة كريت، ولم تكن ولاية جزيرة كريت ذات قيمة تذكر لمحمد على، حيث إنه لم يكن من السهل أن تحكم مصر تلك الجزيرة أو تستفيد منها لبعدها عن مصر، ولميل أهلها للفتن والثورات..

فطلب محمد على من السلطان العثمانى أن يضم ولاية سوريا إلى مصر تعويضاً عما تكبده الجيش المصرى من خسائر فى اليونان، ولكن السلطان العثمانى لم يقبل بذلك، وساءت العلاقات بين السلطان العثمانى محمود الثانى ومحمد على باشا، وعملت الدول الأوروبية على إذكاء روح هذا العداء فكانت فرنسا تشجع «محمد على» على إعلان الاستقلال التام عن الدولة العثمانية، والمناداة بأن الخلافة من حق العرب أولا، أما الإنجليز فكانوا ينقلون إلى السلطان العثمانى رغبة محمد على فى الاستقلال، ووضعوا أسطولهم القوى فى خدمة العثمانيين لاستخدامه ضد مصر؛ لأنهم رأوا فى مصر القوية تهديدا لطرق تجارتهم مع الهند. فاعتزم محمد على أن يفتح سوريا بحد السيف، وتذرع بأن عدداً كبيراً من الفلاحين المصريين (حوالى ٦ آلاف) قد فرّوا إلى سوريا بعد أن أثقلتهم الضرائب فى مصر، وأن ذلك يضر بمصالح مصر الاقتصادية(!)، وأنه ذاهب إلى سوريا لاستعادتهم من هناك، وخاصة أن والى صيدا عبد الله باشا قد رفض أن يعيدهم إلى مصر، فكتب محمد على إليه قائلاً إنه ذاهب ليعيد الفلاحين المصريين جميعاً يزيدون واحداً هو عبد الله باشا ذاته!!.

لقد تصور محمد على باشا أن الصراع بين فرنسا وإنجلترا صراع إستراتيجى، لا يوحى بإمكانية وجود تفاهم بينهما على اقتسام الغنائم على حساب البلدان الأخرى، ولم يدرك الرجل أن التناقض بين الدول الاستعمارية هو تناقض مصلحى لا إستراتيجى.

إذن هى الحرب

كما سبق وأشرنا فقد سعت الدول الأوروبية وبخاصة إنجلترا إلى إثارة الحرب والصراع بين العثمانيين ومحمد على، وسعت أيضا إلى إطالة أمد هذه الحرب بين

الجانبين لإضعافهما واستنزاف قوتهما المالية والبشرية حتى تتحقق الأطماع الأوروبية الاستعمارية فى اقتسام تركة الرجل الأوروبى المريض (الدولة العثمانية).

وكانت بداية الحرب بين الدول العثمانية ومصر، عندما منح السلطان العثمانى جزيرة كريت لمحمد على كتعويض عما فقدته مصر فى الحرب اليونانية، لكن هذا التعويض لم يكن ذا قيمة، ورأى محمد على أن يضم بلاد الشام إلى دولته الشابة حتى يظفر بمواردها من الخشب والفحم والنحاس، ويجنّد شبابها فى جيشه فيزداد بهم قوة، وساعده على ذلك ضعف الدولة العثمانية بعد الحرب اليونانية، ثم الحرب الروسية سنة (١٢٤٥هـ = ١٨٢٩م) وكثرة الثورات والاضطرابات داخل الدولة المترامية الأطراف، وانتشار الفوضى داخل الجيش العثمانى بعد إلغاء فرقة الانكشارية سنة (١٢٤٢هـ = ١٨٢٦م) التى كانت قوام الجيش العثمانى، يضاف إلى ذلك أن محمد على استطاع أن يجذب إليه الأمير بشير الشهابى كبير أمراء لبنان، وبذلك لم يخش مقاومة الشاميين للجيش المصرى.

واستغل محمد على إيواء والى صيدا عبد الله باشا لعدد من الفلاحين المصريين الهاربين من السخرة والضرائب والخدمة العسكرية، ليجرد حملة عسكرية لتأديبه بقياده ابنه إبراهيم باشا فى جمادى الأولى (١٢٤٧هـ = أكتوبر ١٨٣١م). وقالت جملته المشهورة وهى أنه ذاهب ليحضر الفلاحين المصريين جميعا بالإضافة إلى شخص واحد هو عبد الله نفسه.

وبدأ محمد على يعد حملة عسكرية كبيرة يزيد عددها عن ٣٠ ألف مقاتل بقيادة ابنه إبراهيم باشا، كما شارك الأسطول المصرى أيضاً فى هذه الحملة، وفى أكتوبر سنة ١٨٣١م بدأ تحرك الجيش المصرى متجهاً إلى الحدود السورية، ففتح خان يونس وغزة ثم يافا (تل أبيب حالياً)، وبعدها حاصر إبراهيم باشا القائد العام للجيش المصرى مدينة عكا، وظل الحصار قائماً لثلاثة أشهر بدون أن يستطيع أن يدخلها، وخلال هذه المدة استطاع الجيش المصرى أن يحتل عدداً من المدن الشامية المهمة، واستطاعت القوات المصرية أن تحقق انتصارات عظيمة فى بلاد الشام، فسيطرت على غزة ويافا وحيفا، وصور وصيدا وبيروت طرابلس والقدس، وفشلت محاولات الدولة العثمانية فى وقف

الزحف المصرى لذا حشد العثمانيون عشرين ألف مقاتل وزحفوا لملاقاة المصريين، والتقى الجمعان فى سهل الزراعة قرب حمص فى ذى القعدة (١٢٤٧هـ = إبريل ١٨٣٢م) وانتصر المصريون، ثم فتحوا مدينة عكا الحصينة، ثم دمشق، وانتصروا على العثمانيين فى موقعة حمص (صفر ١٢٤٨هـ = يوليه ١٨٣٢م) وكانت خسائر الجيش العثمانى فى هذه المعركة ٢٠٠٠ قتيل و٢٥٠٠ أسير، ولم تزد خسائر الجيش المصرى عن ١٠٢ قتيل.. وتعتبر هذه المعركة من أهم المعارك الجيش المصرى؛ لأنها أول معركة يتقاتل فيها المصريون ضد الأتراك وجها لوجه، وأظهرت تفوق الجيش المصرى الحديث.

وهكذا انتهى حصار عكا بفتحها (وهى التى لم يستطع نابليون أن يفتحها سنة ١٧٩٩م)، وأخيراً فتح الجيش المصرى دمشق فى ١٦ يونية سنة ١٨٣٢م..

وبعد هذه المعركة تقدم الجيش المصرى فاحتل حماة وحلب، وانتصر على العثمانيين فى موقعة بيلان جنوبى الإسكندرونة، واجتاز حدود سوريا الشمالية، ودخل إبراهيم باشا بقواته ولاية أدنه فى بلاد الأناضول، وعبر نهرى جيحون وسيحون، ودخل طرطوس وأوروفا، وعينتاب ومرعش وقيصرية.

كانت ولاية أدنه مفتاح الأناضول، وصلة المواصلات البحرية بين مصر وجيشها. لم تنكسر عزيمة السلطان محمود أمام الهزائم التى حاقت بجيشه، وأعد جيشا جديدا بقيادة الصدر الأعظم محمد رشيد باشا، وبلغ قوام هذا الجيش ٥٣ ألف مقاتل، ونشبت معارك شرسة بين الفريقين، انتصر فيها المصريون، وكان أهمها موقعة قونية (٢٧ رجب ١٢٤٨هـ = ٢١ ديسمبر ١٨٣٢م) التى فتحت الطريق أمام المصريين إلى الأستانة عاصمة الدولة العثمانية، التى لا تبعد عنهم سوى مسيرة ستة أيام من البوسفور، فى طريق ليس به جيش ولا مقاومة.

الموقف الأوروبى

استفادت الدول الأوروبية من حالة العداء بين الدولة العثمانية ومحمد على باشا، فلم يبد الإنجليز فى البداية رغبة فى مقاومة الفتوحات المصرية السريعة، بل زودوا

المصريين بالذخيرة، أما فرنسا فكانت مرتاحة لاحتلال محمد على لسوريا، بل حضته على إعلان الاستقلال والانفصال وتشكيل نظام سياسى وثيق الصلة بها، ولم تتدخل أية دولة أوروبية فى هذا الصراع.. فالكل كان فى حالة انتظار وترقب.

ولما استحكم الأمر وظهرت القوة المصرية المتنامية أصبحت الدول الأوروبية موضوعيا فى صف الدولة العثمانية، حتى إن قيصر روسيا العدو اللدود للعثمانيين عرض على الباب العالى تقديم مساعدة عسكرية لقتال محمد على.

جزعت تركيا لسقوط عكا وما تلاها فأعدت جيشاً كبيراً حارب الجيش المصرى فى موقعة حمص التى انتهت بهزيمة الدولة العثمانية، وبلغت خسائرها ٢٠٠٠ من القتلى و٢٥٠٠ أسير، واستولى الجيش المصرى على عشرين من مدافع الجيش العثمانى إضافة إلى الأمتعة والذخائر، أما خسائر المصريين فلم تزد عن ١٠٢ قتيلا فحسب..

وتعد واقعة حمص من أهم المعارك التى خاضها الجيش المصرى، فقد كانت أول معركة كبيرة تقاتل فيها الجيشان المصرى والتركى وجهاً لوجه، وكانت قوات الجيشين متعادلة فكلاهما مكون من حوالى ٣٠ ألف مقاتل، ولكن الجيش المصرى امتاز ببراعة القيادة وحسن التنظيم فلم يكن من المستغرب أن ينتصر فى المعركة..وقد دلت موقعة حمص على تفوق الجيش المصرى على الجيش التركى فى ميادين القتال، فكان لهذا النصر تأثير كبير فى الأذهان لأن أحداً لم يكن يتصور أن جيش السلطان من الممكن أن يهزم أمام الجيش المصرى الذى كان معدوداً فى ذلك الحين جزءا من الجيش العثمانى..

اجتاز المصريون بعد ذلك حدود سوريا الشمالية ودخلوا ولاية أدنة، وهى إحدى الولايات التركية الاستراتيجية، ومع ذلك لم ييأس السلطان محمود سلطان تركيا أمام كل هذه الهزائم، فأعد جيشاً جديداً بقيادة الصدر الأعظم (رئيس وزراء الدولة العثمانية) محمد رشيد باشا، وكان هذا الجيش مؤلفاً من ٥٣ ألف مقاتل هم خليط من أجناس السلطنة العثمانية لا تربطهم رابطة ولا يجمعهم هدف، فمن الطبيعى إذن أن يفقد الجيش أهم عامل لقوته المعنوية وخاصة إذا كان الجيش الذى يقاتله قوياً

متماسكاً كالجيش المصرى، والتقى الجيشان فى موقعة قونية التى انتهت بهزيمة الجيش التركى هزيمة ساحقة، وبعد هذه الموقعة كان الطريق مفتوحاً أمام الجيش المصرى إلى الأستانة عاصمة الدولة العثمانية..

وانتهت حروب مصر فى سوريا والأناضول بإجبار الدولة العثمانية على توقيع اتفاقية كوتاهية بعد تدخل الدول الأوروبية لمنع محمد على من التقدم أكثر من ذلك، واعترفت تركيا لمحمد على فى هذه الاتفاقية بحكم مصر والسودان وجزيرة كريت والحجاز، هذا بالطبع إضافة إلى سوريا وأدنة!

بعد أن تدخلت الدول الأوروبية بثقلها فى المسألة المصرية، ودعت محمد على إلى التفاوض والتخلى نهائيا عن فكرة احتلال الأستانة، وعقدت معه صلح كوتاهية المذكور فى ذى الحجة (١٢٤٨هـ = مايو ١٨٣٣م) الذى ضمن لمحمد على حكم بلاد الشام وإقليم أدنه مع تثبته على مصر وكريت والحجاز، مقابل أن يجلو الجيش المصرى عن باقى الأناضول، وبذلك أصبحت حدود مصر الشمالية تنتهى عند مضيق كولك بجبال طوروس.

واستفاد الأوروبيون بالامتيازات والتنازلات التى حصلوا عليها من العثمانيين فحصل الإنجليز على امتيازات ملاحية فى نهر الفرات، ووقّعت روسيا مع الأستانة معاهدة هنكار أكسله سى الدفاعية الهجومية التى استطاع من خلالها الأسطول الروسى أن يصل إلى مياه البحر الأسود ومنها إلى مياه البحر المتوسط.

أما السلطان العثمانى فسعى إلى نقد اتفاقية كوتاهية، فيما بعد، لأنه رأى أن الخطر الذى يهدد سلطانه يأتى من ناحية مصر.

الحكم المصرى فى بلاد الشام

دخلت الشام فى حكم الدولة المصرية بعد صلح كوتاهية، وصار إبراهيم باشا حاكما عاما للبلاد السورية وقائدا للجيش المصرى، ووطد مركزه الحربى والسياسى بهذه

البلاد، وبلغ عدد الجيش المصرى المرابط فى الشام حوالى سبعين ألف مقاتل، معظمه فى الجهات الشمالية وقد اعترض الحكم المصرى فى الشام عقبتان هما:

- استياء الأهالى من تدابير الإدارة المصرية، ومنها التجنيد الإجبارى. ومصادرة السلاح.
- تدخل قناصل الدول الأجنبية فى الشئون المحلية، وادعاؤهم حماية بعض الطوائف فى الشام.

واشتعلت الثورات ضد الحكم المصرى، وألّب العثمانيون والأوروبيون الشوام ضد المصريين، ودعموا حركات احتجاجهم التى لم تهدأ طيلة سبع سنوات استنزفت خلالها طاقات المصريين العسكرية والمادية، حتى إن خسائرهم فى معركة واحدة ضد الدروز بلغت أربعة آلاف مقاتل بين قتيل وجريح، ولجأ إبراهيم باشا إلى قمع هذه الثورات فازدادت اشتعالا، حتى إن بعض الطوائف المتعادية مثل المارونيين والدروز اتحدت ضد الحكم المصرى، وعم السخط السهل والجبل.

الحرب السورية الثانية

بدأت الحرب بين الطرفين بهجوم عثمانى فى (١ ربيع الثانى ١٢٥٥هـ = ٢٤ يونيو ١٨٣٩م) على مواقع الجيش المصرى فى نصيبين، وانهزم العثمانيون بعد ساعتين من بدء المعركة، وكانت خسائرهم فادحة فقد قُتل وجرح ٤ آلاف، وأسر حوالى ١٥ ألفا، وقضت هذه المعركة على قوة العثمانيين الحربية، وكانت أكبر انتصار لمحمد على باشا.

كانت الهزيمة قاسية على العثمانيين ولم يتحملها السلطان الذى توفى بعدها بعدة أيام، ورأى الأوروبيون أن هناك اتجاهات بين بعض العثمانيين للالتفاف حول محمد على باشا بوصفه منقذ الدولة العثمانية من التفكك، وأن مستقبل نهضتها على يديه، وفى ٢٦ ربيع آخر (١٢٥٥هـ = ٩ يوليو ١٨٣٩م) انضمت جميع وحدات الأسطول العثمانى إلى محمد على باشا فى الإسكندرية، وفى الوقت نفسه احتل الجيش المصرى ميناء البصرة وتقدم باتجاه الأحساء، والقطيف، فأحدث هذا الأمر إرباكا فى السياسة

الدولية للدول الاستعمارية الكبرى، ورأت أن تتدخل بقوة وحزم قبل أن تفلت أزمّة الأمور من يديها، لذلك وجهوا إنذارا إلى محمد على وعقدوا تحالفا أوروبيا ضده، قابله محمد على باستنكار شديد، خاصة بعد ترحيب الأستانة بهذا التحالف.

فكتب محمد على رسالة إلى الصدر الأعظم خسرو باشا يدعوه فيها لعدم الخضوع لسياسات الدول الكبرى التى تصر على بقاء السلطنة فى حالة من الضعف الدائم؛ حتى تتمكن فى اللحظة المناسبة من تفكيكها والسيطرة عليها .. والطريف أن خسرو باشا أطلع الدول الأوروبية على هذه الرسالة السرية.

وانتهى الأمر بإبرام معاهدة لندرة فى ١٥ من جمادى الأولى (١٢٥٦هـ = ١٥ يوليو ١٨٤٠م) بين إنجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا وتركيا، والتى خولت لمحمد على وخلفائه من بعده حكم مصر حكما وراثيا، وأن يكون له مدة حياته حكم المنطقة الجنوبية من سوريا، وأن يدفع جزية سنوية للباب العالى.. وفى حالة رفض محمد على لهذه الشروط فإن الحلفاء سيلجأون إلى القوة لتنفيذها.

كان هدف المعاهدة إخراج مصر من الشام، أما فرنسا فأبدت الرغبة فى عدم الخروج عن الإجماع الأوروبى، وكانت تلك قاصمة الظهر لمحمد على باشا.

وقد انعكس التحالف الأوروبى العثمانى بعد اتفاقية لندرة حربا على المصريين فى بلاد الشام، فأصبحت جميع الموانئ الشامية تحت الحصار الأوروبى، وثار السوريون ضد الحكم المصرى وكذلك اللبنانيون، وعمت الثورات بلاد الشام، وأصدر بطريرك الموارنة مرسوما بحرمان كل من لا يشارك فى الثورة ضد المصريين، وأمضى إبراهيم باشا وقواته عاما فى قمع الثورات الشرسة فتكبد خسائر فادحة فى قواته وعتاده، وتهاوت موانئ بيروت وحيفا وصور وصيدا وسقطت عكا ويافا ونابلس.

وفى هذه الأثناء عزل السلطان العثمانى محمد على عن مناصبه فى سوريا ومصر، وأدرك محمد على أن دفة الأحداث قد تغيرت فأصدر أوامره لإبراهيم باشا بإخلاء سوريا والعودة إلى مصر، وتحول انسحاب القوات المصرية إلى ما يشبه الهزيمة، ولولا عزيمة وكفاية إبراهيم باشا لتحوّل الانسحاب إلى كارثة.

ونتيجة لتنافس الدول الأوروبية تراجع السلطان العثمانى عن عزل محمد على باشا الذى عاد إلى وضعه الطبيعى كوالٍ تابع للسلطان فى الأستانة، وبذلك انتهت الحملة المصرية على بلاد الشام بتصفية أعداد كبيرة من القوة العسكرية المصرية، وانصرف محمد على بعد معاهدة لندرة إلى معالجة الشئون الداخلية بنفسه، ولم يبق له غير مصر والسودان ميدانا لنشاطه، فأنشأ بنكا للدولة، وعمل على استكشاف منابع النيل، ووضع حجر الأساس للقناطر الخيرية، وأرسل كثيرا من البعثات الدراسية إلى أوروبا ونود أن نشير هنا إلى أننا اعتمدنا فى سرد أحداث بلاد الشام على ما سجله الباحث مصطفى عاشور والباحث هانى المصرى وغيرهما، على أية حال فقد انتهى محمد على بعدها كفاتح ومحارب وقائد جيوش شجاع وطموح، وربنا يرحم الجميع.

مشهد النهاية

نشرت جريدة «الوقائع المصرية» فى عددها الصادر عام ١٨٤٦ أن محمد على باشا اجتمع بكبار الموظفين وطلب منهم أن يردوه إلى الصواب وكانوا فى هيئة مجلس شورى ودعاهم لمائدة عشاء، وتحدث إليهم طويلاً عن بلوغه سن الـ٨٠ حيث لم تعد لهم إلا مصلحة الوطن وإسعاد المواطنين. وقال فيهم: «إذا كنت آمر أحدكم شفاهاً أو تحريراً بقولى له أجر المادة الفلانية بهذه الصورة وحصل منه اعتراض على وذكرنى وأفادنى شفاهاً أو تحريراً بأن المادة المذكورة مضرة فهذا يكون منه عين ممنونيتى الزائدة، وأنا مرخص لكم فى ذلك الرخصة التامة المرة بعد المرة» وطلب محمد على منهم ألا يخافوا فى سبيل تحرى المصلحة العامة من أحد حتى لو كانوا أولاده، ثم ختم محمد على تحذيره الطويل بتحذير كل من لا يسلك هذا السبيل فقال على ما نشرته جريدة «الوقائع » «ولتعلموا أنكم إذا لم تحولوا عن خصالكم القديمة من الآن وصاعداً ولم ترجعوا عن طرق المداراة والمماشاة ولم تقولوا الحق فى كل شىء ولم تجتهدوا فى طريق الاستواء، ولم تسلكوا سبيل الصواب لصيانة ذات المصلحة، فلابد لى من أن أغتاظ منكم جميعاً، ولما كنت موفقاً بتقدم هذا الوطن العزيز على أى صورة كانت، وملتزماً فريضته على صرت مجبوراً على قهر كل من لم يسلك هذا الطريق المستقيم اضطراراً

مع حرقة كبدى وسيل الدموع من عينى» هذا الكلام كان عام ١٨٤٦ فى أخريات حياة محمد على باشا حين تقدم به العمر وشارف على الـ ٨ من عمره، ولم ير فى نفسه أنه مؤهل لتحمل مسئولسة أربعة ملايين ونصف مليون مصرى، حيث كان تعداد مصر وقتها، وطلب من حاشيته أن تصدقه القول للصالح العام. وإن لم يكن يدرى محمد على بذلك فلقد كان هذا أول الدروس العملية للديمقراطية التى حاول أن يلقنها لحاشيته، كان هذا قبل وفاته بثلاث سنوات.ويذكر أن محمد على باشا فى آخر سنوات عمره، التى شارفت على الثمانين قد اعتلت صحته وأصيب بضعف فى قواه العقلية وضعف ذاكرته ولم يعد فى استطاعته الاضطلاع بأعباء الحكم، ولم ينجح الأطباء فى علاج هذا المرض.وفى عام ١٨٤٨ نشرت «الوقائع المصرية» فى العدد رقم ١١٣ الصادر فى الخامس من جمادى الثانى أنه نظراً لمرض محمد على فقد تشكل مجلس فوق العادة تحت رئاسة إبراهيم باشا لتسيير دفة أعمال الحكومة، واجتمع الديوان فى ٢٤ من شوال بحضور العلماء والمشايخ وأشراف البلد ومن لزم حضوره من الذوات بديوان الغورى حيث قرئ على رؤوس الأشهاد الفرمان القاضى بتعيين إبراهيم باشا والياً على مصر فى أبريل عام ١٨٤٧ وصدر فرمان التقليد من الباب العالى بذلك، وقد أحب المصريون إبراهيم وأحبهم، غير أن حكمه لم يدم طويلاً إذ توفى فى العاشر من نوفمبر من نفس العام دون أن يتجاوز الـ ٦٠ من عمره ولم تزد فترة حكمه على ٧ أشهر ١٣ يوماً، وقد دعا الأمير عباس الأول ابن أخيه طوسون لكى يلى السلطة طبقاً للنظام الذى أصبح موضوعاً باعتباره أكبر سلالة محمد على.وكان عباس باشا قد خشى على نفسه من بطش عمه إبراهيم باشا لخلافهما فى الرأى والمزاج فرحل إلى الحجاز، ولم يعد منه إلا بعد وفاة عمه، وكان عباس قد تولى الحكم فى حياة جده محمد على الذى توفى فى الثانى من أغسطس عام ١٨٤٩ والموافق هجرياً الثالث عشر من رمضان سنة ١٢٦٥، فى قصر رأس التين بالإسكندرية بعدما حكم مصر طيلة ٤٤ عاماً، وشيعت جنازته فى احتفال مهيب ودفن فى القلعة حيث مثواه الأخير.

■■■



5

أولاد الباشا

■■



إبـراهـيـم بـاشــــا

■■

لا يمكنك أن تتناول سـيرة محمد على باشا بانى مصر الحديثة، من دون أن تتناول سيرة رجل عظيم كان قريبا من محمد على. كلنا نعرفه، حتى وإن لم نعرف عنه شيئا، حتى لو لم تعرف اسمه. من المؤكد أنك تراه ومن يعش فى القاهرة أو حتى زارها فلابد أنه شاهد تمثاله فى ميدان الأوبرا.

إنه إبراهيم باشا ابن محمد على باشا وإن كان هناك من أفراد الاسرة المالكة من كان يرى أن إبراهيم باشا ليس ابنا لمحمد على باشا ولكنه ابن زوجته وبالتالى فان نسل إبراهيم باشا مغتصبون للحكم ولايستحقونه، ومما يدعو إلى هذا القول أن أم إبراهيم باشا عندما جاءت مصر لتتزوج محمد على باشا كانت أصلا متزوجة من غيره. وسبب آخر وهو أن إبراهيم باشا كان قريبا من سن محمد على باشا.ذكر هذا كريم باشا ثابت فى كتابه محمد على باشا الذى صدر فى عهد فاروق.ذكر ذلك وعاد على الفور وأنكر هذا الزعم وقال كريم ثابت:هذه الإشاعة كان مصدرها قنصل فرنسا ولم تكن صحيحة لسبب أن الحب الذى منحه محمد على باشا لم يصدر إلا عن أب وليس زوج أم فضلا عن انه ترك له الحكم فى حـ ياته.سبب آخر ذكره كريم ثابت أن الشبه كان قريبا بين الاثنين أى مـحـمـد على وابرهيم.من الذين تبنوا هذا الرأى من الاسـرة المالكة من ينتسبون الى فروع طوسون وحليم وداود.

على أى حال فإن الأبوة ليست هى أبوة الدم فقط، لذا فإننا نعتبر إبراهيم باشا ابنا لمحمد على باشا أيا ما كانت الحقيقة، وتقول الأوراق الرسمية إنه أكبر أبناء محمد على باشا.

كان قائداً عظيماً ووالياً على مصر، ولد نحو عام ١٧٨٩م فى قَوّلة وهى ثغر صغير على حدود مقدونية وتراقية وكان أثره مهماً فى تاريخ مصر فى عهد أبيه، فقد كان يلقب بيد محمد على الحربية لما كان لأعماله الحربية من أثر فى نجاح سياسة والده.وبحسب موقع الموسوعة العربية فإنه لما توطد مركز محمد على فى مصر أرسل فى طلب ولديه إبراهيم وطوسون من موطنهما سنة ١٨٠٥م واستدعى فيما بعد زوجته وأولاده الصغار، وهم إسماعيل وشقيقتاه سنة ١٨٠٩. لم يكن إبراهيم قد أتم السابعة عشرة من عمره حينما عينه والده على قلعة القاهرة، ثم أرسله سنة ١٨٠٦ رهينة لقاء الخراج الذى وعد الدولة العلية به وتوكيداً لإخلاصه، فرده الباب العالى بعد سنة نظير خدمات أبيه وإعراباً عن نجاح محمد على فى هزيمة حملة الجنرال فريزر الإنكليزية على مصر عام ١٨٠٧. تعلم إبراهيم فى مصر، وعاش فى وسط عربى بحت، وقرأ تاريخ العرب وثقافتهم، مع ما تلقنه من مبادئ العلوم والفنون، وخالط الرجال فى مجالسهم وعاش صريحاً جاداً مترفعاً عن الدنايا محباً للنظام.وكان إبراهيم ذا هيبة ويقظة دائمة، حاد المزاج، سريع الغضب، يضرب لجنوده المثل بنفسه فى البسالة وخوض الغمرات وكان يتكلم اللغات التركية والعربية والفارسية.وفى عام ١٨١٦ أرسله أبوه إلى الجزيرة العربية، ولما يتجاوز السادسة والعشرين من عمره، بغية الوصول إلى نتيجة حاسمة فى الحرب مع الوهابيين، بزعامة الأمير عبد الله بن سعود بن عبد العزيز بن محمد، التى كان يخوضها أخوه طوسون من ١٨١١-١٨١٣م امتثالاً لأوامر السلطان العثمانى محمود الثانى. اتخذ إبراهيم من الحناكية مركزاً يوجه منه هجومه على الوهابيين، واعتمد إبراهيم فى سياسته هناك على ولاء القبائل التى سيجتاز بلادها إلى نجد، لتأمين طريق الحملة، فأحسن معاملتها، ومنع جيشه أن يأخذ شيئاً من دون دفع ثمنه، فخضعت له القبائل إلا أقلها.حاصر إبراهيم باشا الرسّ جنوبى القصيم واستولى عليها ثم زحف إلى عنيزة فاستسلمت واقتحم بريدة عنوة، ثم حاصر الدرعية فى ٦ نيسان سنة ١٨١٨، واستمر حصارها خمسة أشهر وبضعة أيام، وفى ١٩ أيلول ١٨١٨ استسلم عبد الله بن سعود، فأرسله مع أفراد أسرته إلى مصر وانتهت

الحرب.عمل إبراهيم على كسب ود القبائل التى حاربته، فأعلن الأمان وأغدق المال على من انضم إليه، ورد النخيل الذى كان قد صادره إلى أصحابه، وكان لحسن لقائه وسعة صدره وكرمه أثر إيجابى بالغ.وعنى بتحصين المواقع الحربية المهمة فى البلاد ووضع فى الوقت نفسه أساس الإصلاح الزراعى، فأمر بحفر الآبار، وعنى بتنظيم التموين فى مكة والمدينة، وحرص على توفير الأمن على طريق الحج، وعلى توزيع مرتبات من الغلال على فقراء الحرمين والمجاورين، ونال فى أثناء ذلك لقب الباشوية من السلطان العثمانى.عاد إبراهيم مظفراً إلى القاهرة فى كانون الأول سنة ١٨١٩، وبعد ذلك بقليل ولاه السلطان على جدة، وفى غضون ذلك ناط محمد على بابنه الثالث إسماعيل فتح بلاد السودان للكشف عن مناطق الذهب المعروفة، وجلب الجنود لتأليف جيشه الجديد منهم. واضطر إلى إرسال ابنه إبراهيم إلى السودان بإمدادات عسكرية لدعم أخيه، ولكنه سرعان ما عاد إلى القاهرة لمرض أصابه فى أوائل عام ١٨٢٢م حيث اشترك فى تدريب الجيش الجديد الذى تألف من المصريين العرب، ووكل أمره إلى الكولونيل سيف (Séve سليمان باشا الفرنساوى) الذى ساعد إبراهيم فى حروبه اللاحقة فى اليونان والشام. وفى أوائل عام ١٨٢٤ كُلف إبراهيم باشا القضاء على الثورة فى اليونان، فانطلق على رأس جيش قوى مدرب يحمله أسطول مؤلف من ٥١ سفينة حربية و١٤٦ ناقلة جند بحرية، ونزل فى شبه جزيرة المورة، فاستولى على نافارين ودخل تريبولتزا Tripolitsa وفى أيلول ١٨٢٥ تمكن من إخضاع المورة بأكملها والتفت إلى معاونة العثمانيين فى حصار ميسولونجى Missolonghi فسقطت فى نيسان ١٨٢٦، وبذلك فتح الطريق إلى أثينة التى سقطت فى تموز من العام نفسه، وتدخلت الدول الأوربية الثلاث إنكلترة وفرنسة وروسية وعقدت معاهدة لندن (تموز ١٨٢٧) وفرضت الهدنة وأصبحت أساطيل الحلفاء خارج مياه خليج نافارين التى كان يرابط فيها الأسطولان المصرى والعثمانى. وانتهز أمير البحر الإنجليزى كودرنجتون Codrington فرصة غياب إبراهيم باشا فدخلت سفنه مع السفن الفرنسية والروسية مياه نافارين، وكان بمقدور أمير البحر المصرى أن يحول دون دخولها باستخدام

مدفعية أسطوله المسيطرة على مدخل الخليج والبطاريات المنصوبة على البر، ولكنه تمسك بالهدنة المتفق عليها، وأصر مع زميله أمير البحر العثمانى على أن لا يكون العدوان من جانبهما، ونشبت معركة نافارين (٢٠ أكتوبر ١٨٢٧) التى دامت أربع ساعات، ودمرت أساطيل الحلفاء المتفوقة الجزء الأكبر من الأسطولين المصرى والعثمانى، وقررت الدول المتحالفة الثلاث فى تموز ١٨٢٨م إبعاد إبراهيم عن المورة، وتكليف فرنسة إجراء الاتصالات لتنفيذ القرار، ووصل إبراهيم الإسكندرية فى تشرين الأول ١٨٢٨ مع ٢٤ ألف جندى حملتهم ٢٦ سفينة حربية و٢١ ناقلة هى كل ما بقى من أسطوله بعد نافارين. ولما كان محمد على يدرك أهمية بلاد الشام الاستراتيجية والاقتصادية فقد حاول عبثاً إقناع السلطان بتقليده حكمها، ولقد طلب فعلاً من السلطان، أيام الحرب السعودية، أن يعهد إليه بولاية الشام متذرعاً فى ذلك بحاجته إلى المدد منها للمعاونة فى القتال. لكن الحرب السعودية وفتح السودان صرفاه مؤقتاً عما يريد، حتى تجدد عزمه على المطالبة بولاية الشام بعد الحرب اليونانية، ولما أخفقت مساعى محمد على فى إقناع السلطان بتقليده حكم سورية، تذرع بمعاقبة والى عكا، عبد الله باشا الجزار لامتناعه عن وفاء دين سابق مترتب عليه لمصر، وعرقلة وصول أخشاب الشام إلى مصر، وحماية المصريين الفارين من الجندية، فندب ولده إبراهيم باشا لقيادة الحملة الموجهة إلى بلاد الشام فى ٢٩ أكتوبر ١٨٣١، وقدرت قوتها بحدود ٣٠ ألف مقاتل مع عمارة حربية تقارب ٣٥ سفينة حربية وسفن إمداد، وتحركت القوات البرية باتجاه سيناء فبلغت العريش واحتلت خان يونس ثم غزة ويافا (٨ نوفمبر ١٨٣١) وفى ٢٦ تشرين الثانى ١٨٣١م ضرب الحصار على عكا بعد وصول العمارة الحربية المصرية.انقضت ثلاثة أشهر من غير أن ينال من المدينة منالاً، ولكن إبراهيم استغل هذه المدة والحصار قائم فى احتلال المواقع المهمة فى ولاية صيدا (وقاعدتها يومذاك عكا) وما حولها، فاحتلت قوة من جنوده صور وصيداء وبيروت وطرابلس، واحتلت قوة أخرى القدس، وداخل القلق السلطنة من أعمال محمد على، فحشدت جيشاً من عشرين ألفاً بقيادة عثمان باشا، وانتصر إبراهيم باشا على الجيش العثمانى فى

معركة الزرّاعة بين حمص وبعلبك فى ١٤ أبريل ١٨٣٢م ثم عاد ليشدد الحصار على عكا، فسقطت فى يده فى أواخر مايو ودخل دمشق فى ١٦ يونيه وجعلها مقر حكومة أبيه فى الشام، ثم انتصر ثانية عند حمص على طلائع الجيش العثمانى، ودخل حمص وحماة، وزحف على المواقع العثمانية فى مضيق بيلان حيث تحصن حسين باشا قائد الجيش العثمانى، وهناك وقعت المعركة الحاسمة بين إبراهيم باشا وحسين باشا (٣٠ يوليو ١٨٣٢م) وانتهت بهزيمة منكرة للجيش العثمانى وقائده حسين باشا الذى هرب على إثرها، ومضى إبراهيم فى الزحف فاحتل الإسكندرونة وباذياس وسُلمت له أنطاكية واللاذقية، ولم يلبث أن احتل أضنة وأورفة وعينتاب ومرعش وقيصرية، وانتصر فى قونية على الجيش العثمانى وأسر قائده الصدر الأعظم رشيد باشا، وغدا الطريق إلى العاصمة اسطنبول مفتوحاً أمام قوات محمد على بفضل تفوق الجيش المصرى ومستواه العسكرى الممتاز، وبفضل مواهب إبراهيم باشا القيادية، ولما وصل إبراهيم كوتاهية فى مايو ١٨٣٣ تلقى أمراً من أبيه بالتوقف، لتهديد الدول الأوربية بالتدخل.عُقدت معاهدة كوتاهية بين الباب العالى ومحمد على، نال فيها الأخير حكم بلاد الشام وأضنة، ومنح إبراهيم لقب محصل أضنة، وبذلك دخلت الشام فى حكم الدولة المصرية، وصار إبراهيم باشا حاكماً عاماً للبلاد السورية معيناً من قبل والده، إضافة إلى تجديد ولايته على جدة من قبل السلطان.انصرف إبراهيم باشا إلى تنظيم البلاد ساعياً إلى تجديد أحوالها وتحديثها فى جميع المجالات الإدارية والاقتصادية والمالية وقامت سياسته على مبدأ المساواة فى الدين والمساواة أمام القانون كما حاول أن يدير بلاد الشام على أنها قطر واحد يسكنه شعب واحد، فاصطدم بالفروق والخلافات القائمة بين الطوائف، وتفاقم الخطب حين عمدت بريطانية وروسية والدولة العثمانية إلى تغذية القلق والاستياء بالدس وتحريض الناس للثورة على إبراهيم باشا. وخاصة بعد توقيع معاهدة «هنكار أسكله سى» الدفاعية بين الدولة العثمانية وروسية (يوليو ١٨٣٣) لوقف الزحف المصرى، وكان من نتيجة ذلك حدوث الفتن والثورات على حكم إبراهيم باشا فى بلاد الشام ولاسيما فى لبنان، ومن أسباب

موقف بلاد الشام هذا من إبراهيم باشا . إضافة إلى التدخل الأجنبى . ما قام به من احتكار تجارة الحرير وأخذ ضريبة الرؤوس (الفردة) من الرجال كافة على اختلاف مذاهبهم، وكانت ضريبة الرؤوس سابقاً لا تؤخذ إلا من أهل الذمة واضطر إبراهيم باشا إلى قمع هذه الحركات بشدة ومصادرة السلاح من الأهالى فى جميع أنحاء البلاد، وقد صوَّر جمع السلاح مقدمة لتجريدهم من القوة أو لتجنيدهم وانتقاص حقوقهم، وتأكد للدولة العثمانية أن اضطراب الأحوال ضايق حكومة إبراهيم باشا وأرهق قواها، فحشد السلطان محمود قواته من جديد واستأنف الحرب على إبراهيم باشا لاسترداد بلاد الشام بتحريض من بريطانية، ووقعت معركة فاصلة عند نزيب نصيبين الواقعة قرب عينتاب، (وليست نصيبين الحالية تجاه القامشلى) فى يونيه ١٨٣٩م حقق فيها إبراهيم باشا نصراً مبيناً على الجيش العثمانى الذى كان يقوده حافظ باشا، وانحاز فوزى باشا قائد الأسطول إلى محمد على، ولكن الموقف تبدل بسبب تدخل الدول الأوربية بريطانية وروسية وبروسية والنمسة التى عقدت فيما بينها معاهدة لندن (يوليو ١٨٤٠م) وقضت بإجبار محمد على على سحب قواته من بلاد الشام حتى عكا. والاكتفاء بولاية مصر وراثية له ولأولاده من بعده، ولما كان محمد على يطمع فى مساعدة فرنسة له، فقد رفض الانصياع للمعاهدة، لكن فرنسة خذلته، وحاصرت أساطيل الحلفاء شواطئ الشام ومصر، ووجد إبراهيم باشا نفسه فى موقف حرج بين جيوش الحلفاء التى نزلت البر وأهالى لبنان الذين أثيروا عليه، واستسلم الأمير بشير الشهابى حليف محمد على للحلفاء فى صيدا التى استولى عليها أمير البحر الإنجليزى نابيير Napier كما استولى على بيروت وعكا وصيداء ويافا فاضطر محمد على، فى مفاوضاته مع نابيير، إلى قبول التخلى عن بلاد الشام فى نوفمبر ١٨٤٠م وغادر إبراهيم باشا دمشق مع جيوشه فى ٢٩ ديسمبر ١٨٤٠م مرتداً إلى مصر عن طريق غزة وبعث شطراً منها عن طريق العقبة. انصرف إبراهيم بجهوده فى السنوات التالية إلى شئون مصر الإدارية، وكان قد لمس أهمية الزراعة فى حياة مصر منذ أن كان دفترداراً (أى مفتشاً) عاماً للحسابات سنة ١٨٠٧، ثم حاكماً على الصعيد

سنة ١٨٠٩ حيث طرد فلول المماليك وأخضع البدو وأعاد الأمن والنظام إلى البلاد، وأسهم فى تطبيق سياسة أبيه الاقتصادية الرامية إلى زيادة الموارد المالية لمصر وتنفيذ إصلاحاته وتقوية نفوذه، كما أدخل إلى مصر بعض الزراعات النافعة التى رأى أنه يمكن نجاحها فى مصر من فاكهة وخضار وأشجار ونبات للزينة، وعمل على إكثار شجر الزيتون والتوت، وزراعة قصب السكر، وعنى بتطوير الثروة الحيوانية، وأنشأ صحيفة أسبوعية تشتمل على أخبار الزراعة والتجارة، وفى مطلع عام ١٨٤٧ تألف المجلس الخصوصى برئاسته للنظر فى شؤون الحكومة الكبرى، وسن اللوائح والقوانين وإصدار التعليمات لجميع مصالح الحكومة، وفى أبريل ١٨٤٨ أصبح إبراهيم باشا الحاكم الفعلى للبلاد، لأن والده اعتل اعتلالاً شديداً لا برء منه، ولم يعد قادراً على الاضطلاع بأعباء الحكم، وفى سبتمبر ١٨٤٨م منح السلطان العثمانى إبراهيم ولاية مصر رسمياً، لكنه لم يُكمل العام فى منصبه، وتوفى قبل والده فى ١٠ نوفمبر ١٨٤٨ عن ستين عاماً، وترك من الأولاد بعد وفاته، أحمد، وإسماعيل (خديوى مصر فيما بعد) ومصطفى.كان إبراهيم باشا عربى اللغة والعاطفة، وإن لم يكن عربى المولد، وكان ينوه بفضل العرب على المدنيّة والتاريخ، يقول معاصره البارون دوبوا لوكومت De Bois Le Comteإنه كان يجاهر بإحياء القومية العربية ويعد نفسه عربياً، وسئل كيف يطعن فى الأتراك وهو منهم فأجاب: «أنا لست تركياً فإنى جئت إلى مصر صبياً، ومن ذلك الحين مصرتنى شمسها وغيرت من دمى وجعلته دماً عربياً» وكتب إلى أبيه فى أثناء حصار عكا حين بلغه أن السلطان حشد الجيوش لدفع الجيش المصرى عن أسوارها «ومهما بحثوا فلا يمكنهم أن يعثروا على مثل جنود العرب الذين أقودهم أنا.

■■■



الأولاد والأحفاد

■■

١ـ طوسون باشا

طوسون باشا ابن محمد على باشا الكبير: حاكم مصر. ولد سنة ١٢١٠هـ/١٧٩٦م، وكان كأبيه عزما وحزما وشجاعة وحبا بالأعمال العظيمة، سيره والده محمد على باشا فى حملة الى الحجاز للقضاء على الحركة الوهابية هناك سنة ١٢٢٦هـ، وفتح المدينة المنورة، ومكة والحجاز، وخارت عزائم الوهابيين، فسر والده بهذا الفتح. وتشاغل مع الوهابيين بعد ذلك فى وقائع عدة، وفى أكثرها انتصر عليهم، وعندما بلغه حصول قلاقل فى مصر، استبقى حامية فى المدينة، وسافر إلى القاهرة، وذهب إلى الإسكندرية حيث كان أبوه هناك، ولم يقم بها مدة طويلة حتى أدركته المنية فيها ١٢٣١هـ/١٨١٦م، فنقل جثمانه إلى القاهرة ودفن فيها، وكان جميل الطلعة، متوقد الذهن، ميالا للعلم، ذا بأس وحزم.

طوسون باشا ابن حاكم مصر سعيد باشا: ولد سنة ١٢٦٨هـ/١٨٥١م، وعنى والده بتربيته وتعليمه، فبرع فى العلوم الابتدائية، وبعض اللغات، ثم مارس الفنون الحربية، وقلد نظارتى الأوقاف والمعارف وحسن فيها وأصلح، وتولى نظارة الحربية مدة من الزمن، وتوفى فى ريعان شبابه سنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م، ودفن بالإسكندرية.

ومن أولاد وأحفاد محمد على باشافروع أسرة محمد على السبعة البيت الأول السلطان حسين كامل والذى حكم مصر فى بدايات القرن الماضى ١٩١٤- ١٩١٧ م من بين فروع أسرة محمد على السبعة التى لم يتبق منها أحد على قيد الحياة... وكانت

صورته تطبع على الجنيه المصرى القديم، والتعريفة أياما والنكلة والملاليم هو شقيق الخديو توفيق أضعف الحكام فى هذه الأسرة.. وأنجب سبعة أبناء خمس بنات وولدين، مات أحدهما فى سن الخامسة أما الثانى فهو الأمير كمال الدين حسين كامل والذى تزوج ومات دون أن ينجب..والأمير كمال الدين حسين شخصية فريدة من نوعها بالرغم من تجاهل كتب التاريخ له، فهو الشخص الوحيد الذى عرض عليه عرش مصر ورفضه كان ذلك عام ١٩١٧،، والمثير أن الأمير كمال الدين حسين كامل رفض عرش مصر بعد رحيل والده السلطان حسين كامل، ليتولى الحكم الملك فؤاد الأول، ومن بعده نجله فاروق آخر ملوك مصر.. أما باقى بنات السلطان حسين كامل، فهن الأميرات كاظيمة كميلة قدرية سميحة بديعة فكلهن توفين..والأميرة سميحة حسين هى صاحبة القصر الرائع المطل على نيل الزمالك، والذى تحول لمكتبة القاهرة منذ عدة سنوات، وكانت مشهورة ومعروفة بحبها للثقافة والفنون والأدب.. ويقال إنها كانت زوجة لواحد من الفنانين لن تتخيلوا من هو!!

إنه محمود شكوكو، ومن المعروف أن تمثال شكوكو كان يباع شعبان بقرش صاغ مصرى، وأحيانا يتم استبداله بإزازة (زجاجة) مياه غازية فارغة، بعد أن لمع نجمه فى الفنون الشعبية، والجدير بالذكر أن تمثال الأميرة سميحة كان يباع كذلك مع تمثال شكوكو على خلفية الشائعة، التى ربما تكون حقيقة، والتى تقول إنهما تزوجا فكان البائعون يطلقون نداء شهيرا فى تلك الأثناء: شكوكو بإزازة، سميحة بإزازة.والأميرة كاظيمة، هى صاحبة أجمل قصر ملكى على الإطلاق، والذى استغرق إنشاؤه عدة سنوات طويلة، وللأسف لم تطأ قدم كاظيمة أرض هذا القصر على الإطلاق، بالرغم من الديكورات والزخرفة الهائلة وآلاف الجنيهات الذهبية التى أنفقت على إنشائه، واختارت تركيا هذا القصر بالذات ليكون مقرا لسفارتها بالجيزة، نظرا لفخامته وروعته..البيت الثانى فهو بيت حسن باشا كامل وهو شقيق السلطان حسين كامل، ولم يتبق من هذا الفرع سوى النبيل حسن حسن كامل ٧٧ سنة وكان أحد الأمراء الموجودين فعلا عند قيام ثورة ٢٣ يوليو..والأمير حسن كامل يعيش فى أحد القصور بجاردن

سيتى، لم يتزوج ولم ينجب، وهو نجل الأمير عزيز حسن كامل، وكان هذا الفرع يضم الأميرات السابقات خديجة وعائشة حسن حسين كامل، وجاءتا نتيجة زواج والدهن الأمير حسن من أمهما لاعبة السيرك الإسبانية، وهو ما أثار غضب الملك فؤاد الأول فى ذلك الوقت فأصدر مرسوما ملكيا.. بتجريد الأمير حسن وأولاده من بعده من أية ألقاب ملكية أو أميرية، والتى كانت تمنح لهم طبقا للمراسيم الملكية..أما الوحيد الذى مازال يعيش فى مصر ويحمل لقب أمير بالفعل، فهو الأمير عباس حلمى ٦٧ سنة، أما الباقون فهم مجرد نبلاء، وعباس حلمى يقطن فى ضاحية مصر الجديدة، وكان يعمل موظفا بأحد البنوك بنك مصر واستقال وعمل بالبورصة وكون ثروة كبيرة من عمله بالبورصة.. وهو ينحدر من البيت الثالث وهو بيت الخديو توفيق ولم يتبق منه سوى عباس حلمى وأفراد أسرته، وهو نجل الأمير محمد عبدالمنعم، صاحب قصر المنيل الشهير، والذى كان وصيا على الأمير أحمد فؤاد عند قيام الثورة وتشكيل مجلس الوصاية على العرش..والأمير محمد عبدالمنعم والذى رحل فى الستينات هو عباس حلمى الأول والذى حكم مصر فى بداية القرن الماضى.. أما الأمير عباس حلمى فأولاده هم داود وصبيحة والذين يديرون أعماله وشركاته..ومن حسن حظ عباس حلمى أنه ولد قبل صدور المرسوم الملكى الذى أصدره الملك فؤاد الأول.. حيث قضى المرسوم بأن بألا يمنح المولودون لأبناء الأمراء والأميرات لقبا أميريا إلا بعد أن ينعم عليه الملك باللقب، ولذا فكل مولود بعد هذا المرسوم يحمل لقب نبيل لحين صدور قرار منحهم لقب الإمارة.وأحمد رفعت باشا هو نجل ابراهيم باشا ولى عهد الخديو سعيد فى القرن التاسع عشر، ومات فى حادث قطار كفر الزيات بعد ما غرقت المعدية بالقطار وانتقلت ولاية العهد إلى شقيقه إسماعيل باشا والذى أصبح فيما بعد الخديو إسماعيل..وتبقى من هذا الفرع النبيل أحمد رفعت وابن عمه النبيل عثمان رفعت، فى العقد السادس، ولم يتزوجا إلى الآن، والنبيل أحمد رفعت هو ابن الأمير محمد على ابراهيم ابن الأمير محمد سيف الدين شقيق الأميرة شويكار، والذى قام بإطلاق الرصاص على الملك فؤاد فى الواقعة الشهيرة وقضى بقية حياته فى مصحة

نفسية بلندن واسطنبول.والنبيل عثمان رفعت هو ابن النبيل عمرو ابراهيم، ومازالت شقيقاته على قيد الحياة ومنهن النبيلات نعمت الله وأمينة وإنجى عمرو ابراهيم، ونعمت الله تدير أحد المحلات الشهيرة بالزمالك، وهذا الفرع له العديد من الأولاد والبنات، والأحفاد، يعيشون فى مصر وبالتحديد فى ضاحية الزمالك، لكن أغلبهم يعيش خارج مصر وخاصة فى سويسرا، وباريس وإيطاليا..هو بيت الأمير إبراهيم حلمى، هو نجل الخديو اسماعيل، وكان قد أنجب أربع بنات وأميرا، رحلوا جميعا دون أن ينجبوا ورثة لهم..ومن البيوتات أو الفروع التى أصابتها اللعنة مبكرا وانقرضت فعلا ولم يتبق منها أحداما بيت فاضل ومنهم أبناء وأحفاد يعيشون فى استراليا الآن، بعد تغيير ديانتهم، المثير فى أسرة محمد على أن بعضهم يهوى الزواج من يهوديات مثل الأمير أحمد فؤاد، وبالتالى فإن أبناءهم يهود بحكم العقيدة اليهودية، وبعضهم تزوج من اقباط مثل شقيقة الملك فاروق التى تزوجت رياض غالى وهاجرت وعاشت فى أمريكا مع أمها الملكة نازلى، وانفصلت عن رياض غالى فيما بعد فاضطرت لأن تعمل عاملة فى أحد المحلات الأمريكية وكانت أحيانا تضطر لتنظيف المحل، ناهيك عن شقيقة فاروق الأخرى التى تزوجت شاه إيران محمد على بهلوى وأنجبت منه ابنه، بجانب باقى الأمراء والأميرات الذين يعيشون فى سويسرا وهى تمركزهم المنفى الاختيارى لهم، والبعض قام بتغيير ديانته كما حدث فى أسرة فاضل.وهذا الفرع ينحدر من نسل مصطفى بهجت فاضل شقيق الخديو اسماعيل باشا، ومنطقة مصطفى كامل الشهيرة بالإسكندرية سميت باسمه لأن هذه المنطقة كانت عنده بمثابة حدود قصره الفخم جدا، وكان من أثرى أثرياء عائلة محمد على، على الإطلاق، مما أثار طمع وغيرة شقيقة الخديو إسماعيل، والذى أصدر فرمانا ملكيا بعد خلاف مفتعل معه بتجريد شقيقه من ممتلكاته وأطيانه وأمواله، وقام بترحيله لتركيا، لكى لا ينازعه أبناؤه فيما بعد على وراثة العرش، وحصرها فى بيته وأولاده من بعده، أو أن يطالبوا بتلك الأموال والممتلكات والثروات الطائلة.والأمير مصطفى راغب أنجب ١٦ ابنا ماتوا جميعا، دون أن يتركوا وريثا للعرش حينئذ..وبعض من تبقى من هذا الفرع

من البنات، فمن بتغيير دياناتهن للمسيحية، مما عرضهن للغضب الملكى وتم سحب الألقاب الملكية منهن وتجريدهن من تلك الألقاب حتى قبل قيام ثورة يوليو.وفى أستراليا يعيش هناك مارتا إليكس فاضل وعلى فيليب فاضل، وجيو جوفوكس ورد فاضل، وهذا الفرع من البنات انقطعت صلاته تماما بأقاربهن من أسرة محمد على، ويتعرضن للمقاطعة والغضب الملكى من عقود عديدة..ومن الفروع الكبيرة فى أسرة محمد على هو فرع طوسون الشهير، وهناك فرع الأمير طوسون باشا، ابن محمد على واندثر هذا الفرع مبكرا جدا قبل بداية القرن العشرين.وهناك فرع آخر لبيت طوسون وهو فرع الأمير محمد طوسون حفيد محمد على باشا، وابن الخديو سعيد والى مصر..وهذا الفرع قدم خدمة جليلة لمصر، بعدما تبرعت الأميرة فاطمة بحليها وبمجوهراتها لإنشاء الجامعة الأهلية فى مصر والذى أصبحت جامعة القاهرة..كما أن أحدهم أيضا تبرع بقصره الذى أصبح جامعة أون أو عين شمس، ويلاحظ أن معظم القصور الملكية تحولت إلى جامعات ومدارس ومعاهد ومتاحف..والذى تبقى من هذا الفرع ويعيش فى مصر هم النبلاء محمد حسين طوسون وفى باريس حسن سعيد طوسون وشقيقه عزيز، كما يعيش معهم فى باريس ابنة عمهم النبيلة ملك بيير طوسون وابن عمهم النبيل توفيق محمد طوسون..وفى باريس يعيش النبيل محمد حسن طوسون مع ابنتيه كريمة وياسمين، فى عقدهما الثالث الآن، ولم ينجب ذكورا، ويأتى لزيارة القاهرة من حين لآخر، بعد إعادة الجنسية المصرية له ولعدد كبير من أفراد أسرة محمد على فى عهد الرئيس الراحل أنور السادات، بعدما كانت سحبت منهم بعد الثورة.بيت داود وهذا الفرع يعود نسبه إلى إسماعيل داود ابن محمد على باشا الصغير أصغر أبناء محمد على باشا ولم يتبق من هذا الفرع إلا (إسماعيل داود) فى العشرينات من عمره الآن ابن النبيل عبدالعزيز عزت، والذى توفى قبل عشرين عاما اثر سكتة قلبية.وهذا الفرع يعيش أفراده فى الزمالك، فى هدوء شديد ويتميز أفراده بانهم أكثر أفراد أسرة محمد على تواضعا وهدوءا، ويحظون بحب الجميع حتى بما فيهم أقاربهم من أسرة محمد على نفسها..وبيت حليم ينتمى لفرع محمد

عبدالحليم باشا أحد أبناء محمد على باشا الكبير، والذى أنجب ابنا وابنة واحدة، وآخر الرجال فى هذا الفرع هو محمد على حليم ٦٦ سنة ويعيش فى باريس ولم يتزوج ولم ينجب..ومن النبيلات المتبقيات من هذا الفرع أوليفيا حليم، وبكيزة حليم، وفادية حليم، ويعشن جميعا فى القاهرة..والنبيلة أوليفيا حليم كانت متزوجة من رجل أعمال إيطالى..والبيت الأخير أو الفرع الأخير فى أسرة محمد على هو بيت الملك فؤاد والد الملك فاروق آخر ملوك مصر، وهذا البيت يحظى أفراده باهتمام الشعب المصرى، خاصة أنه حكم مصر لفترة طويلة قبل أن تقوم ثورة يوليو وأحد أفراده يتولى عرش مصر وبالرغم من ذلك كانت باستمرار هناك رغبة وحنين، لمتابعة أخبار أميرات ونبيلات هذا الفرع، بجانب حب استطلاع لمعرفة نزوات وغراميات الملك فاروق حتى ولو كانت مزعومة.. ويكاد يكون الجيل الحالى والذى سبقه لا يعرف شيئا عن أسرة محمد على سوى الملك فاروق وأبنائه وشقيقاته وزوجاته وخاصة فريدة وناريمان..ومن هذا الفرع يتبقى الأمير أحمد فؤاد الثانى والذى يعيش فى باريس منذ سفره إليها بعد إلغاء الملكية وظل لفترة شهور ملكا تحت الوصاية وهو مازال طفلا رضيعا، وتلقى تعليما عاليا فى الخارج، ومر بأزمات مالية خاصة بعد رحيل والده الملك فاروق ونفاد مدخراته، وأحمد فؤاد انفصل مؤخرا عن زوجته اليهودية التى غيرت اسمها إلى فضيلة بعدما كان اسمها دومينيك فرانس بيكار ويواجه أحمد فؤاد شبح أن أبناءه أصبحوا يهودا بالتبعية، وهم محمد على ٢٢ سنة والذى ولد فى القاهرة بناء على موافقة من الرئيس السادات الذى وافق على مجئ أحمد وزوجته ليتم ولادته ابنه فى القاهرة، وابنته الثانية فوزية ١٩ سنة، واسمها الحقيقى لطيفة والتى شاركت منذ عامين فى أحد عروض الأزياء الخيرية بباريس ضمن مجموعة من بنات الأمراء فى العالم..أما فخر الدين ١٦ سنة الابن الثالث لأحمد فؤاد، فتمت ولادته فى كازبلانكا بالمغرب، بدعوة شخصية من الملك الحسن الثانى ملك المغرب..وأحمد فؤاد ابن الملك فاروق من زوجته الثانية الملكة ناريمان، والذى كان يحلم فاروق بإنجابه منذ جلوسه على العرش..ولا أحد يعرف من أفراد أسرة محمد على سر تخلى زوجته اليهودية (دومنيك

فرانس بيكار) عنه..أما شقيقات أحمد فؤاد الأميرات فريال، فوزية، فادية يعشن الآن فى سويسرا، وهن بنات فاروق من زوجته الأولى الملكة فريدة، صافيناز ذو الفقار التى اضطرت قبل رحيلها لتكسب قوتها من اللوحات التى كانت ترسمها وتقوم ببيعها، وزارت مصر فى منتصف التسعينات قبل رحيلها..وعند قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، كانت أعمارهن ١٣، ١٢، ٨ سنوات، وكان أحمد فؤاد عمره لا يتجاوز الشهور الستة..واصطحب فاروق الأميرات معه إلى إيطاليا ليعشن بعيدا عن أمهن فريدة والتى كانت تخشى السفر لروما لرؤية بناتها خوفا من فقدانها الجنسية المصرية، ولكن بعد انتقالهن لسويسرا كانت تسافر كثيرا لرؤيتهن، وعندما ماتت حضرت الأميرات الثلاث لمصاحبة جثمانها لمثواه الأخير..والأميرة فريال عندما كان عمرها ٢٣ عاما وبالتحديد عام ١٩٦٢ وقعت فى غرام شاب يعمل رساما، كان يقوم بعمل ديكورات للفيلا الصيفية الخاصة بوالدها الملك فاروق فى نابولى، ورفض زواجها منه، التحقت بكلية السكرتارية وعملت كسكرتيرة ومدرسة للآلة الكاتبة..وعندما وقع الملك فاروق فى غرام مغنية الأوبرا الشهيرة (ايرما كانوزا) ودعاها للإقامة فى الفيلا، غادرت الأميرات الثلاث إلى منتجع أسرة محمد على الشهير بسويسرا..أما شقيقتها فادية فلقد تزوجت فى عام ١٩٦٠ من شخص سويسرى من أصل روسى، وأشهر إسلامه فى الأزهر بعدما جاء للقاهرة خصيصا لهذا الغرض، وأنجبت منه شامل وعلى وهما فى الثلاثينات الآن، ويمتلك زوجها مزرعة لتربية الخيول العربية وتساعد شقيقتيها..والأميرات الثلاث أعمارهن الآن فريال ٦٢ سنة، وفوزية ٦١ سنة، وفادية ٥٧ سنة بينما يبلغ عمر شقيقهن أحمد فؤاد ٤٩ سنة..بينما لم تتزوج الأميرة فوزية، والتى كانت تعمل مترجمة وعملت فترة فى مجال السياحة..من ناحية أخرى تزوجت الملكة ناريمان والدة الأمير أحمد فؤاد بعد الثورة من الدكتور أدهم النقيب وتعيش معه فى مصر الجديدة، وأنجبت منه طبيبا أكرم يعيش الآن فى الاسكندرية وعند زواجه جاء أحمد فؤاد خصيصا لحضور حفل زفاف شقيقه من والدته بالاسكندرية..من ناحية أخرى فإن الأميرة فوزية والتى تزوجت شاه إيران محمد رضا بهلوى، وبعد طلاقها منه والأزمة الشهيرة

التى وقعت بين مصر وإيران بسبب هذا الطلاق، فلقد تزوجت بعد طلاقها من اسماعيل شرين آخر وزير حربية فى مصر قبل ثورة يوليو ١٩٥٢، وتعيش معه الآن بمنطقة سموحة بالاسكندرية، وترفض تماما الحديث مع أحد..!!

■■■





علاقات سياسيــة

■■

أولا: الشيشـــان

لم تكن أهمية محمد على وتجربته قاصرة على مصر، ولا حتى على المنطقة العربية والشرق الأوسط. فامتدت لتشمل تأثيرا على بقاع كثيرة فى العالم، بل يمكنك القول ببساطة أن العالم أجمع تأثر بتجربة محمد على بما فى ذلك أميركا التى لم تكن وقتها ولايات متحدة، بل كانت ولايات متطاحنة تخوض حربا أهلية ضروسا. فمن الثابت تاريخيا أن محمد على كان يبيع الذخيرة والأسلحة المتطورة التى كان ينتجها للأطراف المتناحرة.

ونلقى هنا نظرة على علاقات محمد على باشا بدول وأعراق مهمة، ويمكننا رصد علاقة محمد على باشا بالشيشان وبشعب البوشناق من خلال دراسات الكاتب محمد الأرناؤوط حيث يلاحظ أنه قد تميز مطلع القرن التاسع عشر ببداية انقلاب كبير فى العالم الإسلامى، وخاصة فيما يتعلق بعلاقته مع الآخر، نتيجة للتطورات المتلاحقة التى شملت أطرافه وحتى قلبه. وهكذا بعد قرون من نهاية الحروب الصليبية، التى استقر بها وضع المنطقة بعد أبعاد الخطر المغولى فى المشرق على يد المماليك والخطر الإسبانى فى المغرب على يد العثمانيين، جاءت حملة نابليون بونابرت على مصر وبلاد الشام فى ١٧٩٨ لتدخل العالم الإسلامى فى انعطاف جديد.

فقد بينت الحملة الفرنسية لعلماء مصر وغيرهم مدى الهوة التى أصبحت تفصل المسلمين عن الآخرين (الأوربيين)، كما أن هذا الضعف للمسلمين الذى انكشف

للآخرين شجع على حملات واحتلالات جديدة انتهت الى احتلال بعض أطرافه أولا وصولا الى قلبه بعد ذلك.

وفى هذا الإطار بدأت محاولات الإصلاح من فوق وتحت. فقد ظهرت آنذاك الدعوة / الحركة الوهابية فى شبه الجزيرة العربية، كما أن السلطان سليم الثانى أدرك ضرورة الإصلاح لوقف هزائم الدولة العثمانية إلا أنه سقط ضحية للقوى المتضررة من الإصلاح (الانكشارية) فى سنة ١٨٠٧وفى هذا السياق نجح والى مصر محمد على باشا فيما فشل فيه السلطان فتخلص أولاً من القوى المعيقة (بقايا المماليك) ليقوم بإصلاحات جذرية تحولت مصر معها إلى قوة إقليمية.

ومع بروز طموح محمد على كان لا بد له أن يصطدم بالسلطان وتطور الأمر من صدام فى بلاد الشام فى خريف ١٨٣١-١٨٣٢ إلى توغل لجيش محمد على فى قلب الأناضول فى صيف ١٨٣٢ وفتح الطريق أمامه باتجاه إستنبول فى ربيع ١٨٣٣ وقد جاء هذا التطور المفاجئ للدول الأوربية المعنية بمصير الدولة العثمانية ليقلب التحالفات ويفضى إلى علاقات دولية جديدة.

فروسيا، التى كانت باستمرار فى حالة حرب مع الدولة العثمانية وتتوسع باستمرار على حساب أراضيها فى انتظار الوصول إلى العاصمة استنبول نفسها، تحولت فجأة إلى مدافعة عن إستنبول وإلى حليفة للسلطان العثمانى بعد أن عقدت معها معاهدة هنكار اسكله سى فى حزيران ١٨٣٣ وأرسلت اسطولها وقوة ضاربة من جيشها إلى ضواحى العاصمة لحمايتها من أى خطر محتمل من تقدم جيش محمد على. وفى الواقع كانت روسيا المتابعة لتحديث مصر تخشى من أن يمتد هذا التحديث إلى الدولة العثمانية مما يفوت عليها فرصة التمدد والتوسع على حساب الدولة العثمانية الآيلة إلى الضعف التى أطلقت عليها الرجل المريض.

وفى غضون ذلك كانت لروسيا مشكلة أخرى تكمن فى الحرب التى تخوضها مع المسلمين فى القوقاز، وبالتحديد فى الشيشان والداغستان.وكانت روسيا بعد أن ضمت

إليها إمارة القرم المسلمة بعد هزيمتها للدولة العثمانية (معاهدة كوتشوك قينارجة فى ١٧٧٤م) أرسلت قواتها العسكرية إلى القوقاز لإخضاع الشيشان والداغستان وغيرهم من الشعوب المسلمة. وقد اندلعت فى الداغستان والشيشان فى١٨٢٩م الثورة الكبرى التى أعلنها شامل الشيشانى، الذى أعلن نفسه إماماً فى ١٨٣٤م وتحول الى رمز اسطورى للقتال فى سبيل الحرية.

وكان قائد الثورة شامل يعرف أن هذه الثورة مهما كانت بطولية لا يمكن لها أن تستمر وتنجح ضد دولة كبرى كروسيا القيصرية، ولذلك كان يأمل فى دعم ما من العالم الإسلامى. وفى ذلك الوقت كانت الدولة العثمانية المجاورة هى أقوى دولة مسلمة بل دولة الخلافة فى نظر بعض المسلمين، ولكنها كانت عاجزة أو غير راغبة فى مساعدة شامل فى ثورته لأن تحالفها الجديد مع روسيا القيصرية ضد محمد على كان يقيدها فى ذلك. ومن هنا لم ترد استنبول على الرسالة أو المناشدة الأولى التى وصلتها من الإمام شامل فى ١٨٣٩م ولا على الثانية التى وصلت فى ١٨٤٠م.

وفى المقابل كان محمد على باشا هو الشخص الأنسب. فقد أثبت محمد على تفوقه على الدولة العثمانية بعد هزيمتها القاسية فى قونية خلال تشرين الثانى ١٨٣٢م ثم فى نصيبين خلال حزيران١٨٣٩ (التى فقدت معها الدولة العثمانية جيشها ثم إسطولها)، كما أن عداوة روسيا له جعلت له شعبية خاصة فى القوقاز بين المسلمين الثائرين ضد الاحتلال الروسى. ومن هنا فقد ظهر آنذاك فى القوقاز رسل ورسائل لمحمد على توضح ما أصبح لمحمد على من نفوذ هناك.

وهكذا نجد من بين هذه الرسائل واحدة موجهة إلى كل علماء وأعيان الداغستان يرد فيها ما يشبه الأوامر والتعليمات لهم: الآن أوجه أسلحتى ضد روسيا، ولذلك أعين شامل أفندى حاكماً عليكم. وأطلب إليكم أن تقدموا له الطاعة الكاملة وأن تقدموا المساعدة إلى حملاتى، وإنى أعدكم أن أرسل لكم جزءاً من قواتى، أما أولئك الذين سيتخلفون عن تنفيذ أوامرى فستقطع رؤوسهم مع رؤوس الكفار. أما فى رسالته إلى كل علماء وأعيان الشيشان والداغستان فيخبرهم فيها لدى تحت قيادتى قوات

كبيرة وعندما أقودها فى نهاية الشتاء وبداية الربيع إلى حدود جورجيا عليكم أن تكونوا مجتمعين عند نهر ترك Terek الأعلى وسنقوم معاً فى فتح داغستان واستعادة اصطراخان ودربند وآزوف وطرد الكفار من أراضى المسلمين.

وفى الواقع لقد كان لمحمد على أكثر من دافع لمد صلاته ونفوذه إلى القوقاز فى ذلك الوقت، فقد كان محمد على ينافس روسيا أيضاً على البلقان، حيث كان قد نجح فى مد نفوذه هناك بين الألبان والبشناق الذين كانوا ينتظرون منه المساعدة أيضاً، وهكذا بدا أن محمد على كان رجل اللحظة التاريخية الذى تسيطر قواته على مصر وبلاد الشام والحجاز ويمتد نفوذه من وراء الدولة العثمانية إلى القوقاز والبلقان، حيث كان المسلمون هناك يتطلعون إلى مساعدته. وفى هذا الإطار كان محمد على يدرك أهمية الثورة الشيشانية الداغستانية ضد الاحتلال الروسى. إذ كانت روسيا العدوة اللدودة له ولم تقتصر فى إرسال قوة ضاربة إلى ضواحى استنبول لحماية السلطان منه. ولكن محمد على كان يدرك أو يعتقد أن روسيا تقوم بلعبة أخرى عبر تحريض السكان فى بلاد الشام ضد حكمه.

ومن هنا رأى محمد على أنه يستطيع أن يرد على روسيا بالأسلوب نفسه وأن يحرض ويساعد الشيشان والداغستان فى ثورتهم ضد الاحتلال الروسى لأراضيهم. ويبدو أن نفوذ محمد على باشا فى القوقاز وصل إلى حد أن التقارير الروسية تعطى صورة مقلقة جداً عن الوضع فى مناطقنا المجاورة لتركيا التى يقطنها المسلمون. فحسب هذه التقارير يبدو أن تلك المناطق (الشيشان والداغستان) مستعدة لـ انتفاضة عامة لصالح الباشا المصرى لدى أول حركة لإبراهيم باشا.

ولكن هزيمة محمد على أمام القوات الاوربية المشتركة التى أنزلت على الساحل الشامى فى خريف ١٨٤٠ الكبرى وإرغامه على الانسحاب من بلاد الشام والقبول بمصر ولاية وراثة فى ١٨٤١حجّم كثيراً من طموحه وحدّ كثيراً من نفوذه لدى الشعوب المسلمة التى كانت تنتظر منه المساعدة. ومع ذلك فالإمام شامل، الذى بقى على صلة بمحمد على باشا، لم يستسلم وبقى يقاوم إلى ١٨٥٩م عندما تعرّض للحصار والأسر.

ثانيا: البشــــناق

ارتبط اسم محمد على باشا مؤسس مصر الحديثة غالباً بالألبان، مع أن قراءة المصادر توضح أن محمد على كانت له مكانة مؤثرة لدى الشعوب المسلمة الأخرى التى كانت آنذاك فى أزمة ومحنة نتيجة للتطورات الإقليمية والدولية كالبشناق والشيشان وغيرهم. وإذا كان محمد على ألبانى الأصل ووصل إلى السلطة بدعم من الجنود الألبان فى القاهرة واعتمد فى حكمه على نخبة عسكرية ألبانية وغيرها، وحافظ على صلاته بالألبان فى شبه جزيرة البلقان، وحرص أن يزور مسقط رأسه مدينة قوله - كافالا اليوم - فى اليونان فإن كل هذا لم يجعل محمد على يتصرف كألبانى بل كرجل دولة على رأس ولاية ومشروع دولة مهمة فى حوض المتوسط. وقد رأينا سابقاً كيف أنه وظف صلاته مع الألبان فى البلقان لأجل مشروعه فى مصر وليس العكس.

وفى الحقيقة ظهر محمد على بمشروعه التحديثى الرائد فى وقت كانت الشعوب المسلمة تعانى من تحديات داخلية وخارجية. فالدولة العثمانية التى كانت تحكم عدة شعوب مسلمة هى العرب والأتراك والأكراد والبشناق الخ، وكانت تشهد أزمة عميقة بسبب تخلفها عن التقدم الأوروبى الجديد وخسارتها فى الحروب واضطرارها للتخلى عن مناطق للمسلمين لدول مجاورة مثل روسيا والنمسا الخ، ما سبب صدمة لبعض الشعوب المسلمة التى وجدت نفسها تنتقل من دولتها -كما كانت تعتبر الدولة العثمانية- إلى دول لا ترحب بها.

ومن هذه الشعوب لدينا شعب البشناق فى أقصى امتداد للدولة العثمانية باتجاه الغرب. وكان البشناق قد أخذوا يتابعون بقلق مصيرهم بعد اضطرار الدولة العثمانية للتخلى عن مسلمى القرم لروسيا القيصرية بعد هزيمتها فى حرب ١٧٧٤م، وأخذوا يستشعرون هذا المصير أمام صربيا التى برزت كإمارة جديدة فى جوارهم، وروسيا من ورائها.

وقد أدى هذا الشعور بالخطر إلى أول تصدع جدى بين البشناق والدولة العثمانية فى خريف ١٨٣٠ حين وصلت اللجنة المختلطة لتخطيط الحدود الجديدة بين صربيا

والبوسنة/ الدولة العثمانية، وذلك بموجب معاهدة أدرنة ١٨٢٩ التى تعهدت فيها الدولة العثمانية بمنح صربيا بعض الأراضى على حساب البوسنة. وقد جوبهت هذه اللجنة بموقف حاد من زعماء البوسنة يقول إن المسلمين فى البوسنة لن يقبلوا بأى تنازل عن أراضيهم وسيعارضون أى قرارات للسلطان العثمانى وروسيا وصربيا حول ذلك. وفى هذا الوضع المتوتر اجتمع زعماء البوسنة فى مدينة توزلا فى نهاية يناير ١٨٣١ وتوصلوا فى ٥ فبراير ١٨٣١ إلى مطالبة السلطان العثمانى بمنح الحكم الذاتى للبوسنة وتعيين أحد الزعماء المحليين على رأسها مقابل مبلغ سنوى محدد.

وقد بادر زعماء البوسنة آنذاك إلى تشكيل جيش محلى بقيادة حسين بك غراداشفيتش للتأكيد على جدية موقفهم. ورد السلطان على ذلك بإرسال جيش بقيادة الصدر الاعظم رشيد باشا لإخضاع هذا التمرد إلا أن الجيش البوسنوى بقيادة حسين بك تقدم إلى وسط كوسوفو، وألحق الهزيمة بالجيش العثمانى فى يوليو ١٨٣١م، ما جعل حسين بك يعود بلقبه الذى اشتهر به بطل البوسنة.

وجاء انشغال الدولة العثمانية بهذا التمرد فى الولاية الحساسة (البوسنة) فى وقت مناسب لمحمد على فى مصر، حيث كان يستعد وقتها لفتح جبهة جديدة مع الدولة العثمانية فى الجنوب/بلاد الشام. ومن المؤكد أن بطل البوسنة حسين بك كان على اطلاع على تجربة محمد على فى مصر، وكان على إعجاب بما أنجزه محمد على هناك، الذى كان لأجله يتمتع بشهرة ومكانة معتبرة بين البشانقة أيضا. وقد رأى حسين بك فى محمد على الرجل المناسب ليلجأ إليه ويطلب مساعدته لأجل البوسنة فى الأزمة الناشبة مع السلطان العثمانى. ولأجل ذلك فقد أرسل حسين بك، الذى أصبح حسين باشا بعد أن انتخبه زعماء البوسنة حاكماً، فى ٤ أبريل ١٨٣١ رسالة أوعريضة مطولة إلى محمد على فى مصر يعترف فيها بما له من مكانة بين المسلمين فى البوسنة، ويذكر أسباب تمرده على الدولة العثمانية ليطلب منه التدخل للمساعدة.

وهكذا بعد أن يؤكد فى مقدمته لمحمد على أن الله خصّكم بإعزاز الدين المبين، وصيانة أعراض المسلمين، ويوضح له أن أهل البوسنة بحبكم متعلقون ورغماً عن طول

المسافة فأنتم موضع احترامهم وإجلالهم، ومحل تكريمهم واعتزازهم، يصل إلى جوهر المشكلة حيث جرى عليهم القضاء وأصابهم البلاء. ويربط حسين باشا هذا الأمر بوجود رجال غير أكفاء فى قيادة الدولة العثمانية مما نجم عن هذا أن كثيراً من القلاع والممالك السلطانية العزيزية قد سقطت فى يد أعداء الدين.

وفيما يتعلق بالبوسنة يوضح حسين باشا السبب الحقيقى لتمرد زعماء البوسنة على السلطات إذ يقول ان: أهل إيالة البوسنة يرون أن تسليط الأمة الصربية عليهم وتحقير المسلمين بكل وسيلة أمر لا يحتمله العرض والشرف. ويوضح حسين باشا هنا أنهم توجهوا عدة مرات إلى السلطان بعرائض الاسترحام ولكن من دون نتيجة. ولذلك يذكر حسين باشا أن أهالى البوسنة قد اتفقوا على توليه للحكم وبايعوه بالإجماع، ولكن ذلك أوغر صدر السلطان ضده. ومن هنا فقد خلص حسين باشا إلى أن تنظيم هذا العرض من جميع أهالى البلاد ليوضح لمحمد على الحالة السيئة فى البوسنة ويطلب منه التوسط عند السلطان العثمانى ليقرّه على حكم البوسنة بعد أن اختاره الشعب هناك.

ولكن هذه الرسالة المطولة وصلت فى وقت غير مناسب كان فيه محمد على يستعد بدوره للتمرد على السلطان وفتح جبهة جديدة فى بلاد الشام فى خريف ١٨٣١. وهكذا مع إرسال محمد على لجيشه إلى بلاد الشام فى مطلع تشرين الثانى ١٨٣١م وجد السلطان العثمانى نفسه بين تمردين خطرين وجبهتين عريضتين: بلاد الشام فى الجنوب والبوسنة فى الشمال. ومع ذلك فقد صمم السلطان على إرسال قوات إضافية للتخلص من حسين باشا حتى يتفرغ لمحمد على فى بلاد الشام.

وفى غضون ذلك وصلت إلى محمد على رسالة أخرى من البوسنة (دون تاريخ) تذكره بعريضة أهالى البوسنة التى سبق إرسالها إليه والتى استنجدوه فيها ليعاونهم على رفع المظالم التى حلّت بهم. ويبدو أن هذه الرسالة بدورها وصلت فى وقت متأخر كان فيه محمد على منشغلاً فى حربه ضد السلطان بعد أن سيطر جيشه على دمشق وبدأ التقدم فى اتجاه الأناضول.

وفى هذا الظرف العصيب على الدولة العثمانية التى أصبحت تخوض حربين ضد واليين متمردين، يملك كل منهما مشروعه الخاص، لم يتوان السلطان عن تشديد الحصار على حسين باشا فى البوسنة حتى أرغمه على اللجوء مع قلة من رجاله إلى النمسا المجاورة فى حزيران ١٨٣٢ ليفرغ لجيش محمد على الذى كان قد وصل إلى قلب الأناضول، حيث جرت هناك معركة قونية الحاسمة فى نوفمبر ١٨٣٢م. وهكذا يمكن القول أن انشغال محمد على بحرب الشام والأناضول قد فوّت عليه الفرصة لإقامة تواصل أو تحالف مع البشناق كان يحتاج إليه فى صراعه مع السلطان العثمانى، وكان يمكن أن يعنى الكثير للبشناق فى ذلك الوقت بحسب مايرى الباحث محمد الأرناؤوط فى دراسته «القيمة عن محمد علي».

ثالثاً: النوبـــة

ربما لم يدفع شعب ثمنا لمعارك غيره أكثر من شعب النوبة، وعندما وثب محمد على على سدة الحكم فى مصر عام ١٨٠٥م تطلع الى فتح السودان فدخلت النوبة وسنار وكردفان فى حوزة مصر فيما بين ١٨٢٠ - ١٨٢٣ ويذكر المؤرخون دوافع عدة لفتح النوبة والسودان منها رغبة محمد على فى تجنيد النوبيين والسودانيين فى الجيش المصرى النظامى لما اشتهروا من الشجاعة والصبر والطاعة ورغبته فى التخلص من الفرق الباقية من غزوته لجزيرة العرب،وكذلك رغبته فى القضاء نهائيا على المماليك الذين لجأوا الى النوبة بعد مذبحة القلعة فضلا عن رغبته فى الاستحواذ على ذهب النوبة.وقد تقدم بنفسه عام١٨١٥ على رأس الجيش الذى وصل الى دنقلة وقضى على فلول المماليك بها وأعلنت بلاد النوبة ولائها للحكم المصرى.وزار محمد على النوبة مرة أخرى فى أكتوبر ١٨٣٨م وحقق الفتح المصرى فى بلاد النوبة والصعيد ونظر المصريون للسودان والنوبة كجزء لا يتجزا من مصر ووصلت حدود مصر الجنوبية الى جزيرة صاى. بعد حروب محمد على مع السلطان العثمانى وتدخل الدول الأوروبية الكبرى الذى انتهى بتسوية لندن المعروفة١٨٤٠ وفرمان فبراير١٨٤١ وتأكيد اعتبار مصر ولاية تابعة للسلطان العثمانى،ظل شطرالوادى الجنوبى مثل شطره الشمالى مقاطعة من مقاطعات

الدولة العثمانية. وعانت بلاد النوبة والسودان من تلك التسوية باعتبارهما ملحقات لمصر،وجاء الى بلاد النوبة الرحالة والمستكشفون والتجار والمغامرون من الأجانب للانتفاع بالمزايا التى كفلتها لهم تلك التسوية،فجاء المستكشفون مع حملة إسماعيل بن محمد على وجاء التجار لاقتناص الرقيق وجمع العاج والتربح منه.عندما اشتعلت نيران الثورة المهدية فى السودان قدر لبلاد النوبة أن تكون ميدانا للمعارك بين جيوش الدراويش من اتباع الثورة وبين الجيش المصرى الذى أرسل لاسترجاع السودان تحت قيادة ضباط إنجليز.فانتهت الحملة بموقعة توشكى فى أغسطس١٨٨٩، وتشتت جيش الدراويش وسعت إنجلترا الى استرجاع دنقلة وبقيت السودان،وانتهت الأمور بالاتفاق الثنائى بين الحكومتين المصرية والإنجليزية فى ١٩يناير،وهو الاتفاق الذى أضر بوحدة السودان ومصر معا،حيث انفردت إنجلترا فى الواقع بحكم السودان لتستغل مصادر الثروة فيه لمصلحتها الذاتية.وقد أضر الاتفاق كذلك بوحدة بلاد النوبة السياسية وقسمها الى قسمين رئيسيين :النوبة السودانية(النوبة العليا)وتمتد داخل السودان،والنوبة المصرية (النوبةالسفلى)تمتدمن الحدود السودانية حتى أسوان هنا بالرغم من أن البلاد بقسميها تمثل وحدة جغرافية متميزة يسكنها شعب متماثل عرقيا وثقافيا واجتماعيا. فى عام ١٩٠٧ أجريت أول تعلية لسد خزان أسوان،وهو الأمر الذى أفزع الكثيرين من علماء الآثار ولكن عوض تلك الخسارة القرار الذى اتخذته الحكومة المصرية بإرسال حملة لتسجيل الآثار والبحث عنها فى كل المواقع القديمة المهددة بالغرق وأجريت عمليات مسح أثرى منظم شارك فيه من علماء الآثار جورج جريزنر وسيسيل فيرث كما كلف ولتر ايمرى بعملية المسح المنظمة الثانية حينما تقرر تعلية خزان أسوان للمرة الثانية عام ١٩٢٩م وكانت المنطقة التى ستغمرها المياه حتى أدندان على حدود السودان مباشرة وعثر فى الثالث من نوفمبر عام ١٩٣١م فى أواخر عملية المسح على مدافن بلانة وقسطل ثم جاء بناء السد العالى على بعد حوالى سبعة كيلو مترات جنوب خزان أسوان وجنوب قرية التنقار بكيلو متر فقط،ووجهت منظمة

اليونسكو حملة دولية فى ٨ مارس عام ١٩٦٠ لإنقاذ آثار النوبة واستجابت الهيئات الدولية لتلك الحملة وتم إنقاذ معبدى فيلة وأبو سمبل وبقية معابد النوبة بعد أن غمرت بلاد النوبة القديمة تحت مياه البحيرة (بحيرة النوبة) وهجر سكانها إلى الشمال فى مدينة كوم أمبو.

■■■

7

أماكن لها تاريخ

■■



نبــذة تاريخيــة

هو أكثر معالم القلعة شهرة حتى إن الكثيرين يعتقدون أن قلعة صلاح الدين الأيوبى هى قلعة محمد على باشا لشهرة هذا الجامع بها، كما يسمى أيضا جامع المرمر وهو نوع من أنواع الرخام النادر الذى كسى به، وقد ذكرت المصادر والمراجع المختلفة أنه ما إن أتم محمد على باشا إصلاح قلعة صلاح الدين الأيوبى وفرغ من بناء قصوره ودوواين المالية والجهادية وعموم المدارس ودار الضرب رأى أن يبنى جامعا كبيرا بالقلعة لأداء الفرائض وليكون به مدفنا.

وكان الشروع فى إنشاء الجامع سنة ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م واستمر العمل سائرا بلا انقطاع حتى توفى محمد على باشا إلى رحمة الله تعالى سنة ١٢٦٥ هـ / ١٨٤٨م ودفن فى المقبرة التى أعدها لنفسه بداخل الجامع وقد بنى هذا الجامع على أنقاض قصر الأبلق والإيوان الذى بناه الناصر محمد بن قلاوون والقاعة الأشرفية التى تنسب إلى الأشرف خليل بن قلاوون.

كان بناء الجامع كاملا من أسوار وقباب ومآذن وكتابات تعلو الشبابيك الخارجية بما فيها كسوتها الرخامية أما أعمال كسوة الرخام بالواجهات فلم يكن قد تم منها إلا القسم السفلى حتى الباب القبلى للصحن ولما تولى عباس باشا الأول الحكم سنة ١٢٦٥ هـ / ١٨٤٨م أمر بإتمام أعمال النقش.

وفى عصر الملك فؤاد قامت لجنة حفظ الآثار العربية بإزالة القبة الكبيرة وما حولها من أنصاف قباب وقباب صغيرة وإعادة بنائها بعد عمل صلبة عبارة عن هيكل من

الصلب المجمع يكون فى مجموعه عدة أبراج مستقلة وعقود تشيد لهدم القبة القديمة. وقد روعى فى تصميم إعادة العقود وغيرها الأبعاد المعمارية الأصلية كما احتفظ بسمك القباب القديمة وذلك بعمل قباب مفرغة حتى تحتفظ بشكلها القديم، كما روعى عند إعادة الزخارف أن تكون مثل القديمة تماما.

التخطيط المعمارى:التخطيط المعمارى لجامع محمد على باشا هو عبارة عن مساحة مستطيلة تتقسم إلى قسمين الأول وهو القسم الشرقى وهو المكان المعد للصلاة والغربى وهو الصحن وتتوسطه فسقية للوضوء ولكل من القسمين بابين أحدهما جنوبى والأخر شمالى.ويتكون القسم الشرقى للجامع من مساحة مربعة الشكل طول كل ضلع من أضلاعها ٤١ مترا تتوسطها قبة قطرها ٢١ مترا وارتفاعها ٥٢ مترا من مستوى أرضية الجامع محمولة على أربعة عقود كبيرة محمولة على أربعة أكتاف مربعة يحيط بها أربع أنصاف قباب بالإضافة إلى نصف قبة فى مستوى أقل.

أما المقصورة التى دفن بها محمد على باشا فإنها تقع فى الركن الجنوبى الغربى للجامع وهى عبارة عن مقصورة نحاسية مذهبة جمعت بين الزخارف العربية والتركية والمصرية يتوسطها تركيبة رخامية بها قبر محمد على باشا وقد بطنت الجدران الداخلية للمقصورة بالحرير الأخضر الفاخر ومن مميزات هذه المقصورة أنها كاتمة للصوت بحيث أن من يقرأ القرآن بداخل المقصورة لا يسمعه من بالخارج.

ومن الباب الذى يتوسط الجدار الغربى للمسجد يتوصل إلى الصحن وهو فناء كبير مساحته ٥٣ مترا × ٥٤ مترا يحيط به أربعة أروقة ذات عقود محمولة على أعمدة رخامية تحمل قبابا صغيرة زخرفت من الداخل بالزخارف الملونة ومغشاة من الخارج بألواح من الرصاص مثل القبة الكبيرة، أما الجهة الشرقية فتشرف على الجامع ومكتوب على أعتاب الشبابيك آيات من القرآن الكريم بالخط الفارسى وبوسط الصحن الميضأة أو الفوارة وهى عبارة عن قبة أنشئت سنة ١٢٦٣هـ.

مدرسة المهندسخانة

فحتى وقت قريب لم يكن من المعروف ما هى هذه المبانى أو تاريخها إلا أنه ظهرت دراسة حديثة أرخت تلك المبانى التى يرجع تاريخها إلى عصر محمد على باشا والتى تمثل أول مدرسة مهندسخانة أو أول مدرسة للمهندسين العسكريين بمصر وقد انشأت سنة ١٢٣١هـ / ١٨١٦م وقد أنشأها محمد على باشا بعد ما رأى من مقدرة الطلبة المصريين على تعلم العلوم الهندسية المختلفة ورغبتهم فى التعلم ولذا أمر بإنشاء المدرسة وهى أول مدرسة للمهندسخانة.

وكان سبب إنشاء هذه المدرسة كما ذكر الجبرتى فى حوادث شهر ذى القعدة سنة ١٢٣١ هـ / ١٨١٦م اتفق أن شخصا من أبناء البلد يسمى حسين شلبى عجوة ابتكر بفكره صورة دائرة وهى التى يدقون بها الأرز وعمل مثالا من الصفيح يدور بأسهل طريقة ... وقدم ذلك المثال إلى الباشا فأعجبه وأنعم عليه بدرهم، ثم ذكر الجبرتى بعد ذلك أن الباشا لما رأى هذه النكتة من حسين شلبى هذا قال إن أولاد مصر نجابة وقابلين للمعارف فأمر ببناء مكتب بحوش السراية ويرتب فيه جملة من أولاد البلد ومماليك الباشا وجعل معلمهم حسن أفندى درويش المعروف بالدرويش الموصلى، يقرر لهم قواعد الحساب والهندسة وعلم المقادير والقياسات والارتفاعات واستخراج المجهولات مع مشاركة شخص رومى يقال له روح الدين أفندى بل وأشخاص من الإفرنج وأحضر لهم آلات هندسية متنوعة من أشغال الإنكليز يأخذون منها الأبعاد والارتفاعات والمساحة ورتب لهم شهريات وكساوى فى السنة واستمروا على الاجتماع بهذا المكتب وسموه مهندس خانة فى كل يوم من الصباح إلى بعد الظهيرة ثم ينزلون إلى بيوتهم ويخرجون فى بعض الأيام إلى الخلاء لتعليم مساحات الأراضى وقياساتها بالأقصاب وهو الغرض المقصود للباشا.

■■■



في شـوارع الـقـاهرة

■■

إذا كانت القاهرة هى بنت المعز لدين الله الفاطمى، وإذا كان القائد جوهر الصقلى هو الذى بناها، فإن محمد على هو بانى القاهرة كعاصمة ومدينة، وفى شوارع القاهرة وضواحيها يمكن أن تلحظ سيرة محمد على باشا وأن تشم رائحته، وهنا سنحاول أن نلقى الضوء على أشهر الأماكن التى ارتبطت بمحمد على وسيرته.

شارع محمد على

شارع شد يد الشهرة وشد يد الغرابة، يحمل تاريخ القاهرة فوق ظهره، أو بالأدق على أرصفته، إنه شارع محمد على شارع الأنتيكات والآلات الموسيقية وفرقة حسب الله وصاحب الفضل على العديد من نجوم السينما والتليفزيون على مدار شهرته وذيوعه وهو الشارع الذى بناه محمد على والى مصر الكبير ومؤسس دولتها الحديثة عام ١٨٤٥ ليصل بين مقر حكمه فى القلعة وحى الازبكية مقر كبار الامراء ولكنه لم يدرك أن هذا الشارع سيتحول بمرور الزمن الى اشهر شوارع القاهرة لكن بفعل التغريب والزمن وتساقط أوراق التاريخ كما تتساقط أوراق الخريف أصبح الشارع تراثا وذكرى تحمل روائح العصر الذهبى. الصحفية اللامعة سلوى محمد عبد اللطيف رصدت تاريخ الشارع فى دراسة لها نشرتها مجلة الجزيرة وقالت عنه إنه أشهر وأغرب شوارع القاهرة.

شارع محمد على تبدأ حكايته فى بداية القرن العشرين حينما جاء الى القاهرة سيرك ألمانى ليعرض أعماله وألعابه فى الأحياء المختلفة فى القاهرة وانضم لهذا

السيرك ثلاثة من شباب شارع محمد على من بينهم.. إسماعيل عاكف (جد عائلة عاكف الشهير فى عالم السيرك) وقضى السيرك الألمانى فى القاهرة عدة أسابيع وبعدها سافر أعضاء السيرك ومعهم إسماعيل عاكف إلى أوروبا، يطوفون أنحاء أوروبا لمدة ثلاث شهور وعندما عادوا إلى القاهرة أخذوا يبحثون عن مقر لهم يقدمون فيه العابهم التى تعلمونها فى أوروبا.. وفى هذا الوقت انضمت فتاه قريبة من عائلة عاكف للعمل معهم فى الفرقة بعد ان أستهوتها المهنة فاقنعتهم بالعمل معهم وأطلقت على نفسها اسم مريم (وهى الجدة الكبرى للفنانة سميحة توفيق الشهيرة بأداء دور الهبلة الحمارة أم بدوى فى مسرحية ريا وسكينة) ووقع اختيار هذه الفرقة على شارع محمد على مقراً لها انطلقوا منه إلى ملاهى شارع روض الفرج وعماد الدين وأصبح الشارع مقرا للفنانين الوافدين إلى الفرقة او للمتعاقدين معها على إحياء الافراح والحفلات. وفى ذلك الوقت كانت قد انتشرت مزيكا حسن صفا وطه أبو مندور والبكرى ومحمد حسب الله الكبير صاحب أشهر فرق الموسيقى فى تاريخ مصر والتى شكلت علامة متفردة فى عالم الموسيقى. حسب الله وكان حسب الله جاويشا يعمل فى فرقة موسيقى سوارى الخديوى عباس وبعدما استقال كون أول فرقة موسيقية نحاسية بالشارع واتخذ افرادها زياً موحداً اقرب الى زى رجال الحرس الملكى البريطانى آنذاك فرقة حسب الله وكان افراد ينتظمون فى صفين يسبقون العريس ولا يسبقهم الا عازفو النقرزان والطبل البلدى، وكانت كل موسيقى مستأجرة من محمد على هى موسيقى حسب الله التى يقودها أفندى أنيق قدر الامكان وكان العزف سماعيا ومحفوظا لا يحتاج الى نوتة موسيقية وكانت المعزوفات محددة على رأسها (السلام) ويقصد به السلام الرسمى للدولة (أيام الملكية) ويبدو أن ذلك السلام كان موروثا عن عهد الخديوية وهو لحن يقول مطلعه (أفندينا دخل الديوان والعسكر ضربوا له سلام) سكان هذا الشارع الآن لا يعرفون شيئا عن حسب الله أو محله، وهناك بعض الأفراد المتناثرين (يشكلون آخر علامات حسب الله، ويعزفون الحانا بالآلات النحاسية). ولكن هذه الفرقة أفسحت الطريق لموسيقى أصبحت أكثر ذيوعا بين الأوساط الشعبية فى احتفالاتها هى

موسيقى «القرب» وتشهد ايضا فنادق القاهرة الكبرى هذه الفرقة تعزف موسيقى القرب فى الافراح المقامة فى حدائقها او فى قاعتها وتغيرت أوراق التاريخ لم يبق إلا الفاخرة وقد تبدلت أحوال الشارع الآن فهو شارع طويل متعرج يقطعة شريط ترام. كما ان الدروب والازقة والحوارى ذات السلالم المتدرجة تساقطت أبنيتها واحدة تلو الأخرى فمعظم هذه المبانى قديمة آيله للسقوط تسقط أحجارها ومعها أيضاً اوراق تاريخ هذا الشارع الفنى.

تحـــولات

ومن التغيرات التى حدثت لهذا الشارع تحولت محلات الموسيقى من الصنع الى البيع فقط،محلات تقديم الآلات الحديثة المستوردة من أوروبا بعد أن ظلت صناعة الادوات الموسيقية حرفة أبناء الشارع ولم يبق من هؤلاء الصناع العظماء إلا محل أنطوان وجميل جورج اللذين كانا يصنعان ويبيعان جميع أنواع الآلات الموسيقية مثل العود والكمان والبيانو وأكتفى المحل الآن بالعود فقط. ورغم أن محلات الموسيقى مازالت تشكل جزءا هاما من معالم شارع محمد على إلا أن الاحساس بالموسيقى قد صار مختبأ خلف الزحام الشديد وأصوات الأتوبيسات وأنغام شرائط الكاسيت (الهابط) التى تنبعث من بعض المحلات الصغيرة. كما أن محالات اللب والفول السودانى والتسالى والبوتيكات الحديثة زحفت هى الأخرى على معالم الشارع، ومع ذلك فإن نكهة شارع محمد على مازالت منتعشة فى أنحاء الشارع أثناء الليل ومحلات الموسيقى المفتوحة الأبواب والموسيقيين الحاليين على مقهى التجارة التى سارت أضيق قليلاً من الماضى، انتشرت المقاعد والموائد أمام المقهى وعلقت صور لكثير من الفنانين على جدران المقهى من أم كلثوم، ووردة وعدوية وفاطمة عيد وكتكوت الأمير وغيرهم، والمقهى التجارى يعد واحدا من أشهر مقاهى القاهرة أسسه يونانى عجوز هاجر من القاهرة ليعود إلى بلاده تاركا المقهى إلى على السيد أحد العاملين الذى قام بتطويرها منذ حوالى مائة وعشرين عاما لتصبح من أقدم المقاهى ومن الأشياء التى شكلت ملامح هذا الشارع الآن هى تلك النظرات الحزينة التى تظهر فى عيون الموسيقيين من أبناء

السيرك ثلاثة من شباب شارع محمد على من بينهم.. إسماعيل عاكف (جد عائلة عاكف الشهير فى عالم السيرك) وقضى السيرك الألمانى فى القاهرة عدة أسابيع وبعدها سافر أعضاء السيرك ومعهم إسماعيل عاكف إلى أوروبا، يطوفون أنحاء أوروبا لمدة ثلاث شهور وعندما عادوا إلى القاهرة أخذوا يبحثون عن مقر لهم يقدمون فيه العابهم التى تعلمونها فى أوروبا.. وفى هذا الوقت انضمت فتاه قريبة من عائلة عاكف للعمل معهم فى الفرقة بعد ان أستهوتها المهنة فاقنعتهم بالعمل معهم وأطلقت على نفسها اسم مريم (وهى الجدة الكبرى للفنانة سميحة توفيق الشهيرة بأداء دور الهبلة الحمارة أم بدوى فى مسرحية ريا وسكينة) ووقع اختيار هذه الفرقة على شارع محمد على مقراً لها انطلقوا منه إلى ملاهى شارع روض الفرج وعماد الدين وأصبح الشارع مقرا للفنانين الوافدين إلى الفرقة او للمتعاقدين معها على إحياء الافراح والحفلات. وفى ذلك الوقت كانت قد انتشرت مزيكا حسن صفا وطه أبو مندور والبكرى ومحمد حسب الله الكبير صاحب أشهر فرق الموسيقى فى تاريخ مصر والتى شكلت علامة متفردة فى عالم الموسيقى. حسب الله وكان حسب الله جاويشا يعمل فى فرقة موسيقى سوارى الخديوى عباس وبعدما استقال كون أول فرقة موسيقية نحاسية بالشارع واتخذ افرادها زياً موحداً اقرب الى زى رجال الحرس الملكى البريطانى آنذاك فرقة حسب الله وكان افراد ينتظمون فى صفين يسبقون العريس ولا يسبقهم الا عازفو النقرزان والطبل البلدى، وكانت كل موسيقى مستأجرة من محمد على هى موسيقى حسب الله التى يقودها أفندى أنيق قدر الامكان وكان العزف سماعيا ومحفوظا لا يحتاج الى نوتة موسيقية وكانت المعزوفات محددة على رأسها (السلام) ويقصد به السلام الرسمى للدولة (أيام الملكية) ويبدو أن ذلك السلام كان موروثا عن عهد الخديوية وهو لحن يقول مطلعه (أفندينا دخل الديوان والعسكر ضربوا له سلام) سكان هذا الشارع الآن لا يعرفون شيئا عن حسب الله أو محله، وهناك بعض الأفراد المتناثرين (يشكلون آخر علامات حسب الله، ويعزفون ألحانا بالآلات النحاسية). ولكن هذه الفرقة أفسحت الطريق لموسيقى أصبحت أكثر ذيوعا بين الأوساط الشعبية فى احتفالاتها هى

موسيقى «القرب» وتشهد ايضا فنادق القاهرة الكبرى هذه الفرقة تعزف موسيقى القرب فى الافراح المقامة فى حدائقها او فى قاعتها وتغيرت أوراق التاريخ لم يبق إلا الفاخرة وقد تبدلت أحوال الشارع الآن فهو شارع طويل متعرج يقطعة شريط ترام. كما ان الدروب والازقة والحوارى ذات السلالم المتدرجة تساقطت أبنيتها واحدة تلو الأخرى فمعظم هذه المبانى قديمة آيله للسقوط تسقط أحجارها ومعها أيضاً اوراق تاريخ هذا الشارع الفنى.

تحــولات

ومن التغيرات التى حدثت لهذا الشارع تحولت محلات الموسيقى من الصنع الى البيع فقط،محلات تقديم الآلات الحديثة المستوردة من أوروبا بعد أن ظلت صناعة الادوات الموسيقية حرفة أبناء الشارع ولم يبق من هؤلاء الصناع العظماء إلا محل أنطوان وجميل جورج اللذين كانا يصنعان ويبيعان جميع أنواع الآلات الموسيقية مثل العود والكمان والبيانو وأكتفى المحل الآن بالعود فقط. ورغم أن محلات الموسيقى مازالت تشكل جزءا هاما من معالم شارع محمد على إلا أن الاحساس بالموسيقى قد صار مختبأ خلف الزحام الشديد وأصوات الأتوبيسات وأنغام شرائط الكاسيت (الهابطة) التى تنبعث من بعض المحلات الصغيرة. كما أن محالات اللب والفول السودانى والتسالى والبوتيكات الحديثة زحفت هى الأخرى على معالم الشارع، ومع ذلك فإن نكهة شارع محمد على مازالت منتعشة فى أنحاء الشارع أثناء الليل ومحلات الموسيقى المفتوحة الأبواب والموسيقيين الحاليين على مقهى التجارة التى سارت أضيق قليلاً من الماضى، انتشرت المقاعد والموائد أمام المقهى وعلقت صور لكثير من الفنانين على جدران المقهى من أم كلثوم، ووردة وعدوية وفاطمة عيد وكتكوت الأمير وغيرهم، والمقهى التجارى يعد واحدا من أشهر مقاهى القاهرة أسسه يونانى عجوز هاجر من القاهرة ليعود إلى بلاده تاركا المقهى إلى على السيد أحد العاملين الذى قام بتطويرها منذ حوالى مائة وعشرين عاما لتصبح من أقدم المقاهى ومن الأشياء التى شكلت ملامح هذا الشارع الآن هى تلك النظرات الحزينة التى تظهر فى عيون الموسيقيين من أبناء

الشارع والعاملين به. انتشار الصناعة الحديثة للآلات الموسيقية ومن ثم انتشار المحلات المتخصصة فى هذا المجال خارج شارع محمد على أدى إلى انحصار الإقبال على محلات الشارع، المستوى الآخر والذى يؤكد عليه أبناء الشارع، هو أن الفرق الموسيقية الحديثة التى تعزف المعزوفات الأوروبية والغربية، صارت شبه مسيطرة على ساحة الافراح فى مصر خاصة مع صعود المزاج الغربى لذواته مع بدايات الانفتاح وحتى الآن. ورغم ذلك فمازال شارع محمد على يخرج من أزمته وحواريه مطربين سجلوا شهرة فى نفس عالم الانفتاح الذين يشكون منه أبناء محمد على ومن هؤلاء المطربين أحمد عدوية الذى كانت مهنته فى الشارع قبل احتراف الغناء هى حمال لعدة الموسيقى فى حقائبها للعازفين، ثم بدأت موهبته، تظهر مع عدة أفراح عندما تطوع بالغناء فيها. ومن نجوم شارع محمد على برزت الموهبة نعيمة عاكف إحدى حفيدات إسماعيل عاكف أول من أدخل الفن، مع عبد الغنى هلال ومحمود صبرى، والدها لاعب أكروبات ودوبلير فى السينما ووالدتها من عائلة الحلو، ومن هذا الشارع أنطلقت الفنانة لوسى وأنطلقت الفنانة صابرين للتليفزيون، من خلال إحدى مسابقات اختيار ممثلات جدد ومثلت لاول مرة مع المخرج التليفزيونى المعروف محمد فاضل فى مسلسل ليلة القبض على فاطمة ثم أمتد نشاطها إلى الأفلام السينمائية وأعمال المسلسلات التليفزيونية. وهكذا يثبت الشارع أنه لا ينضب وأن الغبار الذى يتصاعد من مبانية الآيلة للسقوط ليست قادرة على إعاقة دوره فى تخريج البهجة للناس.

شارع قولة بعابدين

هو واحد من أشهر شوارع حى عابدين وهو يربط بين شارع الجمهورية من جهة قصر عابدين وينتهى مع تقاطع شارع عبدالدايم عند برج الأطباء حيث يبدأ امتداد الشارع باسم شارع محمد محمود وينتهى عند ميدان التحرير ۰ ويوجد بشارع قوله المنزل رقم (١) وكانت تقطن به سيدة الغناء العربى السيدة أم كلثوم فى بداية انتقالها إلى القاهرة لبدء مشوارها الفنى وقبل انتقالها إلى الزمالك ۰ ويتقاطع الشارع مع العديد من الشوارع وتبدأ من ناحية شارع الجمهورية بشارع قشلاق عابدين ثم شارع

محمد فريد وشارع عبدالعزيز جاويش(عبدالدايم) وتوجد العديد من الشوارع الفرعيه به مثل شارع البلاقسه وهو معروف جدا بحى عابدين۰ ويوجد بشارع قوله العديد من الورش لاصلاح السيارات.

حى الزمالك

الزمالك هو حى الأثرياء الأشهر فى القاهرة، والكثيرون حتى ممن كتبوا لتاريخ حى الزمالك لا يعرفون أن جذوره تعود إلى محمد على باشا. فقد بنى والى مصر لنفسه بيتا بين الزراعات فى الجزيرة الكبيرة، وكانت تلك الزراعات ملئية بعشش البوص، والعشة البوص اسمها بالتركية زملك، وجمعها زمالك، ومن هنا قالوا عن هذا البيت قصر الزمالك.

وكان أول ظهور لهذه الأكواخ عام ١٣٧٢ فى جزيرة حليمة التى كانت تقع شمال جزيرة أروى فى ذلك الوقت، والتى سميت فى ما بعد بالجزيرة الوسطى وأصبح باسمها اشهر شوارع حى الزمالك.واتصلت جزيرة حليمة بجزيرة اروى لتصبح فى ما بعد جزيرة واحدة سميت بأسم جزيرة «القرطية» والتى أطلق عليها الفرنسيون فيما بعد اسم بولاق أبو العلا.

وظل المكان على حالته حتى جاء المهندسون الفرنسيون، فهم الذين قاموا بتخطيط هذا الحى الى جانب الإيطاليين، ونقصد بذلك المهندسين الذين استقدمهم الخديو إسماعيل لتخطيط وبناء الحى بجانب سراى الجزيرة التى بناها على مساحة ٦٠ فدانا وشهدت احتفالات افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ وأقامت فيها الإمبراطورة أوجينى إمبراطورة فرنسا عند زياراتها لمصر، كما شهد السراى أفراح اسرة الخديو، هذه السراى اسمها الآن: فندق الماريوت. وهو من أكبر فنادق القاهرة وأفخرها وأفخمها.

أصبح الحى منافسا لحى جاردن سيتى الذى اشتهر بحى الطبقة الأرستقراطية نظرا لإقامة معظم الباشوات والبكوات وذوى المناصب العليا فيه بحكم قربه من مقر الحكم فى عابدين.لكن معظمهم انتقل بعد ذلك للسكن فى حى الزمالك الذى أصبح حى

السفارات بالرغم من شهرته بأنه حى الطبقة البرجوازية خاصة فى بدايات القرن العشرين .ويستمد حى الزمالك موقعه المتميز من كونه جزيرة يطوقها النيل من كل الجهات، وترجع بداية إنشائه الى عهد الخديو اسماعيل فى شكل أخصاص من البوص أقامها أهل الغناء والطرب ليقيموا حفلات اللهو والغناء وفى مواجهة حى «الكيت كات» الذى كان يعرف آنذاك بحى المسارح والملاهى.وربما كان هذا التاريخ، دينا وادى فى تحقيقها عن الزمالك، سببا فى اتجاه سيدة الغناء العربى أم كلثوم للسكن فى هذا الحى لتستلهم روح الطرب والغناء المحفورة فى ذاكرته، لكن فيلا أم كلثوم تحولت الآن الى فندق وبرج.ولا يخلو حى الزمالك من كثير من المعالم الأساسية التى انحفرت فى ذاكرة تاريخ شوارع مصر.. ويلاحظ المتجول فى الحى أن أحياء السكن والقصور تتركز فى الجزء الشمالى من جزيرة الزمالك، بينما الجزء الجنوبى تشغله حدائق مثل الأسماك والأندلس والزهرية والحرية والتى تعد من أشهر حدائق القاهرة، بالإضافة للأندية الرياضية مثل نادى الجزيرة الشهير برواده من أبناء الطبقة الأرستقراطية والفنانين ورجال الأعمال، ومركز شباب الجزيرة الملحق به، بالإضافة الى نادى الأهلى ونادى القاهرة. وتقع بجوار النادى الأهلى دار الأوبرا المصرية التى أنشئت حديثا فى أوائل الثمانينات لتصبح جزءا من هذا الحى الذى يحمل فى طياته آثار الطبقة البرجوازية مغلفة بمعالم الطبقة الأرستقراطية التى كانت من رواد المطعم الدوار الذى يعلو قمة برج القاهرة، أبرز معالم الزمالك.

انتقلت عائلات أرستقراطية للسكن فى حى الزمالك ومنها عائلة «لطف الله» التى اشترت سراى الجزيرة وسكنت فيه حتى فترة الستينات، وقامت الدولة بمصادرته كجزء من الأملاك العامة. وحاول الدكتور محمد عبد القادر حاتم وزير الإعلام والسياحة استغلال سراى الجزيرة فحوله إلى فندق يحمل اسم «عمر الخيام» الذى أصبح فى ما بعد يعرف بفندق «ماريوت» متوسطا البرجين الفندقيين لسلسلة فنادق ماريوت.والزائر لحى الزمالك الآن سيمشى وسط شوارع لأسماء معروفة مثل حسن صبرى (حسن باشا صبرى) وزير المواصلات والتجارة والصناعة فى حكومة على ماهر

باشا الأولى عام ١٩٣٦ والذى تم تعيينه وزيرا للمواصلات ثم الحربية والبحرية فى عدة حكومات، حتى قام بتشكيل الحكومة المصرية عام ١٩٤٠ مرتين، ولكن فى المرة الثانية ذهب الى البرلمان لإلقاء خطاب العرش سقط ليلفظ أنفاسه فى قاعة البرلمان تاركا اسمه على أحد أهم شوارع حى الزمالك والذى يضم عدداً كبيراً من السفارات والقصور والفيلات ذات الطراز المعمارى الفريد . أيضا من أبرز شوارع الزمالك شارع محمد مظهر (محمد باشا مظهر) المهندس المصرى الذى اختاره محمد على باشا ليكون ضمن أول البعثات الدراسية التى أرسلها الى فرنسا عام ١٨٢٦ ليدرس الهندسة البحرية، وعاش فى فرنسا ١٠ سنوات، وتقلد عددا من المناصب. ومن المشاهير الذين عاشوا بحى الزمالك إضافة الى أم كلثوم، محمد عبد الوهاب، وعبد الحليم حافظ، وسعاد حسنى، كما شهد الحى الخطوات الأولى للمفكر الفلسطينى الراحل إدوارد سعيد حين سكنت أسرته الحى بعد رحيلهم من فلسطين فى أربعينات القرن الماضى. وشهد إقامة توفيق الابن الأكبر للشاعر نزار قبانى، الذى توفى صغيرا وكتب نزار قصيدة عن أيامه فى الزمالك.أسماء الشوارع والأحياء داخل جزيرة الزمالك تحمل فى الغالب ملامح الدولة الأيوبية بالرغم من أن هذه الجزيرة لم تكن معروفة كحى سكنى أيام الدولة الأيوبية، مثل شارع شجرة الدر وشارع الصالح أيوب وابن زنكى والمنصور محمد، لكن أحوال هذه الشوارع تغيرت الآن حيث امتزجت بملامح العصر الجديد من مقاه عصرية أقيمت به ومراكب نيلية ومراكز تجارية تبيع كل ما يحتاجه الفرد ولكن بأسعار الزمالك الخاصة ليشعر من يزورها انه انفصل عن المكان والزمان وأن حواسه مشدودة لرائحة يختلط فيها طمى النيل بعبق الورود والأزهار.

زرافة محمد على

رغم أن زرافة محمد على ليست مكانا بالطبع، ولا هى طبعا من بقية أهله، إلا أننا لا نستطيع أن نروى آثاره وما تركه من رائحته، كما يقول المصريون دون أن نروى سيرتها.

لم تكن زرافة محمد على قد ولدت بعد حينما أصدر الوالى محمد على مرسومه بأسرها لإهدائها لملك فرنسا؛ تحقيقا لطموح سياسى وراء تلك الهدية.. كان حتما أن

يقتلوا أمها فى مراعى السافانا فى الجنوب، فبدون ذلك كان أسرها مستحيلا.. كانت ابنة شهرين وقتئذ.. قصيرة القامة باعتبار أن طولها لا يزيد عن قامة صياديها!!.. روّضوها على تناول اللبن وقلوبهم ترتجف؛ إذ كانت حياتها ـ باعتبار أنها من ممتلكات الوالى- تساوى حياة رعاتها (حسن وعطير).. وكانت ضعيفة الشهية.. فقط خمسة وعشرون جالونا من اللبن يوميًا من ست بقرات حلوب صحبنها طيلة الرحلة..!!

فى البدء حملوها على الجمال، ثم نقلوها إلى الخرطوم على مركب نيلى استقرت مستظلة بخيمة مفتوحة تنعم بالظل فى حين يكتوى العبيد الأفارقة بلهيب الشمس.. بعدها مكثت ستة عشر شهرا فى الخرطوم حتى تم نضجها، ثم ركبت النيل حتى وصلت الإسكندرية فى ضيافة محمد على شخصيا.

ومع حاشية مكونة من ثلاث أبقار حلائب وراعييها حسن وعطير بدأت رحلتها البحرية إلى فرنسا.. وباعتبارها سفيرا فوق العادة رفعت السفينة العلمين المصرى والفرنسى، مع الكثير من عبارات الوداع والمراسم العسكرية. مع تعليمات مشددة للحفاظ على تلك الزرافة الثمينة.. وإذا كنا اليوم نشاهد الزراف فى كل حدائق الحيوان حول العالم فإن الأمر لم يكن كذلك بالتأكيد فى بداية القرن التاسع عشر.. كان اصطيادها بقامتها الفارعة ومن ثم نقلها كل هذه المسافات الشاسعة بوسائل نقل بدائية ـ عملا شبه مستحيل فى هذا الوقت.

الحسناء فى فرنسا

وصلت ميناء مرسيليا بفرنسا يوم ٣١ أكتوبر عام ١٨٢٦، حيث كان الحاكم فى انتظارها.. اقتيدت البقرات أولا عبر الشوارع والحشود المنتظرة حتى ساحة القصر.. وفى المساء – على خلفية من أضواء المصابيح الواهنة – غادرت سفينتها مع حسن وعطير تحت حراسة مشددة؛ لتحل ضيفا فوق العادة عند حاكم مرسيليا الذى كتب إلى وزير الداخلية يصفها بأنها المصرية الجميلة، الأنثى بمعنى الكلمة، والكنز الثمين.

خلبت لبّ الجميع بسحر عينيها الواسعتين وخجلها الذى كان يمنعها من شرب اللبن أمام الغرباء. برغم ذلك كانت تسمح لهم بالاقتراب فيما عدا أنها توجل من الضوضاء ولا تحب أن يلمسها أحد.. لكنها حين تطلق العنان لنفسها فى لحظة مرح تعدو ساحبة معها حراسها الأشداء.

ولطباعها بالغة الرقة ومشاعرها شديدة الخصوصية فقد أضفى ودّها للبشر سحرا فوق سحرها.. وتبدت مرارة غربتها فى اهتمامها الودود ـ غير المتبادل للأسف ـ مع الحيوانات الأخرى: الخيول تخافها والبقرات الحلوب لا تبالى بها!!..

ومع تحسن الطقس بدأ التفكير فى نقلها إلى باريس، حيث ينتظرها الملك بفارغ الصبر فى صحبة سان هيلير، أهم علماء أوروبا فى القرن التاسع عشر، والذى أمر بتفصيل معطف واق من المطر من المشمع المطرز بشريط أسود على كل الأطراف. وقام بإعداد أحذية طويلة لها خوفا من تآكل حوافرها خلال تلك الرحلة التى تبلغ خمسمائة وخمسين ميلا. واتخذت السلطات تدابير أمنية احترازية خوفا من تلك (الصدمة) التى ستصيب -حتما- حيوانات الجر فى الطريق عند رؤية الكائن الضخم الوديع.. استدعيت تعزيزات من الدرك لحراسة القافلة كل فى منطقته.. وطلب منهم الاستعداد ببقرات حلوب فى حالة تأهب مع توفير إسطبلات بأسقف يصل ارتفاعها إلى ثلاثة عشر قدما فى القرى التى يحتمل أن تتوقف فيها الزرافة.

لمن تدق الأجراس؟

كانت الزرافة تختال فى معطفها الأنيق بينما تقرع الكنائس أجراسها فى الطريق. وتولى جنود الدرك تنحية العربات عن الطريق.. وأثناء الاستراحة فى مدينة إيكس كشف سان – هيلير معطفها على سبيل الاستعراض. بعدها واصلت الزرافة رحلتها مخترقة غابات الصنوبر وبساتين الكرز فيما تنشر زهور السوسن عبقها، بينما يتدفق الأشخاص على طول الطريق لمشاهدة الأعجوبة.. فى باريس كان الملك حزينا؛ لأنه سيكون آخر شخص فى فرنسا يشاهدها وأخيرا انتهت الرحلة التى استغرقت أكثر

من عامين، وكان الملك فى قصر يبعد عن باريس تسعة أميال، وأراد الذهاب على الفور لرؤية الزرافة، لكن زوجته القاسية أصرت أن يظل فى قصره؛ لأن تلك الزرافة ما هى إلا هدية من والٍ أقل رتبة ومنزلة.

وكما يحدث دائما انتصرت إرادة الزوجة وصدر القرار لسان هيلير باصطحاب الزرافة فورا حتى مقر الملك المتلهف الذى أبدى رغبة ملكية فى رؤيتها وهى تعدو (!!!).. ثم عادت الزرافة بسلام إلى باريس يتبعها حشد كبير من الفضوليين وقد صارت موضة العصر.. أطلقت القرى اسمها على الشوارع والميادين تخليدا لمرورها. وتحولت هى إلى مادة للأغانى والاستعراضات المسرحية، واعتاد الأطفال الذين يلعبون فى حدائق باريس شراء كعك الزرافة، أما البنات فقد صففن شعورهن على شكل تسريحة الزرافة.. وكان الشعر عاليا لدرجة اضطرارهن للجلوس على أرضية المركبة!! كما أعلنت صحيفة النساء والموضة عن عقد الزرافة.. وارتدى الرجال قبعات وأربطة عنق زرافية الشكل، واحتوت مجلة اليوم على إرشادات لطريقة ربط كرافتة الزرافة!!

الخلاصة أن الولع بها استشرى فى كل شىء: المنسوجات، ورق الحائط، الصابون، وحتى تشذيب الأشجار!!

■■■



8 دراسات وشهادات

■■

الشــيطان

لم تعرف مصر فى تاريخها أشخاصا مثيرين للجدل كما كان محمد على، اللهم إلا عبد الناصر الذى جاء بعده بقرن ونصف من الزمان. وعلى العموم فإن كليهما كان زعيما وحدويا طموحا انتهى به الأمر إلى هزيمة ووفاة منكسرة.

ورغم أننا هنا ننحاز بشكل أو بآخر لسيرة الرجل إلا أننا لا نروج له أو لأفكاره أو لعصره، فكل هذا تجاوزه الزمن، وعليه فإن هدفنا من هذا الكتاب هو تقديم صورة للقارئ الكريم عن هذا العصر، ولكى تكتمل الصورة علينا أن نبرز وجهات نظر مختلفة من تيارات شتى حول تجربة الرجل، ربما يساعد هذا القارئ الكريم على تكوين وجهة نظر تخصه، ونبدأ بتلك الدراسة التى تحاول أن تقدم محمد على باعتباره شيطانا رجيما، غير أن ما جعلنا نوردها وإن كنا مختلف معها هو أن كاتبها دعمها بالأسانيد والأدلة التى ربما لا يتسع المقام لتفنيدها، كما أن هذا ليس هدفنا كما أشرنا من قبل.

تجربة محمد على.. من منظور مختلف!

شهد الوطن العربى فى السنوات القليلة الماضية، كثيراً من المقالات والخطابات والدراسات والندوات، الرامية إلى أن يكون للعرب مشروع نهضوى جديد، أو تجربة نهضوية ثالثة، بحسبان أن تجربة محمد على هى التجربة النهضوية الأولى، وأن تجربة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر هى التجربة النهضوية الثانية.

والمقصود بالمشروع النهضوى : منظومة فكرية شاملة، أو نسق متكامل شامل لكل أنظمة المجتمع وقطاعاته وفئاته، يحمل رؤية كلية للإنسان ولعلاقاته بالآخرين، وبالإله

وبالطبيعة. ويوجه السلوك البشرى نحو تحقيق أفضل إشباع للحاجات البشرية بأقل كلفة اقتصادية واجتماعية وبيئية ممكنة.

ولقد قيل الكثير وكتب الكثير مدحاً لتجربة محمد على، وبحيث أن الماركسيين مثلاً اعتبروها تجربة اشتراكية رائدة، وأن الليبراليين اعتبروها نموذجاً للنهضة المطلوبة، بل إن أحد الباحثين اعتبرها أول محاولة فى التاريخ الحديث، لإعادة تكوين الدولة العربية فى المشرق والمغرب؛ ويمكن القول باختصار: بالرغم من وجود بعض الاستثناءات، فإن الاتجاه السائد هو تمجيد تجربة محمد على، وإلى درجة أن أحد العلماء العرب، قد طالب مؤخراً بالاحتفال فى عام ٢٠٠٥ بمرور مئتى سنة على بدء مشروع النهضة أو بدء حكم محمد على.

ونحن نقدم، هنا، قراءتنا لتلك التجربة، فنبدأ بتقديم تعريف بمحمد على، ثم نتحدث عن توجهاته وممارساته فى كل من المجالات الرئيسة التالية: الثقافة والسياسة والاقتصاد، ونختم بالخلاصة والنتائج.

أولاً: محمد على.. من هو؟

بالإضافة إلى محمد على بطل الملاكمة المعروف، شهدت القرون الثلاثة الماضية بروز خمس شخصيات على الأقل، يحمل كل منها اسم على بصورة من الصور..

فهناك أولاً: على بك الكبير أو على بك القازدغلى ١٧٢٨-١٧٧٣م، وهو من كبار المماليك. وقد ثار على السلطان العثمانى، واستقل بحكم مصر، ولكن السلطان حاربه وقتله.

وهناك ثانياً: على باشا ١٧٤١-١٨٢٢م، وهو باشا يانينه فى ألبانيا خلال الفترة ١٧٧٧-١٨٢٠م).

وهناك ثالثاً: محمد على ١٧٦٩-١٨٤٩م، وهو والى مصر خلال الفترة ١٨٠٥-١٨٤٩م)، وهو بيت القصيد.

وهناك رابعاً: محمد على ١٨٧٢-١٩٢٥م، وهو شاه إيران خلال الفترة ١٩٠٦-١٩٠٩م.

وهناك خامساً: محمد على الهندى ١٨٧٨-١٩٣١م)، وهو صحافى هندى رافق المهاتما غاندى.

ونحن نقصد، فى بحثنا هذا، محمد على الوارد فى ثالثاً أعلاه، الذى كان والياً على مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر: وللتعريف به، نقدم نبذة مختصرة أو بانوراما مكثفة، عنه، مقتبسة من الموسوعة العربية الميسرة، تمثل الآراء السائدة عنه:

محمد على: ١٧٦٩-١٨٤٩م، والى مصر ١٨٠٥-١٨٤٩م). ولد بقوله، من أعمال اليونان الآن، كان موظفاً صغيراً، ثم اشتغل بتجارة الدخان، جاء فى حملة إلى مصر لإجلاء نابليون عنها. اشترك فى معركة أبو قير البرية /٢٥يوليه/١٧٩٩م.

عاد إلى مصر ١٨٠١م قائداً لكتيبته الألبانية. اشترك فى معركة الرحمانية. أخذ يرقى سلم النجاح فى ثبات وحذر، وجاءته فرصته حينما ضاق المصريون ذرعاً بحكم خورشيد باشا الوالى، وطلبوا من الباب العالى تولية محمد على عليهم ١٨٠٥م. تغلب على كثير من الصعاب بحذق ودهاء عجيب، وفى توفيق كبير. كان نصر المصريين على حملة فريزر الإنجليزية ١٨٠٧م نقطة تحول فى حياته. إذ كسب رضا السلطان عنه. تخلص من المماليك ألد أعدائه بموت بعضهم وفرار البعض الآخر، ثم أباد بقيتهم فى مذبحة القلعة ـ ١٨١١م. استعان بالأجانب، وخاصة الفرنسيين، فى تنظيم الجيش والبحرية والرى والتعليم. وضع أسس حكمه بتغلبه على الوهابيين ببلاد العرب ١٨١١-١٨١٩م). على يد ابنه وخلفه فى الولاية إبراهيم باشا. ثم فتح السودان. لبى نداء السلطان محمود حين استنجد به لإخماد ثورة اليونانيين فى المورة، وأحرز الجيش المصرى انتصارات باهرة على الثوار ١٨٢٤ ـ ١٨٢٦م. ولكن فرنسا وإنجلترا وروسيا حرمته من جنى ثمار جهوده. غضب عليه السلطان لعدم تقديمه له أية معاونة فى الحرب الروسية التركية ١٨٢٨-١٨٢٩م)، فأخذ محمد على يستعد لمقاتلة سيده، أعد جيشاً حسن التدريب بقيادة إبراهيم، وسار من نصر إلى نصر، حتى وصل إلى كوتاهية١٨٣٣م. كافأه السلطان محمود فى غير رضا. بمنحه ولاية سورية لابنه إبراهيم. أحس محمد على أن محمود يريد به شراً، وانتظر حتى باداه بالعدوان،

فانتصر إبراهيم فى معركة نزيب الفاصلة ٢٣ يونيه ١٨٣٩م. وسلم عقبها الأسطول العثمانى لمحمد على، فصارت أبواب استانبول مفتوحة أمام إبراهيم. فجزعت إنجلترا وروسيا. وبعد مداولات ومناورات، اضطر إبراهيم إلى الجلاء عن جميع فتوحاته. وبمقتضى معاهدة لندن ١٨٤١م، لم يبق لمحمد على سوى حكم مصر له ولذريته من بعده.

ومع فشل محمد على الحربى، فإنه نهض بمصر نهضة كبيرة.. فقد أعلى مقامها بين الدول، وأدخل بها إصلاحات كثيرة فى جميع نواحى الحياة. من أهم أعماله، إنشاؤه كثيراً من المدارس العليا، وإرسال البعثات العلمية، وتشييد القناطر الخيرية، وحفره كثيراً من الترع الرئيسية والفرعية، وتحسينه ميناء الاسكندرية، وفتحه السودان ١٨٢١-١٨٢٣م، ونشر الأمن فى البلاد. ولكن يؤخذ على محمد على: حكمه الأوتقراطى، وانتزاعه جميع الأراضى من المصريين كى تصبح البلاد ضيعة شاسعة يمتلكها، وإرهاقه الأهلين بالضرائب الفادحة، وموت الكثيرين من الشبان فى حروبه المتعددة فى السودان، وسورية وبلاد العرب، والمورة وآسيا الصغرى. أناب عنه فى الحكم ابنه إبراهيم باشا فى أخريات حياته. مات بالإسكندرية. فى ٢/أغسطس/١٨٤٩)، ودفن بمسجده بقلعة الجبل، خلفه فى الولاية حفيده عباس الأول.

ثانياً: فى الثقافة... تغريب وكراهية للعروبة والأزهر!..

من الثابت أن التجربة التى قادها محمد على فى مصر. كانت تجربة تغريب، بكل مافى الكلمة من معنى.. فقد كانت تلك التجربة محاولة لإعادة إنتاج نهضة الغرب، أى تحقيق نهضة فى المنطقة العربية على الطريقة الغربية، على أساس أن حضارة الغرب هى النموذج والمثال والأسوة والقدوة. والأدهى من ذلك، أن تلك التجربة قد نفذت بالغرباء لا بالعرب أبناء البلاد...

إذ يقرر مثلاً المؤرخ أرنولد توينبى أن محمد على طبق عملية تغريب منظمة على سكان مصر، مدة خمس وثلاثين سنة.

ويقرر المفكر الدكتور فؤاد زكريا، أن محمد على أول علمانى حقيقى فى العالم العربى الحديث، وصاحب أول مشروع متكامل للنهضة كان قوامه التحديث الشامل على النمط الأوروبى.

ويقول المفكر محمود أمين العالم: لقد فشلت الحملة الفرنسية سياسياً وعسكرياً، ولكنها تركت بصماتها الحضارية فى مصر، ولم تكن دولة محمد على إلا التجسيد والاستمرار العملى لذلك. حقاً، لم ترفع هذه الدولة علماً فرنسياً، ولكنها أخذت ترفع علم التحديث، حسب النهج الفرنسى، أو النهج الرأسمالى الأوروبى عامة.

ويرى المفكر الدكتور برهان غليون أن دولة محمد على والدولة العربية الحديثة التى ظهرت فيما بعد كانتا تتطلعان إلى الغرب، وتتخذان الدولة النابوليونية مثلاً أعلى، ومثلما خلق نابليون طبقة ارستقراطية على مقاس حكمه الأوتوقراطى، أحاط الباشا المصرى نفسه بعصبية جديدة سائدة فوق عصبية المماليك البائدة، ليؤسس على أنقاضها أرستقراطيته الخاصة، وهى نسيج أقوامى: الأتراك والألبان والأكراد والشركس والأرمن والأوروبيون.

ويلاحظ العلامة محمود محمد شاكر أن محمد على كان واقعاً تحت تأثير القناصل والمستشرقين الأوروبيين وخاصة منهم المستشرق الفرنسى آدم فرانسوا جومار)، الذين كانوا يرعون ويوجهون طلاب البعثات المصرية فى فرنسا، وطلاب مدرسة الألسن، التى أنشئت فى مصر ١٨٣٦م) تحت إدارة رفاعة الطهطاوى، فشكل أولئك الطلاب: حزباً لفرنسا أخطر من حزب نابليون، ذلك الحزب الذى أراد نابليون أن يكون من الولاة المماليك ومشايخ البلدان الذين كانوا يتولون الحكم فى زمانه.

وكان من مثالب الطهطاوى أنه وضع أساساً لمدرسة ملفقة مبتورة الصلة كل البتر من مركز الثقافة المتكاملة، التى كان الأزهر مهدها على قرون متطاولة، وكان وحده على طول هذه القرون مركز ثقافة دار الإسلام فى مصر. وكذلك، أحدث رفاعة الطهطاوى صدعاً مبيناً فى ثقافة الأمة، وقسمها إلى شطرين متباينين: الأزهر من ناحية، ومدرسة الألسن فى ناحية، وكذلك حقق رفاعة لدعاة الاستشراق أهم ما يتوقون إليه من وأد

اليقظة الواحدة المتماسكة التى كان الأزهر مركزها، منذ عهد البغدادى والزبيدى والجبرتى الكبير، وفى وقت كان فيه محمد على الجاهل يحطم أجنحة الأزهر، ويضعه فى قفص لا يستطيع الإفلات منه، ويدبر كل مكيدة لإسقاط هيبته ومشايخه، ويعزلهم عن جمهور الأمة عزلاً بين قضبان من الحديد وجدران من الصخور. ومرت الأيام والسنون، وهذا الصدع يتفاقم، حتى انتهينا إلى ما نحن عليه اليوم من الانقسام والتفريق، وذهبت الثقافة المتكاملة فى دار الإسلام فى مصر أدراج الرياح. وهكذا، فقد انضمت مدرسة الألسن وطلاب البعثات) فى مصر، إلى الإرساليات التبشيرية والمدارس الأجنبية فى بلاد الشام، لتكوين الكماشة التى أطبقت على الثقافة الإسلامية، فأضعفت قواها، وأجبرتها على التراجع أمام الثقافة الغربية والغزو الفكرى والعولمة الثقافية.

وكذلك، يلاحظ المؤرخ الدكتور ذوقان قرقوط، أن ما قام به محمد على، من تعليم وتحديث.. الخ، كان هامشياً ضعيف الأثر، لأنه ارتكز على غير أبناء البلاد، حتى لقد كان الهدف من اختيار صغار السن لفرض العلم، لا من أجل التهيئة للاستيعاب وخلق قدرات الانفعال والتفاعل، وإنما لفصل أولئك الطلاب عن أصولهم، وقطع جذورهم، وبلغ به الأمر حد تغيير أسمائهم. ويقول الدكتور قرقوط أيضاً عن جيش محمد على: على عكس ما كان يظن الآخرون، كان هذا الجيش خليطاً من كل جنس، ولم يكن أبناء العرب مبعدين كل الإبعاد عن الاشتراك فى شئون الحكم فحسب، بل كانوا مبعدين كذلك عن الخدمة العسكرية، وكان المجندون القليلون يفصلون فى فرقة خاصة بهم، ويعزلون عن سائر الجند، ولم يبدأ رسمياً بتجنيد العرب إلا بعد حرب السودان.

ورغم انخفاض الروح المعنوية لجيش محمد على وخاصة بسبب كون قياداته أجنبية، وإرغام المجندين على خدمة طويلة قد لا تنتهى إلا بالموت، فقد أثار هذا التغيير فى التجييش بإشراك العرب فى الجندية وحمل السلاح، مخاوف أوروبا، وذلك لئلا تبعث انتصاراته الباهرة على إيقاظ الروح المعنوية فى الشعب العربى والشعور بالقومية، وخشية من أن يجىء يوم يرغب فيه هذا الجيش العربى الخالص فى

إقامة حكومة عربية، ثم يعمد إلى المطالبة بتحقيق هذه الرغبة، وقد تطوع محمد على بتبديد مخاوف أوروبا من يقظة الروح القومية عند العرب، فقال للسفير الفرنسى بوالو كومت: لم أعمل فى مصر سوى ما عمله الإنجليز فى الهند... فلديهم جيش من الهنود، يقودهم ضباط من الإنجليز. ولدىّ جيش من أبناء العرب، على رأسه ضباط من الترك. ولو خطر لكم أنتم أن تؤلفوا فى الجزائر فرقاً عسكرية من أبناء العرب، لاحتذيتم مثالى، ووضعتهم على رأسها ضباطاً من الفرنسيين، وقد كانت خشية محمد على من يقظة الروح القومية فى العرب لا تقل عن خشية أوروبا وبعد نظر. كان يدرك دور العسكرية فى حياة العرب، ولذلك حرص كل الحرص على ألا يدع أحداً من أبناء العرب يرقى إلى رتبة اليوزباش... فعندما طلب منه ابنه إبراهيم الموافقة على ترقية عدد من أبناء العرب الذين أبلوا بلاءً حسناً فى حرب الشام إلى رتبة اليوزباش، كتب إليه يقول:من المعلوم يا ولدى أن مثل هذا العمل سوف تترتب عليه نتائج خطيرة ولو بعد مئة عام..!

ثالثاً: فى السياسة.. تآمر واستبداد!

بالقضاء على خطر الإنجليز فى رشيد عام ١٨٠٧ وبالتالى على إمكانية عودة الألفى وهو أحد أمراء المماليك) الذى لم يكن له دور فيه، ثم بالقضاء على رؤوس المماليك فى مذبحة القلعة، وكانت قد أينعت وحان قطافها بفشلهم فى وجه الفرنسيين.. خلا لمحمد على المجال لمواجهة المشايخ الذين اختاروه للحكم، وساعدوه على خصومه، ومن بعد على تثبيته. فأثبت بذلك أنه كان واعياً لدرس ماكيافيلى القائل بأن على الحاكم تحطيم أولئك الذين رفعوه إلى الحكم، بدون قراءة ماكيافيلى.. إذ قال محمد على لوزيره آرتين الذى كان يترجم له كتاب الأمير بمعدل عشر صفحات فى اليوم، بعد اليوم الثالث: إنى أرى بوضوح أنه ليس لدى ماكيافيلى ما يمكننى أن أتعلمه منه، فأنا أعرف من الحيل فوق ما يعرف، فلا داعى للاستمرار فى ترجمته.

وهكذا... بتشتيته لشمل المشايخ، وتأليب بعضهم على بعض، وتمكنه أخيراً من استضعاف زعيمهم السيد عمر مكرم، ونفيه إلى دمياط، قضى على بدايات المشاركة

الشعبية، وعلى إمكانية التطور الحقيقى، ومضى فى طريقه منعزلاً نهائياً عن الشعب...

فقد عزل عمر مكرم من نقابة الأشراف ونقله أو نفاه إلى دمياط، ثم بطش بالمشايخ الذين تعاونوا معه فى هذاالأمر.. فالشيخ المهدى مثلاً حرمه محمد على من تولى مشيخة الأزهر، رغم انتخابه لهذا المنصب من قبل العلماء، والشيخ السادات الذى تولى نقابة الأشراف بعد عمر مكرم أهانه محمد على بعد وفاته، وصادر كل أمواله وممتلكاته وهدد أرملته بإغراقها فى النيل إذا لم تفصح عن حقيقة الثروة التى خلفها الشيخ المتوفى، والشيخ الدواخلى الذى تولى نقابة الأشراف بعد السادات عزله محمد على من النقابة، ونفاه إلى دسوق.

وبذلك يكون محمد على قد تخلص بالتآمر والتواطؤ والترغيب والترهيب من الزعامة الشعبية أو الأهلية، لأنه ماكان يطيق وجود زعماء مصريين يراقبون أعماله، أو يحدون من تصرفاته فى الحكم. صحيح أنه شكل مجلساً للحكومة يسمى الديوان العالى، ومجالس ودواوين أخرى، وأبرزها مجلس المشورة الذى شكل عام ١٨٢٩م، إلا أن هذه المجالس والدواوين التى شكلها محمد على لم تكن إلا لإضفاء الشرعية على حكمه، والإمعان فى إجراءاته الفردية، فلا يصح اعتبارها هيئات شعبية ممثلة لطبقات الأمة، كما لا يصح اعتبارها نواة لنظام الشورى بالمفهوم الإسلامى أو للنظام النيابى بالمفهوم الغربى... فالمجالس التى شكلها محمد على كانت مجالس تنفيذية أكثر منها تمثيلية، حتى أن مجلس المشورة الذى يجتمع مرة واحدة فى العام، وليس من بين أعضائه مصرى واحد!، لم يعمر طويلاً، إذ سرعان ما توقفت أعماله بوضوح أهدافه عند أعضائه.

وتمشياً مع انفراد محمد على بالسلطة، فرض نفسه كمالك فعلى وحيد للبلاد، وكسيد لمصائرها الحيوية... ففى سنة ١٨٠٨م، وبعد مضى ثلاثة سنوات فقط من حكمه، أصبح مالكاً لجميع أراضى القطر المصرى، وكذلك، فقد احتكرت الدولة تجارة المحاصيل الزراعية والسلع الصناعية.

وبذلك، يكون محمد على قد قضى على أية قوة أو زعامة أهلية دينية أو اقتصادية، يمكن أن تشاركه فى حكم البلاد. وقد أصر على أن تبقى العلاقة بينه وبين الشعب علاقة تبعية غير محددة، إلا فى ضوء واجبات أتباعه تجاهه، وليس العكس. ويمكن القول: لم يتجه ذهن محمد على أبداً، إلى إقامة نظام دستورى، أو شورى، يضمن للأمة حقها الدائم فى الإشراف والمراقبة على غرار الأنظمة الغربية المعاصرة لحكمه.

ولعلنا لا نبالغ إذا حملنا محمد على بعضاً من المسئولية عن جرائم الصهاينة فى فلسطين المحتلة... فقد :كان النشاط التبشيرى فى بلاد الشام أو فى فلسطين خاصة، على أهمية هذه الديار فى نظر الغرب، محصوراً ومتعثراً قبل حكم محمد على لبلاد الشام١٨٣١-١٨٤٠م، بسبب عقبات كثيرة، وأهمها معارضة الحكومة العثمانية وعدم توفر الأمن. غير أن قيام حكم محمد على فيها، خلق المناخ المناسب لنمو الإرساليات التبشيرية وتزايدها، بل والتنافس بينها لخلو الساحة من غيرها... فمنذ بداية الحملة المصرية إلى بلاد الشام، وجه قائدها العام بياناً إلى السلطات المدنية والدينية فى فلسطين، يطلب فيها رفع القيود عن المسيحيين واليهود المقيمين فى البلاد العربية والزوار الأجانب. وإذ سمح للإنجليز بافتتاح قنصلية لهم فى القدس، بادرت هذه القنصلية بوضع اليهود تحت حمايتها، علماً بأن اليهود فى بريطانيا نفسها لم يتمتعوا بالحقوق السياسية والمدنية إلا فى عام ١٨٩٠م. أى بعد أكثر من خمسين عاماً من تمتعهم بتلك الحقوق فى فلسطين أيام حكم محمد على!..

وقد جاء هذا الأمر متوافقاً مع نشاط موسى حاييم مونتفيورى الذى أم فلسطين فى ظل حكم محمد على، لتقوية الروابط مع اليهود المقيمين فيها، وافتتح لهم أول مدرسة، وحاول شراء بعض الأراضى ولم ينجح حينئذ. ونتيجة لهذا التسامح والنشاط، ألغيت الرسوم المفروضة على الحجاج المسيحيين للقبر المقدس فى القدس، وسمح لليهود ببناء كنيس لهم فى القدس، ومنحت جمعية يهود لندن التى تأسست عام ١٨٠٩م)، حرية العمل للتبشير فى فلسطين.

رابعا: فى الاقتصاد.. احتكار وعسكرة وإقطاع!

لقد قام اقتصاد مصر أيام محمد على، أساساً، على احتكار الزراعة، وتحجير الصناعة، وتوجيههما نحو تلبية احتياجات الجيش الذى تجاوز عدد أفراده ربع المليون)، لتحقيق مغامرات خارجية مكلفة للغاية. هذا إضافة إلى إرهاق كواهل المصريين بالضرائب والسخرة.

ففى الزراعة: ألغى محمد على عام ١٨٠٨م نظام الالتزام حيث كان بعض الوجهاء وشيوخ القبائل يلتزمون بدفع الخراج والجزية للمماليك، مقابل قيامهم بتقسيم الأرض على جماعاتهم وأبناء قبائلهم لزراعتها... فقد صادر محمد على الأراضى الزراعية، ثم أقطعها لأفراد أسرته وخاصته وكبار موظفيه من أكراد وشركس وأقباط وشوام، فوضع بذلك أساس الإقطاع الزراعى الذى ساد مصر بعد ذلك. وفى عام ١٨١٢م، بدأ الاحتكار الحكومى لتجارة المحاصيل الزراعية ومصادرة أية كمية منها تباع خارج الأقنية الحكومية، وصارت الدولة تشتريها من المزارعين بأسعار احتكارية، ثم تبيعهم حاجتهم منها بأسعار أعلى.

وقد أدى ذلك كله إلى سلسلة من الأزمات فى المواد الغذائية، وعجز عن تلبية الاستهلاك المحلى، واستياء عام لدى الفلاحين، وإلى درجة أن فلاحى الصعيد قاموا عام ١٨٣٠م، بإحراق محاصيلهم كى لا تقع فى أيدى رجال محمد على!!!.

وفى الصناعة عندما احتاج محمد على الموارد لتمويل الجيش، امتد احتكاره ليشمل الصناعات الوطنية القديمة، وخاصة منها صناعة الشموع من الشحوم، وصناعة الخشب والقصب، وتقطير ماء الورد، وصناعة السكر، ومعاصر الزيوت، وحياكة الأنسجة بالأنوال وكان يطلق على الاحتكار الحكومى للصناعات لفظ تحجير، ويشمل التحجير عدة عناصر رئيسة أبرزها:

- اختيار سلعة شائعة الاستعمال.
- جمع منتجى تلك السلعة والمتجرين بها، فى كل مدينة، على صعيد واحد، حتى يمكن إحكام المراقبة واجتناب الهرب.

- تعيين ناظر يعهد إليه بجمع المكوس المفروضة.
- شراء الحكومة أو الملتزم للخامات اللازمة للصناعة.
- احتكار البيع بسعر يحدده المندوبون الحكوميون.
- حظر إنتاج السلعة دون ترخيص خوفاً من ازدياد العرض، وإنزال العقاب بمن تسول له نفسه الإنتاج خفية.
- إرغام مشايخ القرى والبلدان على شراء حصة من الإنتاج بالثمن المحدد.

وقد لاقى تحجير الصناعة، وكما هو الحال فى احتكار الزراعة، استياءً عاماً من المواطنين، وإلى درجة أن عمال مصانع النسيج فى الصعيد مثلاً، قاموا فى عام ١٨٢٤م، بإشعال النار فى المصنع.

وفى مجال الضرائب: كانت الضريبة الشخصية أو فرضة الرؤوس أهم الضرائب، وكان ما يحصل منها عادة يشكل سدس إيراد الخزينة المصرية... فقد كان الذكور المراهقون كافة، مسلمين كانوا أو رعية، ملزمين بدفع هذه الفرضة متى بلغوا الثانية عشرة من عمرهم، وهى تختلف تبعاً لتفاوت الناس فى الثروة، وتعادل أجور عمل نصف شهر على الأقل. وكانت الضريبة الشخصية تحصل فى المدن عن النفوس، وفى القرى عن المنازل، وكانت تتزايد تزايداً يكاد يكون دورياً لتغطية نفقات الحروب وإرضاء السلطان العثمانى، وبحيث أنها ازدادت خلال ٢٤ عاماً فقط فى الفترة ٢٠–١٨٤٤م، بحوالى ٣٠٠٪. وقد شكل ذلك عبئاً كبيراً على الفلاحين خاصة، لأنهم كانوا مسئولين عن الضرائب بصورة جماعية، وبحيث أن القرية كلها كانت مسؤولة عن الضرائب المتأخرة، ومتضامنة مع غيرها من القرى المجاورة فى المتأخرات من الأموال، بل إن هذا التضامن كان يمتد أحياناً ليشمل وادى النيل كله.

ومما زاد الطين بلة، تطبيق نظام السخرة.. فقد كان الفلاحون يستخدمون إجبارياً، لحفر الترع وتطهيرها، وتقوية الجسور، وحراسة شواطئ النيل أثناء الفيضان.

وكان يحق للدولة نقل عمال السخرة إلى أى مكان فى مصر. وكانت السخرة تتم خلال تسعة شهور فى السنة، وبلغ متوسط ماكان يساهم به كل فلاح من العمل بالسخرة شهرين من السنة. وفى كتابه ثروة الأمم وفقرها، يلاحظ المؤرخ وعالم الاقتصاد دافيد لاندس، أن محمد على قد واجه مشكلة الطاقة البشرية والعمال المؤهلين، فاستخدم فى البداية العمال العبيد من دارفور وكردفان، وكان هؤلاء يموتون بالجملة بسبب الظروف السيئة وحالهم كحال مئات الآلاف من الإفريقيين الذين كان الأوروبيون يخطفونهم من بيوتهم وحقولهم، ليستعبدوهم فى المزارع والمصانع الأمريكية!... ثم لجأ محمد على إلى عمال السخرة ينتزعهم من بين أسرهم، وهو ماكان يدفع بعض هؤلاء العمال إلى تشويه نفسه لتجنب الخدمة، أو إلى تخريب الآلة التى يعمل عليها.

خامساً: الخلاصة والنتائج

لقد تولى محمد على حكم مصر فى عام ١٨٠٥م، ولم يكن يملك أية منظومة فكرية أو رؤية شاملة، ولكنه كان يحمل آمالاً عريضة بإنشاء امبراطورية فى المنطقة العربية على الطريقة الغربية، وهو لم يترك سدة الحكم فى عام ١٨٤٩م، إلا وقد انهارت آماله تماماً... فقد انكمشت امبراطوريته بحيث فقد كل ماهو خارج مصر، وخضع لشروط غربية مذلة أبرزها منح الامتيازات لرجال المال والأعمال الأجانب، والتسهيلات للإرساليات التبشيرية بما فيها اليهودية! بل إن المضاعفات السلبية لتجربته فى الحكم قد امتدت فى عهود خلفائه، وكان من أبرزها إرهاق كاهل مصر بالديون الأجنبية، فاحتلال الإنجليز لمصر المحروسة.

وبينما كانت تجربة محمد على فى نحوس مستمر، كانت تجربة اليابان التى بدأت بعدها بنصف قرن فى سعود مستمر، وإلى درجة أن المعجزة اليابانية أصبحت تنافس الامبراطورية الأمريكية التى هى الامبراطورية الأعظم فى هذه الأيام. وقد قيل الكثير وكتب الكثيرفى أسباب فشل تجربة محمد على ونجاح تجربة اليابان. وتبقى الأسباب الخمسة التالية فى نظرنا، هى الأكثر أهمية وحسماً:

١ - لقد قامت تجربة محمد على فى مصر على التغريب الكامل، ونفى تراث الأمة، بينما قامت التجربة اليابانية على التوفيق بين منجزات الحضارة الغربية وتراث الأمة اليابانية.

٢ - اعتمدت تجربة محمد على أساساً على الأجانب، بينما اعتمدت التجربة اليابانية على أبناء الأمة، وركزت على إذكاء الروح القومية.

٣ - لقد نفذت تجربة محمد على بتوجيهات ومبادرات من أعلى إلى أسفل دائماً، ومع تهميش دور الجماهير، بينما قامت التجربة اليابانية على أوسع مشاركة من المبادرات الفردية والأهلية.

٤ - سادت فى تجربة محمد على أنواع وأشكال كثيرة من القمع والاستبداد، بينما اعتمدت التجربة اليابانية على قدر كبير من الممارسات الديمقراطية.

٥ - لقد كان الهاجس الأول فى تجربة محمد على مجد الحاكم، بينما كان الهاجس الأول فى التجربة اليابانية نهضة الأمة..

وفى تقييمه لتجربة محمد على، يقول الشيخ محمد عبده: ما الذى صنع محمد على؟.. لم يستطع أن يحيى ولكن استطاع أن يميت، كان معظم قوة الجيش معه، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة، فأخذ يستعين بالجيش، وبمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه، ثم يعود بقوة الجيش، وبحزب آخر على من كان معه أولاً وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه. وهكذا، حتى إذا سحقت الأحزاب القوية، وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة، فلم يدع منها رأساً يستقر فيه ضمير أنا، واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلاً لجمع السلاح من الأهلين، وتكرر ذلك منه مراراً، حتى فسد بأس الأهالى وزالت ملكة الشجاعة منهم، وأجهز على من بقى فى البلاد من حياة فى أنفس بعض أفرادها، فلم يبق فى البلاد رأساً يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه، أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان، فهلك فيه. أخذ يرفع الأسافل ويعليهم فى البلاد والقرى، وكأنه كان يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم، حتى

انحط الكرام وساد اللئام، ولم يبق فى البلاد إلا آلات له يستعملها فى جباية الأموال وجمع العساكر بأية طريقة وعلى أى وجه، فسحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وعزيمة واستقلال، ليصير البلاد المصرية جميعاً إقطاعاً واحداً له ولأولاده... ويرى المفكر حافظ الجمالى أن محمد على كان يريد إنشاء دولة لحسابه، وكذلك يرى الدكتور قرقوط أن ماقام به محمد على، من تعليم وتحديث... الخ، كان لصالحه أولاً وقبل كل شيء.

وجاء فى الميثاق الذى قدمه الرئيس عبد الناصر إلى المؤتمر الوطنى لقوى الشعبية عام ١٩٦٢م، أن محمد على لم يؤمن بالحركة الشعبية التى مهدت له حكم مصر إلا بوصفها نقطة وثوب إلى مطامعه، ولقد ساق مصر وراءه إلى مغامرات عقيمة استهدفت مصالح الفرد بتجاهله مصالح الشعب.

ولم تكن تجربة محمد على فى التحليل الأخير، كما يرى المفكر الدكتور برهان غليون، إلا نهضة البعض واختناق الآخرين، أى نهضة للحاكم والنخبة المنتفعة واختناقاً للجماهير.

بل إن تجربة محمد على لم تكن إلا ثورة مضادة.. إذ يقرر المفكر محمود أمين العالم أن تحديث محمد على كان حسب النهج الفرنسى، ثم يضيف: وإذا صح هذا التصور، أليس من المنطقى أن نستخلص منه أنه لم تكن ثمة نهضة عربية آنذاك بالمعنى الذى ذكرناه سابقا؟..

أى ليس ثمة نهوض نابع من الشروط الداخلية للكيان القومى تحقق به تغيير جذرى شامل فى بنية هذا الكيان، وإنما كان الأمر مجرد صدمة من الخارج أفضت إلى أشكال محدودة من التغيير فى البنية الداخلية وخاصة فى تضاريسها العُلوية، بما يتفق مع الخبرة الأوروبية، وبما يتلاءم مع مصلحة السلطة الجديدة؟.. هل معنى هذا أن إنكار ما حدث مع تجربة محمد على يصلح أن نطلق عليه صفة النهضة؟.. الحق لا.. فقد تحققت ظواهر نهضوية تحديثية، ولكنها فى معظمها كانت مفروضة من الخارج،

ومن أعلى، وكانت تعبيراً - فيما أرى - عن المصالح السلطوية والتطلعات التوسعية لمحمد على، على أنى أزعم أنها قامت على حساب إمكانية قيام نهضة أخرى جنينية كانت تتخلق اقتصادياً ومجتمعياً خلال القرون السادس والسابع والثامن عشر داخل مصر وبلاد الشام بمستوى أو بآخر، كانت نهضة جنينية ذات جذور تراثية ومجتمعية وعلاقات اقتصادية متنامية تتسم بالطابع الرأسمالى التجارى، تمتد من المستوى الداخلى إلى المستوى الخارجى الدولى فى منطقة البحر الأبيض المتوسط. كما كانت تتسم بتوجهات ثقافية أخذ يتنامى فيها طابع الاستنارة العقلية... ولقد ظهرت خلال العقدين الأخيرين بعض الدراسات لباحثين عرب وغربيين أخذت تهتم بدراسة الواقع العربى الاقتصادى والاجتماعى والثقافى خلال السيطرة العثمانية وقبل مجيء الحملة الفرنسية، تكشف نتائجها عن إرهاصات هذه النهضة الجنينية، ونذكر من هؤلاء الباحثين: أندريه ريمون، وبيتر جران، وعبد الرحمن عبد الرحيم، ونيللى حنا وآخرين، وفى المنحى ذاته، يقرر المؤرخ الدكتور ذوقان قرقوط أن محمد على كان بطلاً حقاً، ولكن بطل الثورة المضادة!!!!

وصفوة القول...

لقد كانت تجربة محمد على: تغريباً فى الثقافة، واستبداداً فى السياسة، واحتكاراً فى الاقتصاد، وإذلالاً فى الجيش، وتبعية فى التقانة أو التكنولوجيا، وإذا كان البعض يعتبر تجربة محمد على مشروعاً نهضوياً عربياً، فإننا نرى أنها لم تكن مشروعاً، ولم تكن نهضة، ولم تكن عربية!!! ونتساءل أخيراً: هل يحق لنا أن ننتظر شيئاً أفضل، من رجل كان أمياً جاهلاً، وكان مصاباً بجنون العظمة، وكان ماكيافيلياً أكثر من ماكيافيلى نفسه، وكان كارهاً للعروبة والإسلام، وكان ألبانى الأصل، تركى الجنسية، وفرنسى الهوى؟!؟...

■■■



الإخفاق

▪▪

أوردنا فى الفصل السابق نظرية ترى فى محمد على باشا هو الشيطان الرجيم، وسنوالى تناول المقالات والدراسات الأكاديمية التى تناولت تجربة محمد على من زوايا مختلفة ولعلنا هنا نهتم بأسباب إخفاق تجربة محمد على، لن نسميها فشلا، ولا هزيمة، ولن نطلق عليها من باب الدلع نكسة. سنقول إخفاق المشروع النهضوى لمحمد على.

وللإجابة على سؤال لماذا أخفق مشروع محمد على وابنه إبراهيم؟ نقرأ الملف الذى نشرته مجلة الجزيرة الثقافية والذى جاء فيه أن أسباب الإخفاق قد تساق إلى عوامل داخلية عديدة، منها أصولهما غير العربية، الذى من شأنه أن يشكك فى أصالة دعوتهما إلى نهضة عربية وقومية؛ ومن ثم التشكيك بدوافعهما، بوصفها دوافع شخصية، ليكسبا لأنفسهم امبراطورية وأنهما كانا مختلفين فى تقديرهما لقوة العرب وفى مقدار اعتمادهما على تعاونهم ومؤازرتهم، حيث كان إبراهيم أكثر إيجابية وثقة بإمكانية الجمع بين (تحقيق النهضة العربية وتأسيس الامبراطورية).

ويضاف إلى ذلك السخط الذى انتشر بين الناس، بسبب تنفيذ إبراهيم لأوامر أبيه فى فرض ضرائب جديدة، وجعل التجنيد إجبارياً؛ فنشبت الثورات فى أنحاء البلاد، وإذا كان إبراهيم قد نجح فى إعادة النظام حيناً، غير أنه أضاع حب الشعب له

وبالمحصلة فإن هذا المشروع كان سابقاً لزمنه، ولمستوى تطور الوعى الاجتماعى المنضد وفق علاقات اجتماعية عمودية فسيفسائية، حيث هيمنة (الولاء الطائفى بدلاً من التضامن الحضارى الجامع... وحيث إن الوطنية لم تكن بمعناها القومى

معروفة آنئذ) رغم ترحيب الطوائف بحملة إبراهيم كل لسببه؛ فقد رحب المسلمون بها لأنهم كانوا يعتقدون أن تأسيس امبراطورية عربية واسترجاع الخلافة إلى أيدى العرب سيقوى من سيادتهم، ورحب النصارى لأنهم رأوا نظام محمد على فى مصر يقوم على التسامح والمساواة، وهذا ما حدث فعلاً عندما ألغى إبراهيم القوانين الاستثنائية وجميع ما كان يسرى على النصارى وحدهم؛ ليصبحوا متساوين أمام القانون مع المسلمين، كأول مظهر من مظاهر الحداثة المدنية السياسية التى أسس لها إبراهيم ليس كتدبير إجرائى إدارى، بل هو تدبير ينسجم ويتآلف مع الوعى النهضوى التنويرى الليبرالى التحديثى الذى راح يؤطر مفهومه القومى.

إن هذه العوامل الداخلية قد تضىء المشهد التاريخى بوصفها مقومات سياسية اجتماعية تشير إلى افتقار الوعى الاجتماعى إلى التضامن القومى والحضارى المؤسس على وعى الفرد بالمواطنة، لكن هذه العوامل إذا كانت تضىء فهى لا تفسر ولا تعلل انهيار التجربة؛ وذلك لأن التجربة بالأصل لم تكن ثمرة هذه المشروعية الاجتماعية والثقافية والحضارية، ولم تكن نتاجاً لها، أو استمراراً ومعادلاً لتكوينها ونضجها؛ فحكم محمد على لم يرتكز على هذه الشرعية الشعبية ليكون صوتها وممثلها، بل هو حكم قائم بالأصل على القوة والغلبة والفتح الامبراطورى الذى هدد قسطنطينية ذاتها لولا دور العامل الخارجى وتدخل أوروبا، وهو العامل الحاسم فى لجم طموحات محمد على ومن ثم تحجيمه داخل مصر وإخفاق مشروعه القومى التوحيدى، فلم يكن محمد على إذن سوى ذلك الحاكم المستبد لكنه المستنير، والذى سيتحول فى المخيال السياسى والاجتماعى لاحقاً إلى تطلع النخبة لنموذج (العادل المستبد) الذى طالما حلم به الأدب السياسى المصرى؛ وبذلك يمكن القول: إن محمد على كان الأداة غير الواعية للتاريخ الذى اقترفته يداه؛ فالمشروع الاقتصادى التحديثى الصناعى الوطنى كان يستدعى معادله فى المشروع القومى السياسى الحديث تعريفاً؛ فقد أدى الدور التاريخى ذاته للمشروع التحديثى البورجوازى الصناعى الأوروبى من حيث التقويض والإنشاء، تقويض البنى التقليدية العتيقة والمغلقة للمجتمعات الإقطاعية الامبراطورية، التى ما كان لها أن تصمد أمام

القوى البورجوازية المدنية الحديثة الناشطة والفتية، تماماً كما عجز الجيش الامبراطورى العثمانى عن أن يصمد أمام فتوة وحداثة وتنظيم الجيش المصرى الحديث الذى راحت السلطنة العتيقة تلجأ إليه لرمرمة وضعها الآيل للانهيار أمام الثورات التى راحت تجتاح كيانها، قبل أن يصل هذا الجيش إلى مستوى تهديد مركز الخلافة ذاتها (القسطنطينية) حيث ستبادر الدول الأوروبية لحماية السلطنة وإنقاذها بالضد مما يقوله الخطاب العربى القوموى - الإسلاموى التقليدى و(العثمانى المحدثن) اليوم، فى أن القومية العربية كانت مؤامرة الغرب ضد الدولة العثمانية حامية حمى الإسلام.

إن أوروبا لم تحم مركز السلطنة التى كانت قد اخترقتها اقتصادياً فحسب، بل إنها لعبت الدور الحاسم فى إسقاط مشروع بورجوازى تحديثى قومى ذى مضمون وطنى طامح لتحقيق تنمية مستقلة ومتمحورة حول ذاتها رغم نواقصها المتمثلة بضعف الجنين البورجوازى نفسه والفهم التقليدى للأيديولوجيا فقد زودت بريطانيا العناصر الساخطة على حكم إبراهيم باشا فى سوريا بالسلاح والمال، وأرسلت إلى لبنان أحد عملائها (ريتشارد وود) للاتصال بالعناصر الساخطة على حكم الأمير بشير نفسه فى تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٤٠ حيث تم نقله على سفينة بريطانية إلى مالطا، وضربت المدافع البريطانية والنمساوية والعثمانية بيروت وعكا مجبرة إبراهيم باشا على الانسحاب، وأرغمت بوارج أوروبا الحربية الواقعة أمام ساحل الإسكندرية، محمد على على الإذعان لشروط المعاهدة التى أبرمت فى لندن ١٨٤٠ بين القوى الأوروبية فيما عدا فرنسا، والتى حددت حكم محمد على بحدود مصر، وعلى تنفيذ معاهدة (بالتايمان) التى عقدتها بريطانيا مع الباب العالى فى ١٨٣٨ والتى رسمت إطار السياسة التجارية لكل البلاد الخاضعة للامبراطورية العثمانية حتى قيام الحرب العالمية الأولى... حيث تنص اتفاقية ١٨٣٨ على إلغاء كل أنواع الاحتكار الذى كان يمنع التجار البريطانيين من إقامة علاقات مباشرة بينهم وبين التجار المحليين، بينما كان نظام الحماية الذى فرضه محمد على على مصر وسورية والسودان يشكل عائقاً أمام التوسع فى صادرات المنسوجات البريطانية فلابد من إزالته

إذن لم يكن تدخل الغرب إلا لضرب مشروع اقتصادى تنموى كان يؤسس لتحديث المجتمع وفتح آفاق واسعة أمام ممكنات الدمج القومى، ليس على المستوى الداخلى المصرى فحسب، بل على المستوى القومى العربى؛ ولهذا راح الخطاب الأوروبى يشكك بفعالية التجربة وجعل التشكيك تبريراً لتحطيمها، فقيل: إن الصناعات التى أقامها كانت باهظة التكاليف أو إن المنتجات التى كانت تنتجها مصانعه كانت أعلى نفقة بكثير من أسعار المنسوجات البريطانية التى كان يمكن استيرادها، وإنه مع حلول ١٨٤٠ (زمن التدخل الأوروبى) كانت خسائره قد وصلت إلى حد سيجبره عاجلاً أم آجلاً على التخلى عن محاولة تحويل مصر إلى بلد صناعى، وقال عنه بالمرستون، وزير الخارجية البريطانى، فى ١٨٢٣ إنه (ليس أكثر من همجى جاهل، نجح عن طريق المكر والذكاء الفطرى فى الثورة والتمرد... إننى أنظر إلى ما يزعمه من تمدينه لمصر على أنه كذب وخداع محض، وأعتقد أنه ليس أقل استبداداً وإرهاباً من أى حاكم آخر استعبد شعبه من قبل).

ذلك هو الخطاب الأوروبى المتمركز حول ذاته، حسب سمير أمين ومدرسة التبعية، حيث تمويه المصالح بدخان أيديولوجيا احتكار التقنية والمدنية والديموقراطية؛ إذ ترمى كل محاولة قومية تحريرية لتحديث الاقتصاد والسياسة المستقلة عن مركزيته، بالهمجية والاستبداد والإرهاب، والنظام العربى منذ محمد على ـ وربما طوال تاريخه الآسيوى ـ حتى اليوم أمين على صورته الاستبدادية الهمجية التى تعطى الخارج كل الفرص لاختراقه وإعادته إلى بيت الطاعة للنظام الدولى الذى طالما ظهر النظام العربى أنه خارج عليه، وعلى المبادئ العامة التى تحكم منطق السياسة الداخلية والدولية، وما أشبه خطاب بالمرستون المنطوق منذ قرن ونصف بالخطاب الإعلامى الغربى لقوات التحالف حين ضرب العراق فى حرب الخليج الثانية أو احتلال العراق فى ٩ أبريل ٢٠٠٣م.

هذا الخطاب المعلن عن عجز تجربة التصنيع المصرية المستقلة، وعن السخط الداخلى على محمد على وابنه إبراهيم، وعن استبداد الرجل وهمجيته، يتكشف عن الحقيقة المضمرة الكامنة وراء الخطاب المعلن، عندما يكتب بالمرستون إلى أخيه فى

نابولى قائلاً: (إن المقصد الحقيقى لمحمد على هو أن ينشئ مملكة عربية تضم كل البلاد التى تتكلم العربية، وقد يكون الأمر فى ذاته لا ضرر منه، ولكنه يرمى إلى تقطيع أوصال تركية وهو ما لا نرضى عنه أبداً، وفضلاً عن ذلك، فإن سيطرة الأتراك على الطريق إلى الهند ليست فى نظرنا أسوأ من خضوع هذا الطريق لحاكم عربى قومى (أو بصيغة ترجمة أخرى)، فإن أى ملك عربى، مهما بلغت قوته، لن يكون أقدر من تركيا على المحافظة على ما نحتله من طريق إلى الهند). فالمشكلة إذن ليست فى إقامة (مملكة عربية) بل قد يكون لا ضرر منها، حسب بالمرستون، بل المشكلة فى تغيير النظام والبيئة الإقليمية المتوافقة مع مصلحة القوى الدولية الكبرى، والتى عملت على مدى واسع من الزمان لإقامة هذه المصفوفة الإقليمية، فيأتيها طاغية مستبد - بحمق وقصر نظر - ل(يقطع أوصال) هذه المصفوفة دون الأخذ بعين الاعتبار ميزان القوى القائم، فيقع فى فخ الخروج عن الشرعية الدولية كما فعل محمد على الذى فضلت بريطانيا سيطرة دولة الرجل العثمانى المريض على الطريق إلى الهند على سيطرة القوة الصاعدة الشابة لكنها الطائشة الممثلة بالدولة المصرية الشابة.

هذا ما كان بالأمس، أما اليوم فإن قوة العراق الاقتصادية والعسكرية والبشرية تتعرض للتدمير قرباناً لسفاهة وحمق بعض الشباب القوميين الثوريين (البعثيين)، الذين لم يتح لهم طيشهم أن يفهموا ما معنى (تقطيع أوصال) النظام الإقليمى فى الخليج إذا ما احتلوا الكويت؛ فها هى المنطقة تعيش حتى اليوم عقابيل هذه الحماقة (القومية) السوداء لثلة من المستبدين الصغار الذين ظنوا أن بإمكانهم أن يفعلوا ما يحلو لهم فى العالم مثلما يفعلون فى بلادهم طغياناً واستبداداً واحتقاراً لشعوبهم.

لقد كان بإمكان أوروبا أن تفرض شروطها على السلطنة العثمانية الإقطاعية ذات الاقتصاد القروى البسيط، حيث فقدان الأمن لممكنات تطور رأسمالية فى دولة يأكل مرزباناتها وباشواتها الجشعين أية قيمة زائدة مكتسبة، حيث أرغمت السلطنة على عقد معاهدة (بالتيمان) ١٨٣٨ الذى يفتح أبوابها أمام اجتياح الرأسمال الغربى، واستتبع ذلك صدور الخط الشريف الكلخانى ١٨٣٩ وعززه الخط الهمايونى السلطانى تحت

ضغط الشعارات الأوروبية لاحقاً، فراحت السلطنة تـ(تأورب) تحت ضغط انحطاطها؛ فالنزوع إلى الإصلاح هذا لم يكن إلا استجابة للنخب الإقطاعية الارستقراطية الحاكمة لصون مواقعها فى صراعها مع أوروبا، من خلال إلغاء الحماية والاحتكار وفتح أبواب البلاد أمام السلعة الأوروبية، التى من شأنها أن تنتج وكلاء ووسطاء محليين؛ فلم تكن آفاق السلطنة من خلال الاتفاقيات والفرمانات والخطوط سوى شكل من أشكال التأورب الذليل كما هى حالة الأمركة الذليلة للنظام العربى اليوم الذى لا يزال يواصل المرض الإمبراطورى للسلطنة العثمانية بعنجهية شعارية وفخامة نضالية عالية الأناقة الطاووسية، فهو يرفض النموذج الأمريكى السياسى الديموقراطى والثقافى التعددى المدنى والحداثى، ويقبل السياسات المعبرة عن المصالح القومية الأمريكية التى لا تتيح إلا تكوين رأسماليات تابعة، كومبرادوية كثمن لابد منه لهذه الأنظمة التى ترفض أن تتغير بما يتلاءم مع توجهات الروح العالمى الجديد، وعلى هذا فهى أنظمة تتأمرك تحت ضغط انحطاطها، وليس تحت ضغط وعيها الوطنى بحاجة بلادها للخروج من واقعها الذليل عبر الحرية والمشاركة والديموقراطية واحترام حقوق الإنسان.

غير أن الإخفاق يرجعه البعض إلى قانون بلطة ليمان، ولكى تتعرف أكثر على هذا القانون وتأثيره على تجربة محمد على فلتقرأ معى تلك السطور:

كثيراً ما تتردد على الألسنة فى المقاهى مقولة أن مصر واليابان بدأتا رحلة التطوير والعصرنة فى الوقت نفسه ولم ينته بهما الحال إلى نفس.ما يهمنى هنا هو تجربة محمد على فى الدخول بمصر إلى عصر الصناعة وتكوين الهوية الوطنية وأسباب الفشل.تحدث البعض خلال فترات الاستعمار عن فشل التجربة الصناعية المصرية فى بدايات القرن التاسع عشر نتيجة قلة موارد الطاقة وتحدث آخرون عن قلة الموارد الطبيعية من المعادن والخامات. آخرون تحدثوا عن ضيق السوق المحلية المستهلكة لأى منتج وآخرون اتهموا العمال المصريين بالغباء وعدم مواكبة التطور.هذا النوع من الخطاب التقليدى- الذى قد نجد الرد عليه أكثر من بديهى الآن - كان سائداً فى تلك العصور الاستعمارية فى القرن التاسع عشر الغرب لتفسير فشل تجربة محمد على فى

النهوض بالصناعة.إذاً لماذا فشلت التجربة؟بالطبع لا يمكن حصر الأسباب بتلك البساطة وإن كان تحالف الأسباب الداخلية والخارجية معاً قد أدى لتلك النتيجة.يمكن تلخيص أسباب الفشل فى قانون الـ Balta Liman الصادر من الباب العالى(ببساطة شديدة الجمارك على المنتج الإنجليزى أقل من ضريبة التصدير على المنتج المصرى داخل السلطنة العثمانية)، إغلاق الأسواق المستهلكة بفعل الاستعمار فى وجه المصريين ولاسيما بلاد الشام واليونان وشمال أفريقيا، بالإضافة إلى سحب تقليص النفوذ المصرى خارج مصر بفعل ضغوط الإنجليز على السلطان العثمانى مما تسبب فى غلق الأسواق واحدة بعد الأخرى بالإضافة إلى تحالف السلطنة مع الغرب لهزيمة محمد على عسكرياً.الصناعة الوحيدة التى يمكن القول أنها ماتت ميتة طبيعية هى صناعة السلاح والسفن بعد الهزيمة العسكرية للجيش على الرغم من أننا قد رأينا عكس ذلك فى اليونان بعد هزيمتها العسكرية.على العموم، توسع محمد على فى استيراد الخامات (خاصةً المعادن) وأغلق باب الاستيراد فى وجه السلع المنافسة للمنتج المحلى (خاصةً المنسوجات والزجاج) توسع محمد على بالرغم من ذلك فى تصدير المنسوجات القطنية والحرير والزجاج لموانئ فرنسا، انجلترا، أزمير، تونس، مالطا، إيطاليا واليمن. وعرض مليون ونصف ريال لمن يستطيع أخذ بضائعه إلى الهند. Boislecomte claimed that Egypts revenues came to equal those of France and were five times those of Russia. لم يؤمن محمد على فى قدرات المصريين إلا عندما اخترع فلاح مصرى يدعى حسين شلبى عجوة أول ماكينة لضرب الأرز وكانت البعثات التعليمية قبل ذلك مقصورة على الترك.حدث هذا فى وقت كانت أوروبا تتحول فيه بسرعة مطردة من الزراعة إلى الصناعة وتفقد يدها العاملة المزارعة لصالح الصناعة بشكل أصبح يهدد قدرتها على توفير الغذاء لشعوبها (فى تلك المرحلة ظهر نوع جديد من التقسيم لدول العالم إلى دول صناعية وأخرى زراعية كمصر والهند).حاول محمد على الالتفاف حول الـ Balta Liman بإعادة توزيع الأراضى الزراعية (التى صادرتها السلطنة فى وقت سابق من المصريين) على أتباعه وقادة

جيشه (ما عرف فى وقت لاحق بالإقطاعيات) فى مقابل تعهدهم بتوريد المحاصيل الزراعية لمقايضتها مع الغرب بما يحتاجه من مستلزمات من أجل الصناعة، و هو ما فشل فيما بعد نتيجة المغريات المادية من الغرب من جهة وأطماع الكسب السريع من الملاك بالإضافة إلى تعديل الـ Balta Liman من جهة أخرى للسماح للأجانب بالشراء من الملاك بشكل مباشر دون العودة للسلطات المحلية.كعادة الغرب بشكل عام، بدأ الغرب فى ترديد مقولة مفادها أن محمد على دمر الزراعة المصرية بتكوين الجيش وتوجيه الفلاح لمهن أخرى غير الزراعة بعكس مصالح الشعب المصرى المعتمد على الزراعة لإقناع السلطان بخطورة أفعاله على السلطنة.فى الحقيقة كان لجيش محمد على الوليد دور أكبر من الحروب بكثير فى تلك الفترة، كان أهمها على الإطلاق إعادة تمصير الشعب وزرع الهوية الوطنية بعد سنين الاستعمار الطويلة وسنين فقدان الهوية.أضف إلى ذلك كون أن وجود جيش عصرى تطلب وجود أطباء ودواوين وكتاب ومهندسين وعمال مهرة، و هو ما دفع بالدولة لتعليم الفلاحين كل تلك المهن.أضف إلى كل هذا أهمية السيطرة المصرية على سوريا للسيطرة على تجارة شرق البحر المتوسط وإمداد مصر بالخامات السورية الغير متوفرة فى مصر كالفحم والأخشاب بجانب سيطرة التجار السوريون على مفاتيح التجارة مع الشرق بالإضافة لخلق منطقة عازلة بين مصر وتركيا.يمكن القول ببساطة بأن نشأة الدول حول العالم تحدث نتيجة شعور وطنى وثقافى يجتاح مجموعة معينة من البشر يتم ترجمته فى صورة دولة. ما حدث فى مصر هو تكوين الدولة ومن ثمة خلق الروح الوطنية وهو ما أخذ فى النمو تدريجياً وصولاً إلى الثورة العرابية.أعلم أن ما سأقوله الآن قد لا يعجب البعض إلا أننى كلما قرأت عن تجربة محمد على أجدها شديدة الشبه بتجربة ناصر. محاولات لخلق صناعة وطنية تحت رعاية وإشراف الدولة، تحالف غربى ضد المشروع، توسع إقليمى ثم هزيمة عسكرية قضت على المشروع.

■■■



الجيش بنى مصر الحديثة

■■

نشرت مجلة المصور سلسلة مقالات مترابطة تحت عنوان مكانة مصر للمؤرخ الأستاذ الدكتور يونان لبيب رزق.. تتناول المقالات جوانب هامة من تاريخ مصر الحديث فى المجالات الثقافية والإجتماعية والإقتصادية، وكان من بين تلك المقالات واحد يتناول تجربة محمد على ونحن نتعلم من الدكتور يونان دأبه الشديد فى التحصيل، وموضوعيته شبه المطلقة. حيث يقول د.يونان:

المكان لا يفتقد قيمته أبداً بحكم أنه صناعة جغرافية، والجغرافيا لا تتغير، غير أنه يمكن أن تتعطل أهميته لفترة قد تطول أو تقصر، مما قد يحدث نتيجة لظرف تاريخى معين، وهو ما حدث لمصر خلال القرون الثلاثة التى قضتها تحت الحكم العثمانى من أوائل القرن السادس عشر وحتى أواخر القرن الثامن عشر. وما نعنيه بـ (التعطل) هنا أن المكان الذى ظل يؤهل مصر لتكون لها دائماً المكانة، لم يعد يؤدى الدور نفسه الذى طالما لعبه من قبل لأسباب تعلق بعضها بها واتصل البعض الآخر بانقطاع التواصل بينها وبين الشمال عبر المتوسط، وانحصاره فى العلاقة مع الشرق فى القليل عبر هذا البحر وفى الغالب عبر الطريق البرى، الأمر الذى نلاحظه بعد أن فقدت (الإسكندرية) دورها كنافذة عريضة للدور المصرى الاقتصادى والسياسى، وكان دوراً رائداً، لتلعب (دمياط) الدور نفسه، وكانت نافذة أضيق كثيراً، إذ أنها لم تطل سوى على الممتلكات العثمانية. أما الأسباب المتعلقة بها فقد نجمت عن طبيعة الحكم الذى ساد خلال تلك الفترة، خاصة إبان أواخر القرن السابع عشر والقرن الذى يليه حيث أخذت قوة الدولة تذوى وبدأت تلاقى الهزائم فى أوروبا، مما تبعه أن المماليك بعد أن

كانوا يؤدون دور (الأداة) للحكم العثمانى أصبحوا يؤدون دور (الشريك) وفى الغالب (الشريك المخالف)، وكان الضحية أبناء الشعب المصرى الذين عاشوا فى أسوأ الظروف نتيجة لعمليات النهب التى تعرض لها، الأمر الذى نتج عنه قلة ظاهرة فى عدد أبنائه، فقد كان متوسط هذا العدد وقت الغزو العثمانى يقارب الملايين العشرة، فقل وقت الحملة الفرنسية إلى نحو ثلاثة ملايين. أضف إلى ذلك أن أغلب هؤلاء الباقين عاش فى الريف وعانوا الأمرين من نظام الالتزام، حيث قام الملتزمون أمراء المماليك وكبار التجار وبعض العلماء، وكان غالبهم يعيش خارج زمامات التزاماتهم بالحصول على ضرائبهم الشرعية وغير الشرعية كاملة، مسلطين فى ذلك موظفيهم الذين تعودوا على التعامل مع الفلاحين بمنتهى القسوة. لك بعد ذلك أسباب لم يكن للمصريين ذنب فيها، ونعنى بها العزلة التى فرضتها سياسة الحكم العثمانى على مصر، وكانت سياسة لها أسبابها، فقد حدث بعد أن تعرضت بعض موانى الحجاز للضرب من بعض السفن الحربية البرتغالية، أن فرضت الدولة حظراً على الإبحار الأوروبى فى البحر الأحمر شمال الحديدة، وحدث فى الوقت نفسه فرض قيود مشددة على تجارهم خاصة من أبناء المدن الإيطالية والموانئ الفرنسية الواقعة على المتوسط، حتى إنه عند قدومهم إلى الإسكندرية أو القاهرة فرضت عليهم الإقامة بحارات معينة اختلفت عن الحارات التى يقطنها المصريون فى أنها كانت تغلق بعد آذان المغرب من الخارج وليس من الداخل.

حدث كل هذا بينما كانت أوروبا تموج برياح التغيير التى كان مفروضاً أن يلحق بعضها بمصر، وذلك بدءاً من عصر النهضة وما اكتنفه من حركة إنسانية Humanism غيرت كثيراً من مفاهيم العصور الوسطى الأخروية، ومروراً بحركة الإصلاح الدينى Reform والتى أنهت سيطرة الكنيسة الكاثوليكية على كثير من مظاهر الحياة الدنيوية، خاصة التعليم الذى كان يديره الرهبان من أبنائها، ووصولاً إلى حركة التنوير Enlightenment وانتهاء بالثورة الفرنسية التى أرسلت بونابرت إلى مصر حيث حدث اللقاء بعد طول فراق، وكان لقاء درامياً بكل المقاييس، إذ لم يكن لقاء بين ثقافتين بقدر ما كان لقاء بين غريبين وغريمين فى الوقت نفسه، إذ لم يكن

للمصريين عهد بأية قوة عسكرية منذ حملة لويس التاسع الصليبية. ولا نريد أن ندخل هنا فى اللجج الذى دار منذ نحو عشر سنوات ١٩٩٨ حول آثار الحملة النابليونية على مصر بمناسبة مرور مائتى عام عليها، ولكن ما لا نظن أن أحداً يخالفنا فيه أن مصر بعد الحملة اختلفت جد الاختلاف عنها قبل قدومها، فقد أعاد المصريون اكتشاف أنفسهم وانكشف لهم الوهم الذى عاشوا فى ظله طوال القرن الثامن عشر على الأقل أن حكامهم من أمراء البيوت المملوكية ورجال الحامية العثمانية قادرون على حمايتهم من الأخطار الخارجية، وبالذات النصارى الكفار من الأوروبيين، ومن ثم سقطت شرعية هؤلاء خاصة عندما تصوروا أنهم قادرون على إعادة مصر إلى ما كانت عليه قبل قدوم الحملة، الأمر الذى عاد معه (الإنسان) المصرى للتحرك وخلع جلباب السلبية الذى تدثر به طوال القرن الثامن عشر على الأقل. هذا بالنسبة للمصريين، أما بالنسبة لأوروبا فإن الحملة الفرنسية قد أدت إلى إعادة اكتشاف أهمية (المكان) الذى كانت القوى الرأسمالية قد تغاضت عنه أثناء بناء الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى، خاصة البريطانية والفرنسية، والتى أقامتها عبر البحار، وكان طريق (رأس الرجاء الصالح) يناسبها أكثر، فقد كانت الشركات التجارية الكبيرة التى قامت بهذه المهمة تبحث عن المناطق الساحلية حيث تقيم مراكزها التى تتخذها للاتجار فى كل ما له قيمة بدءاً من العاج ووصولاً إلى البشر، غير أنه يمكن القول أن تلك الحركة التى نشطت خلال القرن السادس عشر كانت قد استقرت بعد قرنين ولم تعد الحاجة إلى المحيطات الواسعة تعدل الحاجة إلى طرق قصيرة تؤدى إلى تلك الإمبراطوريات، وكانت مصر (المكان) تقدم نموذجاً مثالياً على ذلك، الأمر الذى توفر معه ضلعان من الأضلع الثلاثة التى تصنع المكانة، ولم يبق سوى الضلع الثالث حتى تكتمل المنظومة، ويتم تفعيل المكانة، وفى هذه الظروف ظهر محمد على، وفى تقديرنا أنه لو لم يفعلها لفعلها غيره فقد كانت كل الظروف مهيأة. لا يصنع حركة التاريخ مخلوقات تهبط من السماء سواء كان هذا المخلوق ملاكاً رحيماً كما يحلو لمن يصدرون الأحكام على دور الزعماء أن يصوروا بعضاً من هؤلاء، ولا شيطاناً رجيماً كما يحلو لآخرين أن يصوروا سواء هؤلاء الحكام

أنفسهم أو غيرهم. من يصنع حركة التاريخ يكون عادة أحد أبناء المجتمع الذى عايشه بكل ما فيه، ورصد بعض ما يتوجب عليه تغييره حتى جاءته الفرصة، فانتهزها وفعل ما أراد وترك الحكم للتاريخ.. حدث هذا بالنسبة لمحمد على الذى كان فى البداية والنهاية أحد قادة الجيش العثمانى الذى جاء يحرر مصر من الفرنسيين، فرأى أن يحررها بعد الانتهاء من هذه المهمة من النظام القديم الذى يسر لهؤلاء غزو مصر، وحدث هذا بعد ذلك بنحو قرن ونصف القرن عندما فعلها جمال عبد الناصر، وكان فى البداية والنهاية أحد ضباط الجيش الملكى، وهو نفس ما حدث بالنسبة لبناة الدول فى أوروبا، هنرى الثامن فى انجلترا ولويس الرابع عشر فى فرنسا. وعندما كان يحدث ويتصدى للتغيير أحد العناصر الخارجة عن النظام القائم، فقد كان لا يلقى قبولاً من العامة، خاصة مع اختلاف الثقافة والدين، ويرى بعض المؤرخين البريطانيين أن ما قام به اللورد كرومر Cromer المعتمد البريطانى فى مصر من إصلاحات قد تعادل ما صنعه أبناء أسرة محمد على، سواء من المؤسس أو حفيده إسماعيل، حتى أن بعض الكتاب وصفوه بأنه (المؤسس الثانى لمصر الحديثة The Second Founder of Modern Egypt غير أن هذا القول لا يلقى قبولاً من المصريين، مهما كانت قيمة الإصلاحات التى أجراها خلال فترة حكمه فى أقدارهم، والتى ناهزت نحو ربع القرن ١٨٨٣ ١٩٠٧ فهى على أى الأحوال إصلاحات كانت تقتضيها المصالح البريطانية فى البلاد. لقد أدرك محمد على منذ وقت مبكر أن الظرف موات للتخلص من مفردات النظام القديم السياسية بالإنفراد بالزعامة واستغلال المركزية التى تتمتع بها مصر، وقد تمثلت فيما كشفت عنه أعماله فى التخلص من فعاليات سيادة الباب العالى، وفى ضرب العلماء الذين كانوا قادرين على تحريك جماهير الحارات من أبناء الطوائف والحرافيش والحشرات على حد توصيف مؤرخ العصر الشيخ عبد الرحمن الجبرتى، وأخيراً فى إنهاء وجود هذا العنصر الذى مسك برقاب المصريين لقرون طويلة مضت.. أمراء المماليك. ونبدأ بحكومة الباب العالى، ولأن الرجل كان من ركائزها فى مصر فقد أدرك كيفية التعامل معها، والذى قام على مجموعة من الأسس أن تبقى سيادتها على البلاد

ممثلة فى الجزية التى تمد بها مصر خزينة الدولة العليا، وأن يصدر فرمان تولية الباشا من الباب العالى، ثم أن تقوم مصر باسم السلطان بالواجبات الملقاة عليها حيال الأماكن المقدسة الإسلامية. ولا يعلم كثيرون أن مصر كانت مسئولة عن أغلب النفقات المطلوبة للحجاز طوال العصر العثمانى وبعده لفترة، وقد قدم الدكتور فؤاد الماوى فى عمله الفريد تحت عنوان (العلاقات الاقتصادية والمالية بين مصر والحجاز من الفتح العثمانى إلى الاحتلال(الفرنسى) معلومات إضافية حول هذه النفقات، بدءاً من مبالغ طائلة تصرف على قافلة الحج وأخرى تصرف على القلاع والحرس المنتشرين على طول درب الحجيج، فضلاً عن الكسوة الشريفة والغلال التى ترسل على شكل صرتين، لكل من مكة والمدينة صرة.

وكان هذا الإدراك وما تبعه من سياسات وراء حصول محمد على من حكومة الأستانة على فرمان التولية عام ١٨٠٥ ثم على فرمان تثبيت ولاية فى العام التالى دون أن يتأثر بحملة (قبطان باشا) التى جاءت فى ذلك العام الأخير، وفى جعبة قائدها سياسة رامية للتخلص من هذا الباشا الطموح الذى لم يجلس على كرسى الولاية فى مصر بقبول سلطانى كامل، وإحلال أحد عناصر النظام القديم محله، وكان أحد أمراء المماليك (الألفى بك)، وبعد أن عرض الباب العالى على محمد على ولاية صغيرة أخرى غير مصر، سلانيك وعلى الرغم من أن الرجل أبدى استعداده لتنفيذ المطلوب منه، إذ كان يعلم أن المواجهة مع الدولة فى ذلك الظرف، وهو لا يملك القوة التى تمكنه من هذه المواجهة لن تكون ذات جدوى، لكنه كان يعلم أيضاً أنه كانت هناك وسائل أخرى تمكنه من التأثير على قرارات حكومة الباب العالى أو مندوبها فى مصر، قبطان باشا وقد استخدمها سواء كانت بالمال والهدايا، أو بـ (عرضحالات) العلماء، وأهل الحل والعقد الذين تمسكوا بالرجل، ونجحت الخطة خاصة بعد الوفاة المفاجئة للأمير المملوكى الذى كان مرشحاً لأن يحل محله. المفردة الأخرى الخاصة بـ (النظام القديم) بدت فى السعى للتخلص من نفوذ العلماء الذين ولوه الباشوية فى مايو عام ١٨٠٥ ودعموه حتى استقر فى منصب الباشوية، ولم يعد يلقى تهديداً من الحكومة العليا، ويصور البعض أن ما

جرى من هؤلاء فى تلك الحادثة الشهيرة كان أقرب لما جرى من البارونات الإنجليز عام ١٢١٥ حين أجبروا الملك جون على توقيع ما عرف فى التاريخ بـ الماجنا كارتا ويستدلون على ذلك بالحديث الذى جرى بين هؤلاء وبين محمد على عندما ألبسوه الكرك والقفطان فى الحادثة المشهورة، وهو تصوير يعوزه الدقة، فعلماء الدين فى مصر حتى ولو نجحوا فى تحريك الناس فى موقف معين،فإن النجاح يرتبط فى العادة بظلم غير مقبول يقع من الحاكم غير المصرى على الرعية التى تكون مؤهلة لإعلان رفضها لهذا الظلم، خاصة عندما يكون فادحا ثم أنهم لا يملكون القوة العسكرية أو الاقتصادية التى تمكنهم من مواجهة أى من هؤلاء الحكام، الذين يمتلكون فى العادة الشرعية المستمدة من الفرمانات الشاهانية ويمتلكون فى الوقت نفسه القوة العسكرية التى تمكنهم من ضرب أى عمل يقوم به المصريين ضدهم.

والدليل على الاختلاف بين الواقعتين ما حدث يوم ١٢ أغسطس عام ١٨٠٩، حين بدأ وضع القرار الذى أصدره الباشا بنفى السيد عمر مكرم إلى دمياط موضع التنفيذ، كما يقول الشيخ الجبرتى أنه شيعه الكثير من المتعممين وغيرهم، وهم يتباكون حوله حزنا على فراقه، وكذلك اغتم الناس على سفره، وخروجه من مصر، لأنه كان ركنا وملجأ ومقصدا للناس، ولتعصبه على نصرة الحق، فسار إلى بولاق ونزل وسافر ليلته بأتباعه وخدمه الذين يحتاج إليهم فى دمياط بمعنى آخر أن كل ما حدث بالنسبة لهذا الزعيم كان التباكى حزنا على الفراق !.

المفردة الأخيرة كانت التخلص من القوة الضاربة للمماليك، ومرة أخرى ظروف ملائمة وعاها الرجل، وكانت الضربة النهائية فيما جرى فى القلعة فى ١٢ مارس عام ١٨١١ حين دعا الباشا عددا من أمرائهم بمناسبة توجه ابنه طوسون إلى جدة لمحاربة أعداء الدولة من الوهابيين وأعمل فيهم جنوده بنادقهم وسيوفهم فأفنوهم عن آخرهم باستثناء واحد منهم نجح فى عبور سور القلعة، فى الوقت نفسه كانت قد صدرت التعليمات لجنود الباشا الموجودين فى سائر أنحاء العاصمة على التخلص ممن يجدونهم من هؤلاء الامراء، وهى على أى الأحوال قصة معروفة، وإن كان ثمة اختلاف

فهو فى الدلالات التى نخرج بها منها، ذلك أن العديدين نظروا إليها بمعيار اخلاقى، وأسموه أن ما قام به الباشا مذبحة المماليك وإنها قامت على الغدر بهؤلاء.

وفى السياسة لا تصلح المعايير الأخلاقية لإصدار الأحكام، والمعلوم أن الملوك فى غرب أوربا قد استخدموا أحيانا وسائل أقسى من تلك التى استعملها محمد على لبناء الدولة المركزية، ولعل القصة الشهيرة للملك هنرى الثامن وصديق عمره السير توماس مور، الذى لم يقر سياسة الملك فى الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية، التى انتهت بإعدام الأخير، تقدم دليلا على ذلك.

أضف إلى هذا حقيقة أخرى وهى أن المماليك كانوا عنصر عدم استقرار فى الواقع المصرى طوال القرن الثامن عشر، وكان لابد من التخلص منهم لتوفير الجو العام الذى يمكن الباشا من بناء الدولة المركزية التى تطلع لتأسيسها.

لقد أدرك محمد على، وربما قبله عدد من المستنيرين المصريين، مثل الشيخ حسن العطار، بل والشيخ عبد الرحمن الجبرتى، رغم محافظته ورغم ما كان يكنه لمحمد على من كراهية لأسباب شخصية.. أدركوا أن الزمن قد اختلف بعد أن شهدوا التفوق الفرنسى الظاهر سواء فى ميادين القتال أو ميادين الثقافة، حتى أن الأخير الشيخ الجبرتى، كتب فى موسوعته التى وضعها تحت عنوان عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، وبعد أن شاهد بعض التجارب الكيماوية التى قام بها علماء الحملة يعترف بعجزه فيما جاء فى قوله أن ما رآه عندهم لا تسعها عقول أمثالنا.

إذن فلم يكن محمد على وحده هو الذى رأى على ضوء ما حدث أن هنالك ضرورة للتغيير، وإن لاحظنا أنه بحكم وضعه العسكرى كأحد ضباط القوات العثمانية التى جاءت إلى مصر للتخلص من الفرنسيين، قد بدأ بمحاولة إعادة بناء جيش على أسس حديثة، رافضا فى هذا أن يعتمد على العنصر العسكرى الذى طالما استند إليه النظام القديم، سواء من رجال فرق الحامية (الأوجاقات) العثمانية التى وجدت فى مصر، أو المماليك، الذين لحقت بهم أسباب الضعف سواء من جراء حروبهم المتلاحقة مع الفرنسيين أو اقتتالهم بين بعضهم البعض، أو عدم تجديد دمائهم نتيجة لانقطاع

الوارد إليهم، وهو نفس ما لحق بالقوات التى أرسلتها الدولة للعمل على التخلص من الوجود الفرنسى فى البلاد، فقد كان لجميع هؤلاء ولاءاتهم الخاصة، وكانوا على استعداد أن يخرجوا على السلطة فى أى وقت، مما لا يمكن معه توفير المركزية لهذه السلطة، التى كانت أول شرط من شروط تفعيل المكانة. ولن نتطرق هنا إلى الخطوات التى اتخذها الباشا لبناء قوة عسكرية حديثة، فهى أكثر من معروفة، ولكننا نفضل البحث عن آثار هذه العملية فى إعادة مصر إلى مكانتها التى طالما احتلتها من قبل.

معروف أن الباشا المجدد بدأ بالتخلص من النظام العسكرى القديم الذى كان قائدا لإحدى فرقه وتخلص من مجموعاته سواء فى حروبه الداخلية ضد المماليك أو فى الحملة على الجزيرة العربية ضد الثوار الوهابيين (١٨١١- ١٨١٨)، وهى الحملة التى قام بها استجابة لمطلب الباب العالى بعد أن عجز حكامه فى الولايات المجاورة عن القيام بهذه المهمة، وما تلاها من حملة السودان (١٨٢٠) التى يفضل العديد من المؤرخين المصريين توصيفها بـ إعادة تنظيم شئون الجنوب، وهى الحملة التى فتحت باب إعادة بناء الجيش المصرى على أسس حديثة. وفى قولة لنا فى إحدى المناسبات الخاصة بالقوات المسلحة رددنا عبارة أن اللى بنى مصر ليس حلوانى وإنما الجيش المصرى وكنا نعنيها، فانطلاقا من الرغبة فى بناء جيش حديث تغيرت كثير من الأوضاع القديمة القائمة، والتى كانت تحجب المكانة المصرية صحيح أن السيطرة على السودان أغرت الباشا الطموح على تكوين جيش مصرى يخضع لما تخضع له الجيوش الأوربية من تدريب وتعليم فى مدارس عسكرية متخصصة، ولا تقوم على الشجاعة والفروسية التى لم تصمد أمام قوات الحملة الفرنسية، ولأنه أراد أن يوفر للدولة التى أقامها جهد الفلاح الذى احتكر عائده من خلال نظام الاحتكار الذى فرضه، فقد فضل أن يكون الجيش الجديد من ضباط من الأتراك وجنود من السودانيين، غير أنه بعد أن أخفقت جهوده بالنسبة للأخيرين، اضطر اللجوء لتجنيد الفلاحين المصريين، وكان لهذا التغيير آثاره البعيدة المدى فيما أحرزته مصر من مكانة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر وما بعده!. من آثاره بناء نظام تعليمى حديث، وإن جاء على شكل هرم مقلوب، فقد بدأ بالمدارس العليا، وقد

استمد طلابها من أبناء الترك، ولكنه لم يلبث أن دخلها أبناء الفلاحين، وكان أغلبهم من الدارسين فى الأزهر، مما دفعه إلى أن يبدأ فى فتح ما عرف بـ المدارس الابتدائية، التى تؤهل من يدخلها إلى مدارس المرحلة التى تليها. فضلا عن ذلك فقد بدأ الرجل انطلاقا من نفس الإعداد بإرسال البعوث العلمية إلى دول أوربا، خاصة إلى فرنسا وبريطانيا والنمسا، والتى تلقى أبناؤها تعليما متخصصا ورأوا معه العالم الجديد الذى لم يعد غريبا بالقدر الذى كان عليه قبل قدوم الحملة الفرنسية، وكان منهم المصريون الذين كتبوا عن هذا العالم وعلى رأسهم الشيخ رفاعة الطهطاوى الذى ذهب إماما لإحدى البعثات فوضع، بناء على نصيحة أستاذه الشيخ العطار، كتابه المشهور تخليص الإبريز فى تلخيص باريز!. وقد شكل هؤلاء جسرا مع أوربا بعد أن كانت قد تقطعت أغلب هذه الجسور خلال العصر العثمانى، وهو الجسر الذى قواه استعانة الحكومة المصرية بعدد من الخبراء الأوربيين، خاصة الفرنسيين سواء فى التعليم أو فى غيره من وجوه النشاط الاقتصادى، واشتهرت أسماء مثل سليمان باشا الفرنساوى (الكولونيل سيف) المسئول عن أركان حرب الجيش الجديد، وكلوت بك ناظر المدرسة الطب، وسريزى مؤسس ترسانة الإسكندرية، الذين كانوا من صناع التحديث للدولة الجديدة. وقد لعب الجيش الجديد الدور الأساسى فى تفعيل مكانة مصر خلال هذه المرحلة، ويتصور العديدون أننا نعنى بذلك فحسب نجاح هذا الجيش فى توسيع المجال المصرى إلى ما يراه الجغرافيون الحدود الطبيعية التى توفر لهذا الوطن أمنه القومى بدءاً من جبال طوروس فى الشرق، وإلى أقصى ما يمكن الوصول إليه فى الجنوب على طول مجرى النيل الذى يؤمن للبلاد حاجته المائية، وهى السياسة التى لم يقتصر على الجانب العسكرى وإنما امتدت إلى مشروعات الرى وكان أشهرها القناطر الخيرية التى شرع فى بنائها فى عهد محمد على، هذا فضلا عن المكانة التى احتلتها فى العالم الإسلامى بعد تأمين زيارة الأماكن المقدسة بتخليصها من الهيمنة الوهابية. ما نعنيه هنا آثار هذا البناء على مختلف أوجه الحياة فى مصر، اقتصاديا، بمحاولة تحديث أساليب الزراعة سواء بمشروعات الرى، كما سبقت الإشارة، أو بإنتاج المحاصيل النقدية التى كانت أوربا فى مسيس الحاجة إليها خاصة مع

سياسة الحصار القارى التى فرضتها البحرية البريطانية على أوربا خلال الحروب النابليونية، وهى السياسة التى حدد ملامحها القانون الذى صدر تحت عنوان لائحة زراعة الفلاح وتدبير أحكام السياسة بقصد النجاح. وإن كان الاقتصاديون والمؤرخون المصريون يأخذون على محمد على أنه قد اتبع سياسة الاحتكار فى هذا المجال والتى راح الفلاح المصرى ضحيتها، مما أدى إلى انتشار هروب هؤلاء من أراضيهم وهى الظاهرة التى كانت تسمى بـ التسحب غير أن ما ينساه هؤلاء فى هذه المناسبة أن رجال الملتزم فى النظام السابق، كانوا نتيجة لفسادهم ومطالبهم المتنوعة، أكثر قسوة من رجال الباشا فى تنفيذ سياساته الاحتكارية. المهم أن هذه السياسة قد لبت احتياجات الدولة الحديثة، فهى مع الاستمرار فى دفع المطلوب من الخزينة العثمانية، تكلفت بنفقات الجيش المصرى، ولم تكن على الشئون العسكرية فقط، إنما امتدت على لما تبعها من نفقات فلا يعلم كثيرون أن مصر قد سبقت المكتشفين الأوربيين لمنابع النيل بحملات كشفية متتابعة أرسلتها إلى تلك الجهات وارتبطت باسم مكتشف مصرى مشهور هو سليم قبطان. منها أيضا الآثار الإدارية فقد أعاد محمد على تنظيم الإدارة السياسية على النحو الذى يلاءم مصر، وهو الطابع المركزى، فأقام سبع إدارات حكومية جديدة عرفت باسم الدواوين، وكان أهمها ما يتصل بموضوع المكانة إقامة ديوان التجارة والأمور الإفرنكية بعد أن كان المسئول عن الاتصال بقناصل الدول فى القاهرة فى العصر العثمانى مجرد موظف، وكان فى الغالب هو غير المصريين، حيث كان يشترط فيه معرفة اللغات الأجنبية والفرنسية على وجه الخصوص، يحتل وظيفة الباشترجمان وكان الديوان الجديد يقوم بمهام متعددة سواء بالاتصال بهؤلاء الذين زادت أهميتهم مع زيادة حجم الدور المصرى فى العلاقات الدولية، وكان مسئولا عن عقد الصفقات مع الخارج، وكان له وكلاء فى بعض العواصم الأوربية.. باختصار كان هذا الديوان الذى قام عام ١٨٢٦ المخلوق الجنينى الذى شكل بعدئذ وزارة الخارجية المصرية أقدم وزارت الخارجية فى العالم العربى. من الآثار المهمة الأخرى لقيام الجيش المصرى فى تفعيل المكانة ما حدث بعد دخول أبناء الفلاحين سلك الجندية، وكان محرما عليهم من قبل، وهو الأمر الذى عبر

عنه محمد على بنفسه قبل البدء فى مشروعه، فعندما توجه إليه بعض الزعماء بعد أن بلغت مسامعهم أخبار الحملة البريطانية المعروفة بحملة فريزر التى احتلت رشيد عام١٨٠٧، وطلبوا منه مدهم بالسلاح للدفاع عن البلاد جاء رده ليس على الرعية حمل السلاح لكنه كما سبقت الإشارة اضطر إلى تجنيد المصريين سواء من الفلاحين أو أبناء الطوائف فى المدن بعد أن فشلت محاولته فى تلبية حاجة الجيش من السودانيين. وأهمية هذا العمل أنه لأول مرة يشكل المصريون عنصرا من عناصر القوة العسكرية لبلادهم، صحيح أنهم بدأوا جنودا، غير أنهم فيما بعد، خاصة فى عصر سعيد، احتلوا بعض مناصب الضباط، ولو حتى من تحت السلاح، في ما جرى مع أحمد عرابى، وزملائه، والذين قاموا بثورتهم لأسباب وطنية، وأسباب تتعلق باستمرار الضباط الأتراك (الشركس) فى مراكز القيادة العليا ولأول مرة أيضا يدخل هؤلاء سلك الجندية كمصريين قبل أى اعتبار آخر، فقد كانت حملات الباشا للحصول على حاجة الجيش من الجنود لا تفرق بين المسلمين والأقباط لينصهروا جميعا فى ميدان الحرب وتجمع بينهم مصريتهم.

من ثم كان ما حدث من ظهور الوطنية المصرية قبل غيرها من الوطنيات فى سائر أنحاء العالم العربى، وهى التى بدأت تتضح معالمها بعد حصول مصر على مكانة متميزة داخل العالم العثمانى بعد تسوية ١٨٤٠- ١٨٤١، ثم استقرت خلال الثورة الوطنية التى عرفت بالعرابية، حتى أنها رفعت شعار مصر للمصريين، وتأكدت فى مطلع القرن العشرين بعد تأسيس حزب الأمة عام ١٩٠٧ الذى رفض فيلسوفه، أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد، فكرة الجامعة الإسلامية التى كان ينادى بها السلطان العثمانى، بعد أن تذكر ثوب الخلافة فارتداه، رآها فضفاضة، ونادى بالوطنية المصرية التى قامت على أساسها ثورة ١٩١٩ وكانت مصر فى ذلك الأسبق فى إعادة الفعالية لمكانتها التى طالما تمتعت بها، والتى يصعب إزاحتها عنها رغم محاولة ذلك من أطراف عديدة من داخل المنطقة وخارجها !!.

■■■



محـمـد علـى وفلسـطين

■■

بمناسبة ذكرى اغتصاب فلسطين السابعة والخمسين، نشر موقع قدس برس ملفاً لافتا وهو بعنوان الخلفية التاريخية للنكبة. يعطى هذا الملف فكرة شاملة عن أسباب احتلال فلسطين، ويبرز من خلاله دور تجربة محمد على فى حماية القدس من الاحتلال، وللأسف لا يعرف كثيرون من الفلسطينيين والعرب والمسلمين ومن أحرار العالم لماذا احتلت فلسطين. ففلسطين جاء احتلالها ضمن حسابات جغرافية سياسية محض لقوى الاستعمار الأوروبى، والكثير من تلك الحسابات ما برح قائماً حتى يومنا هذا.

وأهم تلك الحسابات كان:

١ - منع قيام دولة عربية قوية على طرق التجارة العالمية للاستعمار القديم.

٢ - ضرورة السيطرة على فلسطين ضمن ذلك السياق لمنع قيام دولة الوحدة العربية، فأهمية فلسطين هى موقعها الجغرافى السياسى فى قلب الوطن العربى.

ومن أجل تحقيق هذه الغاية الاستراتيجية، قام الاستعمار البريطانى آنذاك بأمرين:

١ - التعاون مع تركيا العثمانية ضد محمد على باشا الذى يمكن اعتباره بحق أهم شخصية عربية منذ حوالى ألف عام.

٢ - تعزيز تركيا العثمانية فى وجه روسيا القيصرية.

ومن الغريب جداً أن يعتبر البعض أن التخلص من الاحتلال العثمانى كان خسارة للعرب مع العلم أن تركيا ما استمرت إلا بفضل بريطانيا، هذا فضلاً عن الطابع المتخلف القروسطى للاحتلال العثمانى. وإليكم بعض الشواهد على ذلك من دراسة موقع قدس نت يعرفها على الأرجح كل من قرأ التاريخ العربى الحديث بتمعن:

كذلك عاونت القوات البريطانية القوات العثمانية على إجلاء القوات الفرنسية عن مصر عام ١٨٠١ ولكنها لم تحاول البقاء فيها آنذاك.

وعادت أطماع الكولونيالية البريطانية بادية للعيان فى فترة محاولة حاكم مصر محمد على وولده إبراهيم إقامة الدولة العربية الكبيرة الأولى فى الفترة المعاصرة بين ١٨٣١-١٨٤٠.

آنذاك وقفت بريطانيا بوضوح وعنف تقاوم هذه الدولة الفتية، التى امتدت من مصر عبر سوريا الطبيعية حتى حدود آسيا الصغرى، وتعاونت مع الإمبراطورية العثمانية والدول الكولونيالية الأوروبية الأخرى لإجلاء القوات العربية المصرية عن سوريا وإعادتها إلى مصر وحصر الدولة الحديثة التى كانت تنمو فى حدود مصر.

وقامت عام ١٨٤٠ القوات البريطانية البرية، التى أنزلت على ساحل سوريا، والبحرية التى كانت تقصف القوات المصرية من البحر، بدور فعال فى تقهقر قوات إبراهيم المصرى وانسحابها من سوريا.

وهكذا، تعاونت الدول الأوروبية، خاصة بريطانيا، ضد محمد على بانى النهضة العربية الحديثة، لكى تعيد سوريا والمناطق الواقعة تحت حكم محمد على إلى الدولة العثمانية.

وتدعم الوقائع هذا التقدير، فوزير خارجية بريطانيا (ورئيس وزرائها فيما بعد) بالمرستون فى رسالة إلى سفير بلاده فى نابولى بتاريخ ٢١ آذار (مارس) ١٨٣٣ كتب:

«إن هدف محمد على الحقيقى هو إقامة مملكة عربية تضم جميع البلاد التى تتكلم العربية، وقد لا يحوى هذا المشروع ضرراً ما فى حد ذاته ولكنه سيؤدى إلى تقطيع أوصال تركيا وهذا ما لا نرضى عنه، وفضلاً عن ذلك فلا نرى سبباً يبرر إحلال ملك عربى محل تركيا فى السيطرة على طريق الهند». (المصدر ذاته ص ٢١-٢٢).

وضمن هذا السياق، جاء تبنى الاستعمار البريطانى للفكرة الصهيونية:

كتب ناحوم سولوكوف، أحد كبار مؤسسى الحركة الصهيونية، يبرز الصلة بين محاولة إقامة الدولة العربية الكبيرة وتبنى الكولونيالية البريطانية الفكرة الصهيونية من قبل أن تنشأ منظمة صهيونية أو يضع أسسها أيديولوجى يهودى فأكد:

ونشأت بعد تدخل الدول الأوروبية لإنقاذ الإمبراطورية العثمانية وإعادة قوات إبراهيم إلى مصر) مسألة مستقبل فلسطين. هل كانت ستبقى بيد تركيا أم هل كانت بريطانيا العظمى ستفوز بالأماكن الهامة. وكان السائد فى الرأى العام البريطانى ضم عكا وقبرص إلى الإمبراطورية البريطانية. فبريطانيا وقد احتلت موقع عكا الحصين الذى لا يقهر كانت لا تضطر إلى السعى لضمان حرية الطريق إلى الهند من أى دولة أخرى. ثم أورد أمثلة عديدة على ساسة بريطانيين نادوا باستيطان اليهود فى فلسطين. (كتابة تاريخ الصهيونية المجلد الأول ١٠٤).

وكان أحد هؤلاء الكولونيل شارلز هنرى تشرشل(١٨١٤-١٨٧٧) أحد ضباط الحملة البريطانية التى حاربت القوات المصرية العربية فى سوريا عام ١٨٤٠.

كتب فى مقدمة كتابه جبل لبنان (بالإنجليزية صدر عام ١٨٥٣): إن كنا نريد الإسراع فى تقدم المدنية وأردنا توطيد سيادة إنجلترا فى الشرق فمن الواجب أن تقع سوريا ومصر تحت سيطرتها ونفوذها بهذا الشكل أو بذاك.

ودعا إلى مثل هذا المستشرق البريطانى السير اوستن هنرى لايارد (١٨١٧-١٨٩٤) عضو البرلمان فى سنوات الخمسين من القرن التاسع عشر، قال فى إحدى خطبه التى عالج فيها المسألة التركية: علينا أن لا ننسى أنه إذا كانت مصر طريقاً من الطرق إلى الهند فسوريا ووادى دجلة والفرات هى الطريق والدولة التى تسيطر على هذين القطرين تتحكم فى الهند.

وقد طابق اشتداد الاهتمام الكولونيالى فى الشرق الأدنى أزمات سياسية دولية معينة، الأولى أثناء محاولة محمد على وولده إبراهيم إقامة الدولة العربية الكبيرة فى مصر وسوريا، والثانية أثناء التوتر الذى رافق مسألة حفر قناة السويس وملابساتها.

ومن الغريب جداً أن يعتبر البعض أن التخلص من الاحتلال العثمانى كان خسارة للعرب مع العلم أن تركيا ما استمرت إلا بفضل بريطانيا، هذا فضلاً عن الطابع المتخلف القروسطى للاحتلال العثمانى. وإليكم بعض الشواهد على ذلك من دراسة موقع قدس نت يعرفها على الأرجح كل من قرأ التاريخ العربى الحديث بتمعن:

كذلك عاونت القوات البريطانية القوات العثمانية على إجلاء القوات الفرنسية عن مصر عام ١٨٠١ ولكنها لم تحاول البقاء فيها آنذاك.

وعادت أطماع الكولونيالية البريطانية بادية للعيان فى فترة محاولة حاكم مصر محمد على وولده إبراهيم إقامة الدولة العربية الكبيرة الأولى فى الفترة المعاصرة بين ١٨٣١-١٨٤٠.

آنذاك وقفت بريطانيا بوضوح وعنف تقاوم هذه الدولة الفتية، التى امتدت من مصر عبر سوريا الطبيعية حتى حدود آسيا الصغرى، وتعاونت مع الإمبراطورية العثمانية والدول الكولونيالية الأوروبية الأخرى لإجلاء القوات العربية المصرية عن سوريا وإعادتها إلى مصر وحصر الدولة الحديثة التى كانت تنمو فى حدود مصر.

وقامت عام ١٨٤٠ القوات البريطانية البرية، التى أنزلت على ساحل سوريا، والبحرية التى كانت تقصف القوات المصرية من البحر، بدور فعال فى تقهقر قوات إبراهيم المصرى وانسحابها من سوريا.

وهكذا، تعاونت الدول الأوروبية، خاصة بريطانيا، ضد محمد على بانى النهضة العربية الحديثة، لكى تعيد سوريا والمناطق الواقعة تحت حكم محمد على إلى الدولة العثمانية.

وتدعم الوقائع هذا التقدير، فوزير خارجية بريطانيا (ورئيس وزرائها فيما بعد) بالمرستون فى رسالة إلى سفير بلاده فى نابولى بتاريخ ٢١ آذار (مارس) ١٨٣٣ كتب:

«إن هدف محمد على الحقيقى هو إقامة مملكة عربية تضم جميع البلاد التى تتكلم العربية، وقد لا يحوى هذا المشروع ضرراً ما فى حد ذاته ولكنه سيؤدى إلى تقطيع أوصال تركيا وهذا ما لا نرضى عنه، وفضلاً عن ذلك فلا نرى سبباً يبرر إحلال ملك عربى محل تركيا فى السيطرة على طريق الهند». (المصدر ذاته ص ٢١-٢٢).

وضمن هذا السياق، جاء تبنى الاستعمار البريطانى للفكرة الصهيونية:

كتب ناحوم سولوكوف، أحد كبار مؤسسى الحركة الصهيونية، يبرز الصلة بين محاولة إقامة الدولة العربية الكبيرة وتبنى الكولونيالية البريطانية الفكرة الصهيونية من قبل أن تنشأ منظمة صهيونية أو يضع أسسها أيديولوجى يهودى فأكد:

ونشأت بعد تدخل الدول الأوروبية لإنقاذ الإمبراطورية العثمانية وإعادة قوات إبراهيم إلى مصر) مسألة مستقبل فلسطين. هل كانت ستبقى بيد تركيا أم هل كانت بريطانيا العظمى ستفوز بالأماكن الهامة. وكان السائد فى الرأى العام البريطانى ضم عكا وقبرص إلى الإمبراطورية البريطانية. فبريطانيا وقد احتلت موقع عكا الحصين الذى لا يقهر كانت لا تضطر إلى السعى لضمان حرية الطريق إلى الهند من أى دولة أخرى. ثم أورد أمثلة عديدة على ساسة بريطانيين نادوا باستيطان اليهود فى فلسطين. (كتابة تاريخ الصهيونية المجلد الأول ١٠٤).

وكان أحد هؤلاء الكولونيل شارلز هنرى تشرشل(١٨١٤-١٨٧٧) أحد ضباط الحملة البريطانية التى حاربت القوات المصرية العربية فى سوريا عام ١٨٤٠.

كتب فى مقدمة كتابه جبل لبنان (بالإنجليزية صدر عام ١٨٥٣): إن كنا نريد الإسراع فى تقدم المدنية وأردنا توطيد سيادة إنجلترا فى الشرق فمن الواجب أن تقع سوريا ومصر تحت سيطرتها ونفوذها بهذا الشكل أو بذاك.

ودعا إلى مثل هذا المستشرق البريطانى السير اوستن هنرى لايارد (١٨١٧-١٨٩٤) عضو البرلمان فى سنوات الخمسين من القرن التاسع عشر، قال فى إحدى خطبه التى عالج فيها المسألة التركية: علينا أن لا ننسى أنه إذا كانت مصر طريقاً من الطرق إلى الهند فسوريا ووادى دجلة والفرات هى الطريق والدولة التى تسيطر على هذين القطرين تتحكم فى الهند.

وقد طابق اشتداد الاهتمام الكولونيالى فى الشرق الأدنى أزمات سياسية دولية معينة، الأولى أثناء محاولة محمد على وولده إبراهيم إقامة الدولة العربية الكبيرة فى مصر وسوريا، والثانية أثناء التوتر الذى رافق مسألة حفر قناة السويس وملابساتها.

ولاحظ هذا الأمر هوراس ماير كلن فى كتابه الصهيونية والسياسة الدولية فكتب: انتشرت فكرة بعث إسرائيل باعتبارها ممكنة التحقيق على صعيد السياسة العملية والمستوى الدينى.

فى بريطانيا وفرنسا بين غير اليهود بشكل أوسع واشد من انتشارها بين اليهود، فبالنسبة لهونغورث حين كتب عام ١٩٥٢ فى إنجلترا (ملاحظات حول وضع اليهود فى فلسطين) لم تكن إقامة الدولة اليهودية فى فلسطين عملاً إنسانياً وعادلاً بل ضرورة سياسية فى الذهن البريطانى لحماية الطريق عبر آسيا الصغرى إلى الهند- أما المحرك المباشر فكان الحديث الملح حول قناة السويس. فهذا المشروع الكبير حرك الفرنسيين للتفكير بالفكرة نفسها(بعث إسرائيل) كما يظهر ذلك من كتاب دينى المشكلة الشرقية الجديدة وكتاب أ. لاهرامى: المسألة الشرقية (ص ٤٨-٤٩).

وحول رعاية بريطانيا لتركيا العثمانية فى مواجهة روسيا القيصرية:

"ثم هناك سبب آخر أبعد بريطانيا عن فكرة احتلال سوريا آنذاك، ونقصد به التوازن الدولى فى العالم. فقد كان يستبعد إجراء تغييرات فى أوضاع الإمبراطورية العثمانية تمنح أى من الدول الكولونيالية امتيازاً على الأخرى."

"وأهمية صيانة هذا التوازن ظهرت فى المناسبتين اللتين نشبت فيهما الحرب بين روسيا القيصرية والإمبراطورية العثمانية، ففى المناسبة الأولى - وعرفت بحرب " القرم".

هزمت فى بدايتها روسيا القيصرية الإمبراطورية العثمانية فاقتحمت بريطانيا ومعها فرنسا وسردينيا وبروسيا ميدان المعركة وقلبت نصر روسيا القيصرية هزيمة وعقد مؤتمر باريس عام ١٨٥٦ وقرر " تمامية السلطنة العثمانية" وتكامل أراضيها".

"أما فى المناسبة الثانية فهزم روسيا القيصرية الإمبراطورية العثمانية عام ١٨٧٦ لم يؤد إلى تدخل عسكرى واستطاعت روسيا القيصرية أن تفرض على الإمبراطورية العثمانية معاهدة سان ستيفانو، إلا أن بريطانيا نجحت فى أن تجند دول أوروبا

الكبرى وأن تفرض على روسيا القيصرية الاشتراك فى مؤتمر برلين والقبول بنتائجه وأهمها إعادة الولايات التى احتلتها روسيا القيصرية إلى الإمبراطورية العثمانية.

على فكرة، موجات الاستيطان اليهودى الثلاثة الأولى إلى فلسطين تمت فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى، وكذلك كان ربع الأراضى التى امتلكها اليهود الغزاة عند إعلان الكيان الصهيونى فى ١٥ أيار ١٩٤٨ قد حصلوا عليها فى ظل الحكم العثمانى، والإحصائيات موجودة لمن يرغب...

الخلاصة أن فلسطين احتلت لمنع قيام الدولة العربية الموحدة، فاحتلالها موجه بالأساس ضد العرب، لا ضد الفلسطينيين، وبالتالى، تحريرها واجب على كل العرب، وواجب على كل المسلمين، وكل أحرار هذه الأرض الذين يناهضون الإمبريالية. فالقضية الفلسطينية قضية عربية لأن فلسطين عربية، ولكنها قضية ذات أبعاد إسلامية وأممية أيضاً.

ملاحظة أخرى: لم يكن محمد على فقط أول حاكم حديث حقق عملياً خطوات ملموسة باتجاه وحدة عربية على الأرض، بل كان بانى الصناعة الحديثة والصناعة العسكرية والنهضة التعليمية والثقافية فى العصر الحديث. وقد وحد وادى النيل (مع السودان) وبلاد الشام والجزيرة العربية حتى أخرج منها من قبل الاستعمار الأوروبى لمصلحة العثمانيين، وكان بالمناسبة من حطم الحركة الوهابية فى الجزيرة العربية بالحديد والنار، فلم يكن خلاف الغرب الاستعمارى معه دينياً، بل قومياً، مع أن محمد على ألبانى الأصل، فتلك لم تكن يوماً مشكلة عندنا، كما لم تكن مشكلة مع صلاح الدين الكردى الأصل من قبله، فالعروبة ليست هوية عرقية عنصرية، بل هوية ثقافية حضارية. ولعل سنوات ١٨٣١-١٨٤٠ التى خطا فيها مشروع محمد على باشا أولى خطواته العملية والوحدوية والتنموية على الأرض أروع سنوات التاريخ العربى الحديث على الإطلاق.

محمد على حكم مصر فأدرك الوحدة كضرورة جغرافية سياسية لا مفر منها، وهو أيضاً ما أدركه جمال عبد الناصر مع أنه لم يبدأ قومياً عربياً. فالوطنية المصرية

الحقة لا يمكن إلا أن تفضى إلى القومية العربية. والفلسطينى المقاوم، لا يمكن إلا أن يتوصل إلى القومية العربية، والفلسطينى القطرى الإقليمى، لا يمكن إلا أن يصبح تسووياً مساوماً مهادناً بحكم اختلال ميزان القوى مع الطرف الأمريكى-الصهيونى، وهذه الأمة إما أن تنتج حركة مقاومة شعبية عربية تميد الأرض تحت أقدامها وإما عليها السلام... وكى لا نجحد البطولة وخط دفاعنا الأول لا بد لنا أن نحى بهذه المناسبة المقاومة العراقية البطلة التى تعيق بتضحياتها تصفية القضية الفلسطينية على يد بعض أبنائها.

■■■



تجربة محمد على
فى بناء الاقتصاد المصرى

■■

ينفرد البحث الذى بين أيدينا بأنه بحث شامل موضوعى أكاديمى، كاتبه هو عبد المجيد راشد أحد أقطاب الفكر القومى المصرى، ومن نشطاء الحركة الناصرية فى مصر والوطن العربى، وتبرز أهمية دراسة راشد من أنها صوت معبر عن انحياز كامل للتجربة الناصرية التى تعتبر منافسة لتجربة محمد على، بالطبع نقصد هنا المنافسة على المكانة التاريخية التى حازتها تجربة كل منهما. ومما ينسب ليوسف القعيد، باعتباره نموذجا للفكر الناصرى، فإنه يرى أن محمد على لم يكن أكثر من حاكم ميكيافيللى يرى أن الغاية تبرر الوسيلة، وقد قال القعيد فى حوار تلفزيونى: نشر لى المجلس الأعلى للثقافة قبل عامين كتاب اسمه "دراسات إيطالية فى تاريخ مصر الحديث" روى فيه قصة محمد على حينما سمع عن كتاب إيطالى تأليف ميكيافيللى فى فنون الحكم والسياسة اسمه "الأمير" الكتاب ذو سمعة سيئة حتى الآن فالغاية لديه تبرر الوسيلة، وروى بالكتاب أن محمد على قال لمن ترجموا له الكتاب بالتركية : "أنا أفعل أكثر من الموجود فى هذا الكتاب". ونحن قد نتفق مع يوسف القعيد بخصوص ميكيافيللية محمد على التى يراها البعض انتهازية ويراها البعض الآخر واقعية، فليست الميكيافيللية فى السياسة كلها شرا. أما راشد فقد كان منصفا لتجربة محمد على كما كان موضوعيا بما يليق بباحث أكاديمى لا يسعى إلا إلى الحقيقة، يقول راشد فى بحثه:

كان محمد على من بين جميع رؤساء الدول فى الشرق الإسلامى فى ذلك العصر القائد الوحيد الذى يعتبر الاقتصاد أساس السياسة، ومن ثم كان هذا الضابط الالبانى

الواعى المدرك رجل دولة، والدولة التى كان بصدد إقامتها تتمثل بادئ ذى بدء عام ١٨٠٥ فى دولة قديمة عريقة ترتكز على جيش قوى فعال وتعتمد على نظام اقتصادى قوى حديث يقوم على الاكتفاء الذاتى.

ولكى نفهم سياسة محمد على الاقتصادية وتوجهاته ينبغى الإشارة إلى انه لم يكن واليا عثمانيا تقليديا شأن الولاة الذين كانت اسطنبول تقذف بهم إلى باشاوية مصر ولا يفعلون شيئا سوى تحصيل الأموال وإرسالها إلى السلطان مع مخصوص يقال له "الصرجى" أى حامل صرة المال، ولكنه كان قيادة مختلفة من عدة أوجه:

فهو لم يكن عسكريا محترفا، وأن كانت هذه صورته التى عرفه بها المصريون، بل كان فى الأصل رجلا مدنيا عمل بالتجارة وخدم فى الجيش العثمانى لبعض الوقت ثم ساقته ظروف الكساد الاقتصادى الذى صنعته حروب الثورة الفرنسية فى أوروبا إلى تلبية دعوة السلطان العثمانى على راس فرقة من الألبان الارناؤود للانخراط فى الحملة العسكرية التى أرسلت لإخراج الفرنسيين من مصر.

ومن ناحية أخرى فأن محمد على لم يكن تركيا آسيويا بالمعنى الاصطلاحى شأن عناصر السلطة العثمانية ولكنه كان أوروبيا من ألبانيا، ومن معاصرته للنشاط التجارى هناك أدرك أن قوة الدولة تتحقق من الصادرات وليس من الواردات وأن التصدير يعنى زيادة الإنتاج وتنويعه لتلبية حاجة الاستهلاك المحلى.

وقد أدرك محمد على بثاقب نظره الخطرين المتلازمين اللذين غدت مصر معرضة لهما فى زمنه، مثلها مثل باقى العالم غير الغربى وهما:

أولا: خطر أن تتجاوزهما الثورة الصناعية الثانية - الرئيسية - التى كانت تنطلق حينذاك بملء سرعتها فى الغرب.

ثانيا: خطر الإبقاء فى ظل مثل هذه الظروف على سياسة الباب المفتوح التى لابد أن تجعل الاقتصاد المصرى أكثر تعرضا لخطر تعديات أوروبا المنطلقة نحو التصنيع.

ولمراجعة هذين الخطرين أقام محمد على عمليا، عبر فترة عشرين عاما، اقتصادا مخططا - قبل أن تصبح هذه الحكومة معروفة بوقت طويل مستفيدا من نصيحة بعض الفرنسيين من أنصار سان سيمون الذين كانوا جزءا من بطانته - وكان قوام هذا النظام هو استيلاء الدولة على كل الفائض المتاح وإنشاء قطاع دولة كبير شرع فى خطة طموحة للتصنيع التعليمى واقتباس أفضل ما كان باستطاعة الغرب أن يقدمه إلى مصر فى مجال المعرفة العلمية والتكنولوجيا بل وجوانب معينة من الثقافة.

فبعد أن استقرت السلطة السياسية فى يد محمد على اثر تخلصه من تهديد انجلترا "حملة فريزر ١٨٠٧" وكانت تحرض السلطان العثمانى ضده، وإبعاده للسيد عمر مكرم ١٨٠٩ ممثلا لزعامة شعبية رفعته إلى كرسى الولاية، ثم تخلصه أخيرا من المماليك ١٨١١، تفرغ لبناء اقتصاديات مصر فى الزراعة والصناعة والتجارة، وما يرتبط بكل منهما من مجالات.

وكان الاقتصاد المصرى قبل حكم محمد على فى غالبه اقرب إلى اقتصاد الحاجة منه إلى اقتصاد السوق، فضلا عن ركوده العام وتدهوره طوال فترة الحكم المملوكى - العثمانى، إذ لم تكن هناك تنمية زراعية حقيقية، أو اهتمام حقيقى بالرى نظرا لأن الحكومات المملوكية - العثمانية المتعاقبة كانت من أصول بدوية لا خبرة لها بالزراعة، الأمر الذى أدى إلى تصحر كثير من الأراضى الزراعية وتضاؤل خصوبتها فضلا عن أن نظام الالتزام فى جمع الضرائب "الخراج" أرهق الفلاح بسبب تحصيل أموال أكثر من المقرر "برانى" وجعل من الملتزم صاحب سطوة ونفوذ بين الفلاحين حتى لقد اعتقد علماء الحملة الفرنسية فى مصر بأن الملتزمين ما هم إلا نبلاء، ومن ثم اتجه نابليون للقضاء عليهم أسوة بما فعلت الثورة الفرنسية تجاه أمراء الإقطاع.

أما الصناعة قبل محمد على فكانت ما تزال بدوية بسيطة لم تصل إلى الآلية التى حققتها أوروبا بفعل الثورة الصناعية فى منتصف القرن الثامن عشر، وكانت طوائف الحرف الصناعية وهى تنظيمات ذاتية حرة قد خضعت للحكومة، وأصبحت مشيخة الطائفة منصبا يتولاه من يدفع أكثر فلم تعد الطائفة والحال كذلك وسيلة للارتقاء بشئون الحرفة.

وأما التجارة وهى وسيلة أساسية فى تدوير راس المال فقد كسدت فى مصر بسبب تحول جانب كبير من التجارة العالمية "الترانزيت" إلى راس الرجاء الصالح فى جنوب أفريقيا بعد الكشوف الجغرافية، كما تأثرت التجارة الداخلية بعدم استقرار الأمن واشتداد النزاع بين الطرق العسكرية المتناحرة والغارات المتلاحقة لبدو الصحراء على القرى الآمنة، كما أدت اتفاقيات الإمتيازات التجارية بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية والتى بدأت فى ١٥٣٥ مع فرنسا إلى سيطرة الأجانب على تجارة الصادرات عن طريق قناصلهم.

كانت تلك هى صورة الاقتصاد المصرى بشكل عام عشية القرن التاسع عشر.

ولذلك كان من الطبيعى أن تأتى الزراعة فى المكان الأول فى إطار الإصلاحات الاقتصادية، ومن المعلوم أن جميع الأراضى باستثناء أراضى الوقف كانت فى أواخر القرن الثامن عشر موزعة على الملتزمين، وكانت مهمة الملتزم الأساسية تتمثل فى "جباية الضرائب الواجبة على قريته أو مجموعة القوى الخاضعة لالتزامه ونقل هذه الضرائب إلى الخزانة المركزية أو الإقليمية".

ومع ذلك فقد أخذت حقوق الانتفاع التى حصل عليها الملتزمون بالتدريج تنتقل فى اغلب الأحيان لصالح عائلاتهم بحيث أن ملكية الدولة أصبحت أشبه بقطعه من اللحم المفتت، تحول دون إقامة الدولة الحديثة المركزية التى يحلم بها محمد على، ومن ثم فقد عمد محمد على إلى القضاء على التناثر، وتشتت إيرادات الأراضى والفوضى والواقع أن الأراضى الزراعية فى مصر عام ١٨٠٥ والتى كانت تبلغ مساحتها مليونى فدان كانت مقسمة إلى ست فئات:

١ ـ أراضى الأبعديات أو الشفالك، وتضم مائتى ألف فدان كان محمد على قد وزعها على أفراد أسرته ورجال الدولة وقواد الجيش وهى أراضى معفاة من الضرائب.

٢ ـ ثم أراضى الالتزام التى حولها – بعد مذبحة المماليك فى القلعة ١٨١١ ـ وتصفيتهم فى مصر العليا ١٨١٢ ـ إلى أراضى أوسية، وتشمل مائة

ألف فدان منحها محمد على كتعويض للمماليك حتى لا تحرم عائلاتهم من كل مصدر للعيش.

٣ ـ ثم أراضى المشايخ أو مسموح المشايخ والمصاطب وهى تمثل ٤٪ من الأراضى الزراعية فى كل قرية بمجموع ١٥٤ ألف فدان، سلمت للعلماء الذين كانوا فى نفس الوقت يقومون بعمل الملتزمين.

٤ ـ ثم أراضى الرزقة وهى ستة آلاف فدان معفاة من الضرائب، منحت هدايا أو عطايا للخبراء الأجانب العاملين فى مصر.

٥ ـ ثم أراضى الأثر التى بقيت خالية وأعطيت للفلاحين.

٦ ـ وأخيرا أراضى العربان التى أراد محمد على أن يستقر فيها البدو.

لقد أدى انفراد محمد على بالحكم إلى انتهاجه سياسة مختلفة لتشغيل آليات جديدة دفعت الاقتصاد قدما إلى الأمام وربطته باقتصاد السوق، وفى خلال ستة أعوام "١٨٠٨ – ١٨١٤" قام محمد على بسلسلة من الإجراءات انتهت إلى تغيير أوضاع حيازة الأرض الزراعية حيث ألغى نظام الالتزام العثمانى وتم ضبط أراضى الأوقاف باسم الدولة وأعاد توزيع حيازة الانتفاع على الفلاحين حيث خصص لكل أسرة ما بين ثلاثة إلى خمسة أفدنة حيازة حسب قدرة كل منها وفقا لعدد أفرادها ولا تنزع الأرض من المنتفع إلا إذا عجزت عن دفع ما لديها من أموال، وقد أصبحت هذه الأراضى فيما بعد أساس الملكية الصغيرة وإلى جانبها استحدث محمد على حيازة الأبعديات والجفالك التى أصبحت أساس الملكية الكبيرة واستحدث ما عرف بمسموح المشايخ والمصاطب ٥٪ تقريبا من زمام القرية للوجهاء والذى أصبح أساس الملكية المتوسطة فيما بعد، وبهذه السياسة أوجد محمد على شرائح اجتماعية ارتبطت بنظامه فى الحياة والانتفاع.

لقد اجمع الخبراء على الثناء على سياسة محمد على فى الأخذ بأساليب الزراعة الحديثة، فقد استحدث أساليب جديدة فى الزراعة من شانها زيادة الإنتاج حيث

استقدم مدربين وخاصة من بلاد اليونان، وانشأ مدرسة للزراعة وعمل على استغلال مـياه نهر النيل الاستغلال الأمثل عن طريق شق القنوات والترع وإقامة القناطر للاستفادة بالمياه طوال العام، فقد أمر عن طريق السخرة بحفر ثلاث وثلاثين ترعة وبخاصة ترعة المحمودية الشهيرة وأقام خمسة عشر جسرا وثلاثة وعشرين سدا فوق النيل.

وكذلك فقد نوع محمد على المحصولان الزراعية وادخل نباتات جديدة لم تعرفها التربة المصرية من قبل سواء لاهميتها للسوق العالمية أو لأهميتها للإنتاج المحلى بدلا عن الاستيراد، ومن ذلك نبات الفوه الأحمر الذى يستخدم فى الصباغة ونبات النيلة الهندية الزرقاء والكندر "نوع من التيل" والقرطم الذى يستخرج منه العصفر والسلجم والسمسم والحناء وقصب السكر والزئبقى والبن وأشجار التوت لتربية دودة القز... إلخ.

ومن جانب آخر فقد كثف زراعة القطن منذ عام ١٨٢١ حتى بدا تصديره من عام ١٨٢٧ والذى حقق للدولة - صاحبة الاحتكار فى مجال التجارة الخارجية - دخولا هائلة ففى عام ١٨٤٥ بلغ المحصول ٤٢٤,٩٩٥ من القنطار وهو ناتج ٢١٢,٤٧٢ من الفدان بزيادة وقدرها ٤٠٠٪ خلال عشرين عاما، وكان يدخل مصانع الغزل المصرية من هذا المحصول ٨٠,٠٠٠ قنطار كحد أقصى ويبقى حوالى ٣٤٤,٩٩٥ قنطار للتصدير.

وقد الزم محمد على الفلاح بزراعة ما يقرره من الحاصلات النقدية على وجه الخصوص وتحقيقا لتنظيم الزراعة والاطمئنان إلى ما تدره كانت الحكومة تزود الفلاح الحائز بلوازم الزراعة من بذور وأدوات يخصم قيمتها من حجم المحصول عند تسليمه وتوريد الباقى لشونة الحكومة بالسعر الذى تحدده الحكومة لتطرحه فى السوق المحلى والخارجى بسعر منافس لتحقيق فائض لخزينة الدولة.

لقد وفرت سياسة محمد على الزراعية راس المال اللازم لتحويل الاقتصاد الزراعى المصرى من اقتصاد غذائى إلى اقتصاد يقوم على محصول نقدى وذلك دون التضحية بإنتاج الحبوب التى كان يقوم عليها الاقتصاد الزراعى المصرى منذ البداية.

ومع ذلك فأن المراقبين الأذكياء فى ذلك العصر لم يخطئوا التقدير فقد أدركوا أن الأمر لم يكن مجرد العمل على الأخذ بالأساليب العصرية وتنظيم الدولة، إنما يتعداه إلى تأكيد استقلال مصر فى مواجهة الدول الأخرى "كما يرى بحق، جون بورنج ممثل انجلترا فى مصر.

لقد استطاع محمد على خلال عشرون عاما أن يحدث انقلابا فى الاقتصاد المصرى ويحدث تغييرا جذريا فى النظام الاقتصادى السائد .. فهل من الممكن تصور مثل هذا الاتجاه داخل الإطار الاقتصادى الزراعى وحده؟ أن محمد على كرجل حرب ورجل سلطة كان يدرك احتياجات الجيش والدولة، فاتجه بعزم وإصرار نحو الصناعة أخذا بنصيحة الأجانب الذين كان يستميلهم إلى بلاطه أمثال : كلوت وجوميل وبوكتى والكولونيل سيف.

وقد بعث محمد على المرحلة الأولى لنمو الصناعة فى مصر عن طريق إقامة صناعات حديثة ومتنوعة تحت سيطرة الدولة وقام بتطوير هذا القطاع تطويرا جذريا تمثل فى تغيير شكل الوحدة الإنتاجية وتطور أسلوب الإدارة والرقابة الصناعية، وانتهج محمد على فى ذلك طريق التنمية المستقلة القائمة على التمويل الذاتى والاعتماد على الموارد الداخلية للدولة، ولم يعتمد على الخارج مبتعدا فى ذلك عن الحصول على قروض أو معونات أجنبية ولأنه كان يراها وسيلة للنيل من استقلال مصر وسيادتها .. وفى سبيل ذلك فقد اعتمد محمد على فى تمويل الصناعة على عدة مصادر ترتكز على أرباحه من الاحتكارات والتجارة وخاصة تجارة القطن وكذلك أرباحه من المشروعات الصناعية القائمة فعلا وأيضا الضرائب وبخاصة ضريبة الأرض.

ففى المرحلة الأولى للتصنيع والواقعة بين عامى ١٨١٦ و ١٨١٨ حافظ الإنتاج الصناعى على طابعه الحرفى، فقد استمر نفس الحرفيين بمهنهم البدائية فى عملهم، لكن محمد على كان يزودهم بالمواد الأولية التى يعيدونها إليه بعد تصنيعها مقابل أجور تدفع لهم، وفى هذه المرحلة جنى محمد على نتائج الاحتكار الذى بدأه عام ١٨١٦ .. مما مهد للمرحلة الثانية والتى بدأت من عام "١٨١٨ - ١٨٣٠" وهى مرحلة الصناعة

الكبرى وبخاصة صناعة النسيج ومصانع التسليح والأخذ بالأسلوب الجديد فى الصناعة الذى يقوم على احتكار المواد الأولية وإنشاء المصانع التى تستخدم البخار كمصدر للطاقة، وتكونت الوحدات الصناعية الكبيرة التى تتولاها الدولة.

وفى مجال التجارة تولت الدولة تجارة الصادرات بعد أن كان الأجانب يقومون بها طبقا لنظام الإمتيازات، كما تولت تجارة الواردات أيضا، ولو أن محمد على لم يكن يسمح بالاستيراد إلا للمستلزمات الضرورية للإنتاج ويتصل بتسهيل الإنتاج الزراعى والصناعى والتجارة وتوفير وسائل النقل والمواصلات ومن هنا عمل محمد على على تمهيد الطرق البرية وتنظيم البريد والتلغراف وبناء أسطول تجارى، وإصلاح الموانئ وتطهير البحر الأحمر من القرصنة لاستخدامه لمرور التجارة بدلا من الدوران حول افريقية عن طريق راس الرجاء الصالح.

لقد كانت ابرز ملامح التغير فى الاقتصاد المصرى على يد محمد على هو تحول الاقتصاد المصرى من اقتصاد اكتفاء إلى اقتصاد تبادل يتجه إلى السوق العالمية بعد أن كان يستهدف السوق المحلية أساسا، وكذلك بدء عصر الزراعة الكثيفة بدلا من الزراعة الواسعة نتيجة لإدخال الرى الدائم وارتفاع الرقعة الزراعية من مليونى فدان سنة ١٨٠٥ إلى ٣,٨٥٦,٠٠٠ فدان سنة ١٨٤٠ حيث كانت معظم هذه المساحات تخضع لنظام الرى الدائم كما تركز اغلبها حول الدلتا .. وإدخال محاصيل جديدة نقدية بحيث تم تنوع المركب المحصول تنوعا كبيرا، كما تم زيادة الإنتاج الزراعى دون أن يكون ذلك على حساب محاصيل الحبوب والغذاء التى كانت أساس الزراعة المصرية منذ القدم وعلى راس هذه المحاصيل كان القطن، أيضا فقد راس محمد على قاعدة صناعية كبرى لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث فهو أول من ادخل نظام المصنع بمفهومه الحديث فى مصر بعد أن كان يتم الإنتاج فى المنازل أو فى ورش صغيرة واستخدم الآلات الحديثة المتطورة فى المصانع واهتم بتدريب العمال المصريين عليها ولم يكتف باستيراد الفن الإنتاجى الأوروبى فقط، إنما قام بتطويعه لخدمة الصناعة المصرية .. وكذلك احتكار محمد على للتجارة خاصة الصادرات والواردات.

لذلك فانه من منتصف ثلاثينيات القرن التاسع عشر وبعد قرابة عشرين عاما من تطبيق هذه السياسة بدأت الدول الأوروبية تدرك أن ثمة شيئا يحدث فى مصر لا يتفق مع الإمتيازات التى تتمتع بها تلك الدول فى اتحاد الولايات العثمانية. ذلك أن تناصل الدول الأوروبية وهم تجار بطبيعة الحال ويقومون بدور الوكيل التجارى فى مصر لاحظوا أن محمد على ألغى دورهم فلا احد يشترى عن طريقهم شيئا ولا احد يبيع لهم شيئا ومن ثم شكاياتهم لدولهم من أن محمد على لا يطبق نظام الإمتيازات، وكانت انجلترا اسبق الدول الأوروبية تضررا من سياسة محمد على الاقتصادية فهى دولة صناعية ويمثل الإنتاج الصناعى مصدرا أساسيا للدخل العام ومن ثم فانها بحاجة شديدة إلى تصريف الإنتاج فى السوق الخارجية تحقيقا لزيادة الموارد من ناحية ولتدوير راس المال من ناحية أخرى وكانت السوق المصرية احد مجالات إنعاش الإنتاج الإنجليزى بهذا المعنى إلا أن سياسة محمد على كان من شانها أن تؤدى إلى إصابة شرايين الاقتصاد البريطانى بجلطة دموية تؤثر تدريجيا على نشاط الدورة الحيوية لراس المال.

ولذلك فقد لجأت الحكومة البريطانية إلى وسيلة أخرى لتشجيع محمد على هذا "المحتكر" على فتح السوق المصرية أمام المنتجات الإنجليزية، ومن ثم أبرمت معاهدة تجارية جديدة مع السلطان العثمانى عرفت باسم "بلطة ليمان" نسبة إلى مكان عقدها، تقضى بأن تفتح أسواق الولايات العثمانية للبضائع الإنجليزية مقابل تحصيل ٩٪ جمارك و٣٪ فى حالة التصدير من الولايات، لعل ذلك يشجع محمد على، غير أن محمد على رفض تنفيذ الاتفاقية لأن تنفيذها يعنى تقويض دعائم سياساته الاقتصادية وكان عودها قد بدا يشتد ويترسخ، فما كان من السلطان إلا أن أعطاه مهلة عام للتنفيذ إلا أن محمد على تمسك بموقفه وأبى أن ينصاع إلى التهديد، وفى أغسطس ١٨٣٩ انتهى عام المهلة دون أن يتراجع محمد على عن موقفه، ثم كان ما كان من تحالف القوى الأوروبية بزعامة انجلترا مع السلطان العثمانى للإيقاع بمحمد على ولكل طرف أسبابه لكن الهدف واحد، السلطان العثمانى كان يخشى تهديد محمد على

بالزحف على استانبول، وانجلترا التى تريد فتح السوق المصرية وأخيرا تم المراد بمقتضى اتفاقية لندن فى يوليه ١٨٤٠.

والدليل على أن سياسة محمد على الاقتصادية كانت السبب فى الإيقاع به اتفاقية لندن نصت فيما نصت عليه على أن محمد على ملزم بتنفيذ الاتفاقيات التى يعقدها السلطان العثمانى مع أى دولة وهى إشارة إلى اتفاقية "بلطة ليمان" وحاول محمد على أن يراوغ لعدم تنفيذ المعاهدة بتشجيع من فرنسا إلا انه لم يكن هناك مفر فى النهاية من الإذعان ثم تجديد سياساته الاقتصادية وبداية الرجوع عنها فى عهد أولاده.

كان محمد على باشا ـ إذن ـ صاحب مشروع سياسى نهضوى يهدف فى المقام الأول إلى بناء قاعدة عسكرية وسياسية حديثة ذات شأن تقى المشرق العربى عدوان الغرب لا عن طريق المواجهة وإنما عن طريق التزود بأسباب المنعة والقوة التى تحقق نوعا من توازن القوى مع الغرب وتجعل الأخير يتعامل مع الدولة العثمانية معاملة الند للند، لذلك فقد سعى إلى أن يقيم فى مصر "دولة نموذجية" حديثة توفر له فرصة إقامة دولة إسلامية قوية من خلال تطبيق نموذج مصر على الدولة العثمانية ذاتها، فقد صرح يوما لبعض خلصائه برغبته فى الوصول إلى الآستانة، وخلع السلطان وتولية ابنه الصبى وتنصيب نفسه وصيا عليه لتتاح له فرصة إصلاح الدولة كلها، وهكذا كانت مصر – عند محمد على – قاعدة انطلاق لمشروع سياسى إقليمى يعتمد على بناء قوة عسكرية كبيرة حديثة، وبناء مثل هذه القوة يحتاج إلى موارد مالية ضخمة تقصر دونها خزانة وإلى مصر التى كانت تعتمد على الخراج والمكوس، ولا يستطيع محمد على أن ينشد تلك الموارد من مصادر خارجية كالآستانة مثلا، فقد جعله الحرص على استقلال قراره السياسى ينفر من فكره الاستدانة ويرفضها عندما عرضت عليه فى العقد الأخير من حكمه، فلا مفر أمامه من أن يدبر الموارد اللازمة لمشروعه السياسى من مصر ذاتها وهو أمر لا يمكن تحقيقه إلا إذا استطاعت "الدولة" أن تضع يدها على موارد البلاد كلها، تديرها وتنميها بالقدر الذى يوفر الأموال اللازمة لبناء القوة العسكرية الحديثة، بما تتطلبه تلك القوة من مؤسسات إنتاجية وخدمية، ومن ثم كانت

السياسات الاقتصادية التى نفذها محمد على – تدريجيا – وانتهت بوضع الاقتصاد تحت إدارة السلطة المركزية وتعبئة الموارد لخدمة المشروع السياسى الإقليمى وإدخال تغييرات هيكلية على النظام الإدارى وما ارتبط بذلك من تطور فى نظام التعليم وما نتج عنه من صحوة ثقافية.

■■■



الأقباط فى دولة الباشا

■■

يمكننا القول بأن عصر محمد على تميز بأنه كان بداية للتعايش السلمى بين المسلمين والمسيحيين تحت سماء هذا الوطن، فهو الذى زرع مفهوم الهوية والوطنية فى قلوب المصريين، وفى عهده عرفوا الاستقلال معنى واسما ومضمونا، وهذه حقيقة لا أعتقد أن أشد أعداء محمد على ينكرونها، وهنا نورد مقالا نشرته جريدة وطنى القبطية حول عهد محمد على ووضع الأقباط خلاله، ومما جاء فى هذا المقال:

حتى نكون منصفين فلابد وأن نقر بأن عصر محمد على يعتبر بداية جديدة لكل شىء فى مصر وخصوصا تجاه المسيحيين فهو الذى أوجد جوا اجتماعيا جديدا واتبع سياسة تسامح حقة، ولأن خلفاءه كانوا مشبعين بنفس هذه الروح فقد انتهجوا نفس السياسة تقريبا. لقد وصل محمد على فى فترة مضطربة، فالخزينة خاوية ومصروفات الدولة باهظة والمسيحيون معرضون دائما لابتزاز الحكام واضطهادهم الشديد، فبدأ فى اتباع سياسة تسامح حذرة ومن ضمن ما قاله لا أريد أن تكون هناك فوارق بين أفراد شعبى المنتمية الى أجناس أو أديان مختلفة، ويجب ألا يختلفوا إلا فى طريقة الصلاة فى معابدهم. وبمجرد ما استقرت له الأمور بدأ فى اتباع سياسة المساواة بين المسلمين والمسيحيين لأنه يحتاج الى خدمات الاثنين، وقدر أنه لا داعى لتحقير المسيحيين بدون سبب لأن أى شخص لا يمكنه تأدية واجبه على أكمل وجه ما لم يكن محترما بين الناس. وتطبيقا لذلك عين بعض المسيحيين كمأمورى مراكز مختلفة أغلبها فى الصعيد، كما ألغى قيود الزى التى كانت مفروضة عليهم. وألغى القيود على ممارستهم لطقوسهم الدينية، ولم يرفض أى طلب تقدموا به لبناء أو

اصلاح الكنائس.ولعله من المفيد أن أنقل هنا جزء من تقرير الدكتور سير جون بورنج John Bouring (محفوظ فى وزارة الخارجية البريطانية تحت رقم ٧٨ مجلد ٣٨١) والذى قدم الى مجلس العموم البريطانى سنة ١٨٤٠ يقول فيه: لا ريب أن نفوذ القبط آخذ فى الازدياد وقد يكون لهم فى قابل الأيام أثر غير ضئيل فى تاريخ مصر. وقد مرت بهم قرون ذاقوا فيها ألوانا من قسوة الألم ومرارة الاضطهاد والإذلال، وكان الترك يعتبرونهم طائفة المنبوذين فى الشعب المصرى. ومع ذلك فهم قوم من صفاتهم حسن المعاشرة وحب السلام والفطنة والذكاء، وأقبح نقائصهم مردها إلى سعيهم وراء ملجأ يعصمهم من النهب والأذى. وثمة شىء من التعاطف بين القبط وأبناء العرب (ربما يقصد المصريين المسلمين) لعله نتيجة ما يقاسونه جميعا من آلام.وقد حدثت انتكاسة أثناء حكم عباس الذى صمم على طرد المسيحيين الذين يرفضون اعتناق الإسلام من مصر إلى السودان، غير أن المنية وافته ولم يحكم سوى حوالى خمسة سنين.لكن البذرة التى بذرها محمد على بدأت تنمو وتؤتى ثمارها، ففى عهد سعيد باشا حدث تطور كبير حيث أصدرت الحكومة فى مارس ١٨٥٨ أمرا بسريان التجنيد على المسيحيين. وبالرغم مما فى هذا الأجراء من مساواة بين المسيحيين والمسلمين فى خدمة بلادهم فإن الأقباط لم يرحبوا به ـ كما يقول د. السروجى ـ لأنهم قوم ميالون بطبيعتهم الى أعمال السلم ولا يرغبون فى الحرب، هذا بالإضافة إلى أن عدم تجنيدهم منذ الفتح العربى لها ـ باستثناء المحاولة التى تمت أثناء الحملة الفرنسية ـ قد أبعدت بينهم وبين الحرب. ونحن نضيف إلى هذا أنها قد تكون أيضا نفس الأسباب التى دعت مواطنيهم المسلمين لعدم الترحيب عندما بدأ محمد على فى تجنيدهم، بالإضافة إلى خوفهم من أن يكون هذا الأجراء وسيلة لاضطهادهم. ونحن نلتمس العذر لمسيحيى ذلك الوقت فى تفكيرهم هذا نظرا لما عانوه من اضطهاد على مدى حكم غير المصريين والذى استمر ما يقرب من ألفى سنة، وخاصة ما تعرضوا له فى فترة عدم الإستقرار التى مرت بها البلاد بعد خروج الحملة الفرنسية وإلى أن استقرت الأمور فى يد محمد على.وترتب على ذلك أن سعيد باشا أيضا ألغى فى ديسمبر ١٨٥٨الجزية

التى ظلت جاثمة على صدور المصريين المسيحيين منذ الغزو العربى فى منتصف القرن السابع الميلادى. وقد يكون من المفيد هنا أن أنقل من خطبة ألقاها سعيد باشا فى مأدبة كبيرة أقامها فى قصر النيل: أيها الأخوان إنى نظرت فى أحوال الشعب المصرى من حيث التاريخ فوجدته مظلوما مستعبدا لغيره من أمم الأرض فقد توالت عليه دول ظالمة له كثيرة كالعرب الرعاة (الهكسوس) والأشوريين والفرس حتى أهل ليبيا والسودان والرومان، وهذا قبل الأسلام وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة كالأمويين والعباسيين والفاطميين من العرب والترك والأكراد والشركس وكثيرا ما أغارت فرنسا عليها حتى احتلتها فى أوائل هذا القرن فى زمن بونابرت. وحيث إنى أعتبر نفسى مصريا فوجب على أن أربى أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيبا حتى أجعله صالحا لأن يخدم بلاده خدمة نافعة ويستغنى بنفسه عن الأجانب، وقد وطدت نفسى على أبراز هذا الرأى من الفكر الى العمل وفعلا التفت الى الناحية المعنوية فى الجيش فعمل على ترقية كثيرين من الضباط المصريين الى المراتب العسكرية السامية بعد أن كانت وقفا على الأتراك والشراكسة.استمر تجنيد المسلمين والمسيحيين على قدم المساواة فى عصر إسماعيل، بل نجد أن الجيش المصرى ضم المسيحيين بجميع مذاهبهم، وبذلك استطاعت مصر أن تحل مشكلة تعدد الديانات فى مصر حلا عمليا، هذه المشكلة التى طالما حيرت الباب العالى وكان غرض الحكومة المصرية من ذلك هو الا تبقى على امتياز يوجد الحسد والبغضاء بين رعاياها.وهنا يمكننا أن نلخص موقف وطبيعة وتأثير ما حدث للجيش المصرى فى الآتى:

- تحول من جيش غير نظامى الى جيش نظامى.
- أصبح جيشا وطنيا.

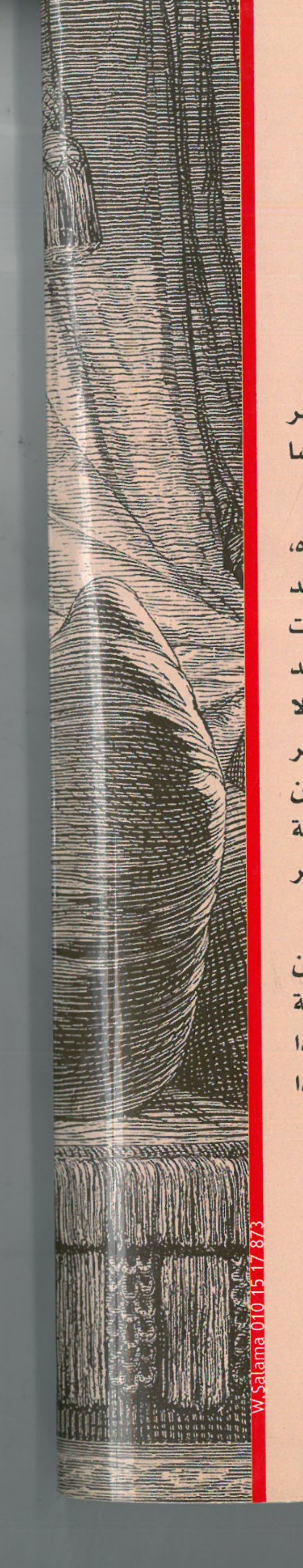
انتقلت السيطرة على مصر من يد المماليك الى يد الطبقة البرجوازية المصرية الجديدة التى يمثلها فى الجيش الضباط المصريون.ثم جاء توفيق بشخصيته التى تختلف تماما عن إسماعيل، إذ لم يكن محبا للمصريين ويميل إلى العناصر التركية

والشركسية. وشعر بقوة عرابى فى الجيش، التى اكتسبها من خلال الأعداد المتزايدة للضباط المصريين الذين لم يكونوا راضين عن الميزات التى ما زال يتمتع بها الضباط الأتراك والشراكسة بينما هم المصريون أصحاب البلد محرومون منها، بالاضافة إلى تبنيه مبادىء الحزب الوطنى الأهلى الذى تأسس سنة ١٨٧٩ م وجعله ميثاقا وطنيا لثورته. بعد ثورة عرابى ومظاهرة عابدين الثانية عمت البلاد حالة من الفوضى مما أعطى الفرصة لبريطانيا لتتدخل بحجة حماية الخديوى، وفى يوليو ١٨٨٢ بعد أن ضرب الأسطول البريطانى مدينة الاسكندرية نزلت القوات البريطانية الى الاسكندرية وبدأ احتلالها لمصر الذى دام ٧٤ عاما. وإذا انتقلنا الى فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية، كتب البكباشى عبدالرحمن زكى تحت عنوان الجيش يؤدى يمين الطاعة للملك يوم ١٤ يناير١٩٣٨: وقد وضعت على قيد خطوتين من مكان جلالته منضدة ومن فوقها المصحف الشريف وقد أصطف ضباط هيئة القيادة فى عرض الغرفة صفين متقابلين ثم أدوا التحية العسكرية لجلالة الملك فرد عليهم التحية شاكرا. وبعد ذلك تهيأوا لحلف اليمين فاقتربوا من المنضدة سبعة فسبعة وكان أحد السبعة وهو أقدمهم يتلو اليمين من ورقة مطبوعة فيرددها الستة الآخرون وكانوا فى أثناء ذلك يلامسون المصحف الشريف المرفوع فوق المنضدة، أما الضابطان المسيحيان وهما اللواء نجيب مليكة باشا والأميرالاى باسيل سوسو بك فقد أمسك كلاهما خلال ترديد اليمين مع زملاءهما بنسخة من الإنجيل المقدس. لقد استعاد جيش مصر هويته المصرية بعد أن ظل فاقدا لها حوالى ألفى سنة. ومن المثير للتأمل أن ما تخوف منه الأتراك فى عهد محمد على ومعارضتهم لتجنيد الفلاحين المصريين قد تحقق: فبعد خمسين عاما تقريبا وقف أحمد عرابى فى وجه الخديوى توفيق مطالبا بمساواة الضباط المصريين بالأتراك والشركس، وبعد سبعين عاما أخرى وبعد تنحية ملك مصر ذى الأصول غير المصرية، يتقلد الحكم مصرىٌ بعد ألفى سنة من حكم الغرباء، ويكون ضابطا من أبناء الفلاحين المصريين. ويؤكد لنا التاريخ أننا كمصريين، وبغض النظر عن انتمائنا الدينى مسلمين ومسيحيين، عندما نتعرض

للقهر نتعرض له سويا - وإن كان بدرجات متفاوتة - وعندما تسنح الفرصة لنا لنيل حقوقنا ننالها معا - وإن كان أيضا حتى الآن بدرجات متفاوتة. لذا فعلينا جميعا أن نعمل لنتخلص من هذه الدرجات المتفاوتة حتى لا تكون عودة الهوية فقط للجيش المصرى ولكن تكون عودة لهوية الوطن ذاته.

■■■







مؤمن المحمدى

الباشا

محمد علي باشا، هو اسم لا يمكن أن تتجاهله، فمصر الحديثة تدين بالفضل لاثنين لا غير، محمد علي باشا وجمال عبد الناصر.

قد تكره محمد علي باشا، قد ترفضه وترفض أفكاره، قد تراه محتلا على خلفية أنه لم يكن مصريا، قد تعتبره مجرما قاتلا، وقد تتخذ منه موقفا لاعتبارات أيدلوجية كما يفعل الوهابيون الذين حاربهم محمد علي وانتصر عليهم، أو كما يفعل القوميون الذي لا يريدون أن يزاحم عبد الناصر على لقب "باني مصر الحديثة" أحد من الزعماء، قد تكون ليبراليا من المؤمنين بمفاهيم الغرب حول حقوق الإنسان والحرية وما إلى ذلك فتعتبره ديكتاتورا ظلم شعبه واحتكر الزراعة والصناعة وأدى بشعبه إلى الهلاك.

قد تكون كل هذا وأكثر، وبالطبع فإن كل هذا من حقك، ومن ذا الذي يدعي أنه يمتلك اليقين أو الحقيقة المطلقة؟ غير أنك، مهما كنت، لا يمكنك تجاهل أن هذا البلد (مصر) قد عرف المدنية الحديثة من خلال هذا الرجل.



W.Salama 010 15 17 873